أحـزان الأنبيـــاء

د. عبد القادر حسين

فهرس الكتاب

- مقدمة -

يحكى هذا الكتاب قصة آدم عليه السلام ، أول من خلق من البشر ، وسمى آدم لأنه من أديم الأرض ، وجعله الله خليفة له ، وفضله على الملائكة، فعلّمه الأسماء كلها ، وطلب من الملائكة معرفتها ، فعجزت ، فسجدوا لآدم إذعانًا لأمر الله ، واعترافًا بفضل آدم فالله يعلم ما لا يعلمون ، كان السجود تحية وتقديرًا وليس عبادة وتقديسًا .

ولكن إبليس امتنع عن السجود لآدم ؛ لأنه اعتقد أنه خير منه ، فهو مخلوق من نار وآدم من تراب ، والنار أقوى وأبهر ، هكذا ظن إبليس .

دخل فى جوف حية ، واجتاز بها الجنة ، والتقى بآدم وحواء ، وأغراهما بالأكل من الثمرة المحرمة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، فكانت الخطيئة التى هبط بها آدم وحواء إلى الأرض ، وشقى بخطيئته ذريته من بعده ، وظل الشقاء محيطًا بها إلى يوم الدين .

وهذه هي قصة نوح عليه السلام كما تحدث عنها القرآن الكريم .

وقد ذكرها لنبينا محمد ﷺ سردًا مفجعًا ، فقد اجترأ القوم على نوح وكادوا له وآذوه ، واتهموه بالحماقة والجنون . وهي عين الأوصاف التي رمى بها مشركو قريش محمدًا ﷺ ، وكأن التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى .

ذكر محمد لقريش قصة نوح كما نزل بها الوحي ، وسجلها القرآن ، لم يعرفها عن طريق أحد من الخلق ، فهو لم يجالس العلماء ، ولم يجتمع بالرواة ، لا عن طريق الأسفار ولا عن قراءة الكتب ، ومن المؤكد أنه لم يشهد ما حدث لقوم نوح بناظريه ، إذ مضى على هذه القصة كثير من القرون .

لم ير محمد الطوفان حين تدفقت السماء بأمطارها ، وتفجرت الأرض بمياهها ، وهاجت الريح بزمجرتها ، واستمرت العاصفة بهديرها ، فطمّ الماء ، وغرق العصاه والكافرون من قوم نوح الذين نبذوا الإيمان ولم يمتثلوا لدعوة الرسول نوح .

صبر محمد ﷺ على تبليغ الرسالة واحتمل أذى قومه المعاندين المكابرين، كما صبر نوح من قبلُ واحتمل ، فكان النصر لمن صبر ، والغلبة لمن احتمل .

صبر نوح فأنجاه الله من الهلاك ، ولقي كثيرًا من العنت ليثني قومه عن الشرك ، ويبصرهم بأمور دينهم وفلاحهم ، ويثوبوا إلى الله الواحد القهار ، فكان نوح أول رسول يبعث إلى أهل الأرض جميعًا في زمانه ، وليس في كل الأزمان كعهدنا برسولنا محمد ﷺ ، ومن ثم كان نوح يلقب بشيخ المرسلين .

آدم وشيث وإدريس عليهم السلام كـانوا أنبيـاء قبـل نـوح و لم يكونـوا رسلاً ، و لم يبعثوا برسالة يصدعون بها لأقوامهم .

فكان نوح أول رسول أرسل للبرية على وجه الأرض .

* * *

وقد ولد إبراهيم خليل الله فى عهـد النُمـرود بـن كنعـان ملـك بـابل ، وكان أهل بابل غارقين فى ملذاتهم وعبادة أصنامهم .

وكان النمرود رجلاً صلب الإرادة ، قوى الشكيمة ، قدّ قلبه مـن صخـر ، ونصب لنفسه إلـهًا من حجر صلد ، يعبده ويأمر قومه بعبادته .

طلـب آزر – وكـان مهندسـا يعمـل بالنجـارة – مـن ابنـه إبراهيـم أن يعرض على الناس التماثيل التى ينحتها رغبـة فـى شـرائها وعبادتهـا ، وأطـاع الابن أباه وامتثل لمشورته ، ولكنه كان يسخر من هـذه الأصنـام فى قـرارة نفسه ، ويهزأ من تعظيمها ، فكان يرفـع صوتـه بـالنداء : مـن يشـترى صنمًـا يضـره ولا ينفعــه ؟ ويجعلهـا فـى المـاء منكوسـة الوجـه و يقـول لهـا اشـربى مستهزئًا بها ، فينصرف الناس عن شرائها .

دعا أباه آزر إلى الوحدانية ، فلم يجد لديه أذنًا صاغية ، ولاقلبًـا خالصـا يخفق بعبادة الله ، وما وجده فى أبيه رآه فى قومـه ، حيـث دعـاهم بأسـلوب رقيق إلى عبادة الواحد القهار ، فلم يجد منهم إلا آذانًا صمًا ، و قلوبًـا غلفًـا ، فلم يستجيبوا لدعوته ، و لم يمتثلوا لعبادة ربه .

طلب من الله أن يغفرلهم ويعفو عن زلاتهم ، ولكنهم لا يفقهون ، فكسر أصنامهم التى ينحتونها ، ويتجهون إليها محتفلين معظمين ، وعلق الفأس بين يدى كبيرهم حتى يزيدهم مقتًا وغيظًا ، فانتقموا منه أفدح انتقام ، وبنوا له بنيانًا واسعًا كالصحراء ، ورموا فيه حطبًا شاهقا كالجبال ، وألقوه فيه ، فإذا إرادة الله تجعل النيران التى أشعلوها بردًا وسلامًا ، ويخرج منها فائزًا مطمئنًا ، دون أن يمسه حرق أو تلذعه حرارة .

رأى إبراهيم فى منامه رؤيا غريبة ، ورؤى الأنبياء حق ، رأى أنه يذبح فلذة كبده إسماعيل ، فراعته الرؤيا ، ولكن لابد من إنجازها ، وحدّ شفرة السكين ليجريها على عنق ابنه ، فافتداه الله بكبش هائل عظيم الجثة ، ومن ثم صار ذبح الأضحية للمسلمين سنة إلى يوم الدين .

وجاءته الملائكة لتبشره هو وزوجه : شيخان طاعنان فى السن اقتربا من المائة عام ، تبشره الملائكة بولادة إسحاق ، وبهدم قرى المؤتكفة من قوم لوط .

ثم جعل الله الكعبة ملاذًا للناس يأوى إليها الخائف فيطمئن ، ويلجأ إليها الفاتك فيسلم ، وكرم نبيه إبراهيم ، فكان يرفع قواعد البيت وإسماعيل يعاونه فى البناء ورفع الأحجار ، فكان البيت الحرام طاهرًا من كل دنس ، خالصًا من كل شائبة ، يطمئن فيه كل من يدخله ، أو يطوف حوله ، أو يقيم عنده ، أو يصلى فيه ، يأمن سكانه من كل خوف أو قحط أو مرض عضال .

كان إبراهيم دائم الدعوة أن يبعث الله من ذريته رسولاً يكمل الرسالة ، وينشر الدعوة ، فاستجاب الله دعاءه ، وأرسل على المدى محمداً ﷺ يعلم الناس القرآن والأحكام ، ويطهرهم من أذى الأوثان وعبادة الطواغيت والأصنام ، فجاء محمد ﷺ ليكمل رسالة إبراهيم أبي الأنبياء وإمام البشر .

كان إبراهيم دائم الدعاء لربه تعالى أن يصلح ذريته ، ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، حتى صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها ، ودفن في قرية حبرون التي تسمى اليوم باسم الخليل .

* * *

والسيد المسيح عيسى ابن مريم كانت ولادته عجيبة الشأن ، حيث ولد بلا أب ، وكانت مريم تتصف بالطهر والبراءة ، ولكن ولادتها لعيسى دون أن تتزوج ، أثار عليها أراجيف القول وعرض سمعتها للخطر .

كان الله معها فأثبت براءتها على لسان طفلها الوليد وهو في المهد ، كان يتحدث كما يتحدث الحكماء من الناس ، ولأنه مؤيد من السماء ، كان كلامه معجزة له بأنه نبي ، وأن أمه بريئة من البهتان .

وكانت لعيسى معجزات جمة ، انتشرت بين الجموع الهادرة التي تتبعه من مكان إلى مكان ، يشفي الزمنى ، ويبرئ الأكمة والأبرص ، ويحيي الموتى ، كل ذلك بإذن الله وأمره ، إلى أن توفاه الله ورفعه إليه ، ليعود في آخر الزمان على الأرض ، ينشر الإيمان ، والمحبة ، والسلام بين الناس .

أ. د. عبد القادر حسين

١٩٩٧/٦/٦

" ويا آدم أسكن وأنت وزوجك الجنة "

سورة الأعراف

قصة آدم عليه السلام

قصة خلق الكون :

الكون يخيم عليه ظلام دامس ، ليس فيه بصيص من نور ، لم يوجد النهار بعد ، ولا كان الليل من قبل ، لم يفصل ليل عن نهار ، ليس فى الكون نجوم ولا كواكب ، لاشموس ولا أقمار ، لم تخلق البحار ولا المحيطات ، ولا الأنهار ولا الخلجان .

ليس فى الوجود أرض ولا سماء ، ولا دواب ولا زواحف أو هوام ، ولا نبات ولا أشجار ، ولا إنسان يعمر الكون ذكرًا أو أنثى .

الوجود موات ، لاجليد ولا صقيع ، لا نار تحرق الأشياء أو تلهب الأجساد، ليس ثمة متناقضات ولامؤتلفات ، فالأرض لم تولد ، والسماء لم تخلق ، والنبات لم يزرع ، والثمر لم يتفتق عن الأكمام ، ليس فى الكون طيور تحلّق ، ولا حيوان يزمجر ، ولادواب تزحف .

لا ماء يطغى ، ولا طوفان يهدر ، ولازلزال يدمر ، ولابراكين تحرق وتجرف ، الوجود كلا وجود ، لاتسمع فيه هدير الأمواج ، ولا أزيز الرياح ، ولا ترى فيه انصهارًا بفعل النيران ، إذ ليس ثمة نيران أو رياح أو أمواه .

كانت الأرض خربة خاوية من كل شىء ، ويغطى الكون كله ظلام دامس ، فخلق الله النور أولاً، فكان النور أحسن من الظلام ، وفصل بين الظلام والنور ، فكان النور نهارًا مضيئًا ، وكان الظلام ليلا أسود .

خلق الله الماء ، وجعله أصل الحياة ، المياه تتدفق فى جميع الأنحاء ، تسيل وتجرى فى كل اتجاه ، لاشىء يوجد فى الكون غير الماء .

فصل الله بين ماء وماء ، بين ماء يعلو وماء يهبط ، فكان من الماء العالى سماء ، وجميع المياه التى تجرى تحت السماء فى مكان واحد ، فظهرت اليابسة ، ودعا المياه المجتمعة بحارًا واليابسة أرضًا .

أمر الله أن تنبت الأرض عشبًا ، وتخرج التربة نباتا ، ويبدو على وجهها فروع الشجر ، وما يحمله من ثمر ، وكان ذلك شيئا مبهجًا وطيبًا .

ثم استوى إلى السماء ، فأوجد فيها النجوم لتنير الأرض ، الشمس بالنهار ، والقمر بالليل ، والنجوم تتناثر فيه وتملأ جوانبه ، ونور النهار عظيم مبصر ، يتواضع بجانبه نور الظلام الهامد الذى ينبعث من نجوم الليل ، فأنار الكون كله على تفاوت فى الدرجة والإضاءة .

وعمر أعماق المياه بحيوان البحر ، بقروشه الكبيرة ، وحيتانه الضخمة ، وأسماكه الصغيرة ، منها طيّعة ومتوحّشة ، مختلفة ألوانها ، وأشكالها وأحجامها .

وعلى سطح الأرض خلق الله الطير ، فحلق فى الهواء مصفقا بجناحيه ، طائرا فى أجواز الفضاء ، وفوق الأرض أوجد الله التنين المخيف والحمامة الوديعة، والحية الرقطاء .

فاضت المياه بحيواناتها ، والأرض بدوابها ، والأجواء بطيورها ، كل الكائنات تتعايش فى دعة وسلام ، البحار مترعة بالمياه ، والأشجار تفيض بالثمار، والطير يغدو ويروج فى ألفة ووئام .

كان العرش علي الماء ، و لم يخلق الله شيئا مما خلق قبل الماء ، فلما أراد للخليقة أن تكون ، أخرج من الأرض دخانًا كثيفًا ، بخارًا متماسكًا ، انعقد فوق أديم الأرض ، وسما عليها ، فسمى : سماء .

ثم أيبس الماء الذى لم يتصاعد فجعل منه أرضًا ، كانت أرضًا واحدة متضامّة ليس فيها شقوق ، ثم فُتِقت فصارت سبع أراضٍ .

كان الله وحده و لم يكن معه غيره ، وثبت عرشه على الماء ، وكتب فى اللوح كل شيء ، ثم خلق الأرض والسماء .

خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، وكانت هذه الأيام الستة مثل أيامنا التى نعيشها الآن ، بوقتها وزمانها .

بدأ الخلق يوم السبت وانتهى منه بعد ستة أيام . خلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، حتى تقرّ الأرض فى مكانها الذى وضعت فيه ، ثبتها وقررها فلا تميد يمنة أو يسرة ، بسط الأرض وجعلها ساكنة غير مضطربة ؛ ليسكن الناس فيها ، وتثبت المعيشة عليها .

وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق الليل يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث الدواب يوم الخميس .

وفى عصر يوم الجمعة أوجد آخر خلقه ، خلق الإنسان ، خلق آدم فى آخر ساعة من ساعات هذا اليوم فيما بين العصر الليل .

جعل الله من الماء كل شىء حىّ ، وفصل بين السماء فكانت مرتفعة ، وبين الأرض فأصبحت منخفضة ، وهبت الريح فسقطت الأمطار ، وتفجرت العيون ، وتدفقت الأنهار ، ونما النبات ، وانتعش الحيوان ، أحيا الماء الأرض فازدهرت ، وصارت خضراء بعشبها ونباتها وأشجارها ، مترعة بثمارها واختلاف طعومها ، وتباين أشكالها .

كانت الأرض مزهوة بنفسها وما تحمله من جمال يسبى العيون ، ويأخذ بالألباب ، فتهفو القلوب ، وتنشرح الصدور ، كانت فى أبهى زينة وأجمل ثوب .

والسماء سطحها أزرق أملس ، مرصّعة بنجومها ، وما يشع فيها من أنوار، وما ينبعث من أضواء ، تبدو للعين مجتمعة ومتفرقة ، ألوانها زاهية ، ونجومها لامعة ، تبدد حُلْكة الليل الساكن البهيم ، وتحيل الكون كله إلى شىء منسجم

متلائم ، لاتنافر فيه ولا اضطراب ، كأنها ثوب قشيب منقوش بأدق الخيوط وأرقى صنوفها .

كانت السماء سراجًا وهاجًا ، خلقها الله بعد أن خلق الأرض ، خلق الأرض أولاً ، ثم عادت قدرته إلى الأرض ثانية ، فدحاها بعد أن كانت منبسطة ، وكورّها بعد أن كانت مستوية .

كان دحْى الأرض وإخراج المرعى بعد خلق السماء ، ولكن الأرض وجدت قبل أن توجد السماء، وبعد أن أوجد السماء أكمل صورة العالم الأرضى، فهيأ لها أماكن الزرع ، ومواضع الأنهار ، فانبثقت العيون ، وانهمرت الأنهار ، ونبتت الزروع ، وظهرت الثمار ، فعمرت الأرض بعد كانت يبابا ، وُفتقت السماء بعد أن كانت رتقا ، وجعلها سبع سموات طباقًا يعلو بعضها بعضًا، وأصبحت الأرض سبع أرضين فى دركات بعضها تحت بعض .

وفي يوم الجمعة جمع الله السموات والأرض ، وأوحى فى كل سماء أمرها، فتحلق فيها الملائكة ، وزينها بالنجوم الثواقب ، وحفظها من مردة الشياطين ، وعتاة الجن ، وعندما فرغ من ذلك استوى على العرش .

لما خلق الله الأرض مادت بما عليها ، واضطربت بما فوقها ، فألقى الجبال عليها ، فإذا هى ثابتة مستقرة ، ساكنة راسخة .

تعجبت الملائكة من خلق الجبال ، وفعلها فى استقرار الأرض ، ولكن الجبال على ضخامة حجمها ، واختلاف ألوانها لم تكن بأقوى مما خلق الله ، فالحديد أشد من الجبال عنفا ، وأثقل من التراب وطأة ، والنار أقوى من الحديد ، فهى تصهره ، والريح أعنف من النار ، فهى تطفئها .

سألت الملائكة ربها ، هل من خلقك شيء أشد من الريح قال :

- ابن آدم يتصدّق بيمينه يخفيها عن شماله .

امتن الله على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار ، فالبحر يحيط بأقطار الأرض ، وماؤه مالح مرّ لا يُساغ ؛ لحكمة عظيمة كانت لمصلحة البشر ، إذ لو كان ماؤه حلوا ومذاقه مساغًا لأنتن الجو ، وأفسد الهواء ، بسبب ما يقبر فيه من الحيوان ، ويهلك من الكائنات ، فيودى إلى فناء البشر ، وموت بنى آدم .

والأنهار ماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابه ، تألفه النفس ويروى ظمأها، فمياه الأنهار جارية تنبع من مكان وتجرى إلى مكان ؛ رزقا للعباد ، فتحيل موات الأرض الحاوية من الزرع والضرع ، وتحرك فيها الحياة متدفقة بفعل أنهارها صغيرة أو كبيرة على حد سواء .

ومن نعم الله أن كف شر البحر عن عباده ، فلا يطغى عليهم ، ولا يعلو فوقهم وإنما هو مسخر لهم ، يمتطيه البشر ، يحمل مراكبهم وأمتعتهم ، ويجوبون فيه بسفنهم ، ينتقلون بها من مكان إلى آخر من الأقاليم الدانية إلى الآفاق القاصية.

وجعل من النجوم علامات يهتدون بها فى عرض البحار ، وساحات البرّ ، بهديها يسيرون ويتوقفون .

وخلق لهم فى قاع البحار اللآلئ النادرة ، والجواهر النفيسة ، التى لا توجد فى غيره ، وجعل بجوار هذه المنفعة ، منفعة أخرى أعم وأكثر فائدة . وهى ما يضمه البحر من حيوان وأسماك ، يحل أكلها حتى الميتة منها .

الأرض مغمورة بالماء ، معظمها ماء ، وفيها القليل من الأرض اليابسة التى انحسر عنها الماء ؛ لتعيش فى هذا القدر الضئيل الحيوانات البرية ، وتنبت الزراعة ، وتبزغ الثمار ، ويحيا الإنسان .

تجرى على اليابسة أربعة أنهار : النيل ، والفرات ، وسيحان وجيحان [1].

ونهر النيل من أجمل الأنهار خفة ولطافة ، يبدأ من الحبشة ويمر على السودان والنوبة وأسوان وافدا على ديار مصر ، يجرف أمامه الطمى ويخصّب الأرض ، ويعوض جدبها من الماء القليل الذى تهطل به الأمطار ، وهو لايكاد يكفى زروعها ونباتها وأشجارها ، فالتربة رملية تمتص ما يجرى فيها من مياه ، فإذا جاءها النيل بطميه ووفرة مائه ، نبت على الأرض ما يفتقر إليه أهلها من خيرات ، وللنيل خصوصية دون سائر الأنهار ، فهو بعيد المسافة من مبدئه إلى منتهاه ، يجرى على صخر ورمال ، ليس فيها طحالب ولا أوحال ، لايخضر فيه حجر ولا حصاة، حتى يتلوث ماؤه ، وإنما يبدو حلوًا نظيفًا سائغًا شرابه .

كل ما على ظهر الأرض من مخلوقات فيه دلالة على قدرة الله وعظمته ، صخورها وجبالها ، وأشجارها وثمارها ، وأنهارها وبحورها وعيونها ، وكل ما خلق من جمادات وحيوانات فى البر أو فى البحر ، فى البرارى والقفار ، وما سهل لكل دابة من الرزق ، وما تحتاج إليه فى يومها وغدها، فى نهارها وليلها ، صباحها ومسائها ، صيفها وشتائها .

هكذا خلق الله السموات بعد خلق الأرض ، ودحى الأرض بعد ما خلق السماء ، خلق السماء عظيمة منبسطة مستوية متسعة ، مرتفعة على الأرض ، غاية فى الحسن والبهاء ، والكمال والسناء ، لاترى فيها عوجا ولا أمْتا ، ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا ، ولانقصًا ولا خللاً ، إذا نظرت إليها ارتد بعدك وهو خاسئ حسير ، وإن أدمنت النظر إليها لاتجد فيها عيبًا ولا فطورًا .

وزينت السماء بمصابيح : بنجوم ثاقبة لامعة ، جعلت علامات للسائرين ، يهتدون بها فى البر والبحر .

---

(١) الفرات بالعراق ، وسيحان بالهند ، وجيحان فى بلخ .

وجعلها رجوما للشياطين فلا تستطيع أن تسترق إليها السمع .

أدخل الليل فى النهار ، وأولج النهار فى الليل ، يأخذ من هذا فينقص ويزيد الآخر ، ويأخذ من الآخر فيزيد الأول ، فالليل والنهار متعاقبان يختلفان زمنا وطولاً ، ولا يعتدلان إلا فى أوائل الربيع وأول الخريف .

وتفاوت ضوء الشمس عن نور القمر ، فى الشكل والقوة ، والوقت والسير، فجعل من شعاع الشمس ضياء غمر به الكون ، وجعل من القمر نورًا أضعف من ضوء الشمس ، فهو يستمد نوره من ضوئها ، والفرع أضعف من الأصل كما يقضى به الأمر ، وتدعو إليه الحاجة .

الخليفة

مهد الله الأرض للإنسان والدواب ، وهيأ البحر للحيوان والركبان ، وأراد أن يجعل له خليفة فى الأرض ، يسكن فيها ويعمر جوانبها بالنسل والذرية . فأوحى للملائكة أن يخلق فى الأرض خلقًا ، ويجعل فيها خليفة ، وليس لله يومئذ من خلق سوى الملائكة ، أما الأرض فليس فيها خلق سوى الجن الذين عبثوا فيها ، وعاثوا فسادًا ، بالمناوشة والقتال والفتن ، يقتل بعضهم بعضًا ، ويريق فريق دم فريق آخر . اغتالوا الأبرياء ، وملأوا الأرض دمارًا وخرابًا وعنفًا ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من أفراد هذا الحى يقال لهم الجن ، فقتلهم إبليس ومن معه من الجن .

تقهقروا أمامه حتى ألجأهم إلى أطراف الجبال وجزر البحور ، ولما انتصر عليهم إبليس تملكه الغرور ، وأخذه الصلف ، فهو المنتصر القوى ، وأيقن أنه صنع ما لم يستطع أن يصنعه غيره .

أطلع الله على ما يعتمل فى صدر إبليس من صلف وغرور ، دون أن يُطلع عليه من كان معه من الملائكة ، فلما أراد أن يجعل فى الأرض خليفة ، لم يخبر ملائكته بمن سيكون الخليفة ، وممن سيختاره ، أهو من الملائكة أم من الجن ؟ لم تعرف الملائكة على من سيقع الاختيار .

بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه ببعض تربتها ، فأجفلت الأرض وروّعت ، واستعاذت بالله منه أن ينقص منها شيئا ، أو يشوّه من هيأتها ، ورجع جبريل دون أن يقبض منها حفنة كما طلب منه الرب ، وأخبر ربه أنها استعاذت منه فأعاذها .

أرسل ميكائيل ليقوم بنفس المهمة التى لم يحققها جبريل ، فعاد إلى ربه ليخبره أن شأنه مع الأرض كان مثل جبريل معها ، و لم يقدر أن يأخذ منها شيئا ، فبعث لها ملك الموت ، فلما استعاذت بربها ، قال : وأنا أعوذ با لله أن أعود إليه دون أن أنفذ أمره وأحقق رغبته .

أخذ ملك الموت من وجه الأرض قبضة من هنا وقبضة من هناك ، لم يأخذها من مكان واحد ؛ بل أخذها من أماكن متفرقة ، وخلط بعضها ببعض، أخذها من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، ولذا خرج أبناء آدم مختلفين فى اللون والشكل ، فصعد بما يحمل من تراب ، وبلّه حتى صار طينًا التصق بعضه ببعض ، وتركه حتى تغير لونه وفاحت رائحته ، وانبعث من الطين روائح كريهة منتنة .

أمر ا لله التربة فرفعت إليه ، وخلق منها آدم ، بخلقه من طين لازب ، طين لزجَ صلب من حمأ مسنون منتن ، خلقه بيديه ، ومكث طيلة أربعين ليلة جسدا مُلقى بلا روح ، جثة هامدة لاحركة فيها ولاحياة .

اتخذَ منها إبليس أداة للهوه وعبثه ، مستهينا بها ، يضربها برجله فتحدث صوتًا ، فهى من صلصال كالفخار ، شىء منفوخ أجوف من الداخل ، يلهو إبليس بهذا الجسم فيدخل فى فمه ويخرج من دبره ، ثم يدخل من دبره ويخرج من فيه . واستهوته هذه اللعبة ، فكان يكررها المرة تلو المرة ، ويقول للصلصلة التى تخرج من هذا الجسم :

- لقد خلقت لشىء ما ، لم أتحقق منه بعد ، ولكننى سأعرفه فى القريب العاجل ، ولئن سلِّطْت عليك لأهكنّك ، ولئن سُلِّطْتِ على لأعصينك .

نفخ ا لله الروح فى هذه الكتلة من الصلصال ، وبدأت النفخة من قبل الرأس ، فكان لايجرى شىء منها إلى الجسد إلا صار لحما ودما ، فلما وصلت

النفخة إلى سرته نظر إلى جسده ، فأعجبه شكله وما عليه من حسن ، فتعجل من أمره ، وقام لينهض فلم يستطيع ؛ إذ أن الروح لم تكن تسرى فى بقية جسده ، فقد خلق الإنسان عجولاً ، لا صبر له على سراء أو ضراء ، لايتذرع بالتمهل ، ولا يتصف بالتأنى ؛ بل كان فى طبعه العجلة والتسرع فى كل الأمور ، فيندم فيما بعد على تسرعه وما فيه من عجلة .

خلق آدم من طين وإبليس من نار ، والملائكة من نور .

كان إبليس يتباهى بأنه خلق من نار السموم ، وهو أفضل ممن خلق من الطين ، يخادع إبليس ويقلب الحق باطلاً ، فالطين أنفع من النار وخير منها ، الطين فيه الرزانة ، والحلم ، والأناة ، والنمو ، والنار فيها الطيش ، والخفة ، والسرعة ، والإحراق .

إبليس استحق اللعنة ؛ لأنه تنقّص من منزلة آدم ، وخالف أمر ربه ، وعاند الحق ، واستعمل إغراءه لآدم بكل سبيل ، حتى جعله يعصى ربه ، ويفعل مانهاه عنه .

والملائكة خلقوا من نور ، وجعلهم الله فى منزلة سامية ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

إبليس كان اسمه الحرث أو عزازيل وكنيته أبو كِرْدَوْس ، نشأ فى حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن ، خلقوا من مارج من نار ، من ألسنتها إذا اندلعت ، ومن لهبها إذا تأججت .

وآدم خلق من طين لازب متماسك .

خلق الله آدم فأسكنه جنته ، فكان آدم خليفته فى الأرض يسكنها ويعمرها هو وبنوه ، خليفة من الله يخلفه فى الحكم بين خلقه ، فكان آدم ومن قام مقامه

من ذريته فى طاعة أمر ربه ، يحكمون بين العباد بالعدل والقسط ، أما الذرية التى تفسد ولاتصلح ، والتى تتحاسد وتتباغض ، يسفك بعضهم دماء بعض دون حق ، ويبغى بعضهم على بعض ، فليسوا خلفاء لله ؛ بل خرجوا عن خلافته وطاعته .

برأ الله آدم من الإفساد فى الأرض ، وسفك الدماء ، وطهره من البغض والحسد ، فالذى يفسك الدم ليس من خلفائه ، وليس هو آدم ؛ بل من ولده الذين اقترفوا ذلك ومارسوه فى دنياهم .

شرف الله آدم بأربعة أشياء لم يحزْها نبىّ بعده .

- خلقه بيده الكريمة . - ونفخ فيه من روحه .
- وأمر الملائكة بالسجود له . - وعلمه الأسماء كلها .

قال الله للملائكة :

- إنى جاعل فى الأرض خليفة يحكمها ويسيطر على شئونها وصلاح الأمر فيها .

كانت الملائكة أجسامًا لطيفة نورانية ، قادرة على التشكل فى هيئات مختلفة مبهرة ، كلها محاسن ليس فيها ما يسوء .

- إنى سأخلق إنسانًا على غير مثال ، ليس من الملائكة ولا من الجن ، سأخلقه بشرًا سويًا أسميه آدم ؛ لأنه من أديم الأرض وترابها .

تعجبت الملائكة عند سماع هذا القول ، وأنكرته فى نفسها ، فكيف يجعل الله فى الأرض من يفسد فيها ، ويسفك دماء خلقه ، يقتل النفوس ، ويزهق الأرواح ، وتصبح الأرض شرًا مستطيرًا .

- ألسنا ملائكتك ، نسبح بحمدك ، وننزّه جنابك ، ونحمدك على ما أضفيت به علينا من نعمك ، فى خلقنا بهذه الصورة ، ووضعنا فى هذه المنزلة ، ونحن نقدسك تقديسًا لا حدّ له ؛ تعظيمًا لك ، وإجلالاً بك .

أوحى الله إليهم أن ذاته العلية تعلم ما خفى على الملائكة من الحكمة والمصلحة ، باستخلاف آدم على الأرض ، فمن ذرية آدم يكون الطائعون والعصاة، والأنبياء والمرسلون ، فلا يعترض أحد على حكمى وتقديرى .

علم الله آدم الأسماء كلها ، جميع المسميات لكل الأشياء والأجناس والأنواع ، علمه ذلك بكل اللغات ، علمه أسماء الملائكة ، والحيوان والجماد ، كل الأسماء برمتها ، كل ما على الأرض من كائنات : من طير وشجر ، ومطعوم ومشروب . خلق لأدم علمًا ضروريًا بمعرفة الألفاظ ودلالاتها على ما تحمل من معنى .

عرض الله هذه المسميات على الملائكة ؛ ليطلعهم على عجزهم أمام أنفسهم ، وليعلموا أنهم أقل شأنا ممن خلقه ، ونفخ فيه من روحه ، فإن كان من خلقه هو الأعلى قدرًا ، فهو أحق بالخلافة إذن .

قال الله لملائكته :

- أنبئونى بأسماء من عرضته عليكم ، قلتم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ، فإن كنتم صادقين فى مقولتكم إنى جعلت خليفتى من غير الملائكة ، من الذين يعصوننى ولا يطيعون أوامرى ، ويفسدون فى الأرض ولايصلحون . وإن جعلت الخلافة فيكم أطعتم قولى ونفذتم أمرى .

إنكم لا تعلمون أسماء المخلوقات التى عرضتها عليكم ، وهم من خلقى ، تبصرونهم بأعينكم ، وتعاينونهم بأنفسكم ، وقد عرف آدم الأسماء كلها ، أسماء

جميع مخلوقاتي ، فقد علمته إياها ، فأحرى بكم ألا تسألونى عما ليس لكم به علم ، فأنا أعلم بما ينفعكم ويصلح خلقى .

وإذا كنتم لاتعلمون أسماء ما خلقت ، وهى ماثلة أمام أبصاركم ، فكيف بما لم تروه ، ولم يعرض عليكم من خلقى .

- قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وسارعوا إلى الرجوع عن الهفوة التى ارتكبوها عندما سألوا ربهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. وبادروا إلى العودة عن الزّلة .

قالت الملائكة :

- نحن نسبح بحمدك ، وننزهك عن كل مالا يليق بذاتك العلية ، ولا نعمل إلا ما تقتضيه المصلحة وتوجبه الحكمة ، لا نعمل إلا ما تأمرنا به ، ولا ننتهى إلا عما تنهانا عنه ، ولا علم لنا إلا ما علمتنا ، وقد كان سؤالنا استفسارًا وليس اعتراضًا على مشيئتك ، فأنت وحدك العليم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

قال الله :

- يا آدم : أنبئهم بأسمائهم ، وأسماء الكائنات التى عجزوا عن علمها ، حتى يقفوا على قدر جهلهم بما أودعت فيك من علم وحكمة لم يتمتعوا بها ، ولم يستعملوها فى مواقعها .

أطلعهم آدم على مسميات الكائنات التى لم يعرفوها ، ولم يطلعوا عليها . فأدركوا مدى عجزهم ، ورفعة شأن آدم الذى علمه الله ما لا يعلمون ، ويفقه أكثر بما يفقهون .

أوحى الله لملائكته :

– إنى أعلم ما غاب فى جوف السماء ، وما طوى فى أعماق الأرض ، وأعرف ما تظهرون من أقوالكم ، وما تخفون فى نفوسكم ، والله ربكم لن يخلق خلقًا أكرم عليه منكم .

ولكن مكانة الإنسان ، مكانة آدم ، لن تعلو عليها مكانة شىء آخر ، جن أو ملك ، فشرف الإنسان ومزية العلم ، وفضله على العبادة واضح من هذا الحوار الذى جرى بين الله وملائكته ؛ بين الخالق والمخلوق . أجل إن الملائكة تعبد الله أكثر مما يعبده آدم ، وأكثر مما يعبده الإنسان على مر العصور ، ولكنهم رغم ذلك لم يستحقوا الخلافة .

عندما أخذ الله فى خلق آدم قالت الملائكة :

– ما الله خالق خلقًا أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا ، ولكنهم عندما اختبروا بخلق آدم ، وظنوا أن آدم – بمجرد ظن – سيعيث فى الأرض فسادًا ، أنكر الله عليهم هذا الظن :

– إنى أعلم ما لا تعلمون ، فمن ذرية آدم يكون الأنبياء والمرسلون ، والصالحون والمجتهدون فى طاعة الله .

كانت هذه الهمسات تتردد بين الملائكة ، وقد اعتقدوا أنهم أنفسهم فى المقام الأول عند ربهم ، ولن يخلق الله خلقًا جديدًا يفوقهم فضلاً وعلمًا ، أو حكمة وطاعة ، وأعظمت على الله أن يخلق فى الأرض من يعصيه ، فلما عرف آدم من الأسماء ما لم تعرفه الملائكة ، أقروا لآدم بالفضل عليهم . قال الله للملائكة :

- اسجدوا لآدم ، سجود تحية وتعظيم ، لا سجود عبادة وتأليه ، ليس سجودًا بوضح الجبهة على الأرض وتعفيرها بالتراب ، فذلك لا يكون إلا لله سبحانه .

سجدت الملائكة لآدم انقيادًا لأمر ربها ، وطاعة له ، وكان أول من سجد جبريل ، فأكرمه الله بتكليفه بأنزال الوحى على الأنبياء ، وخاصة على رسول الله محمد ، ثم ميكائيل وإسرافيل ، ثم عزرائيل ملك الموت ، ثم سائر الملائكة .

سجدوا جميعا إلا إبليس : إنه خلق من نار يندلع من ألسنتها لهيب محموم ، والنار من شأنها الاستكبار ، ، ومن طبعها الالتهام ، فتأتى على كل من يعترض طريقها أو يقف فى سبيلها ، تحرق وتدمر ، لا تبقى ولا تذر ، وإبليس لم يكن من الملائكة ؛ بل كان من الجن العاصى الذى فسق عن أمر ربه .

امتنع إبليس عن السجود لآدم ، فكيف يسجد لمن خُلق من طين ، وهو الذى وُجد من نار ، أليست النار أرفع مكانة من التراب ؟ أليس شأنها أسمى من منزلة الطين ؟ سأخالف أمر ربى ولا أسجد لآدم فأنا أعظم منه ، والعظيم لا يسجد لمن هو أقل منه شأنا ، فصيره الله فى زمرة الكافرين المعاندين المضللين .

كان إبليس من سكان الأرض ، من حى يقال لهم الجن ، كان من الجن الذين طردتهم الملائكة ، فحدث بين الجن شقاق ومنازعات ، وحارب بعضهم بعضًا ، فأنزل الله ملائكته لتطفئ نار الفتنة التى أشعلها الجن ، وأسروا بعضهم وكان منهم إبليس ، فذهبوا به إلى السماء .

ولما خلق الله آدم وطلب من الملائكة السجود له تعظيمًا لشأنه ، داخل إبليس حسد عظيم ، وكبر شديد ، فامتنع عن السجود له . فخالف الأمر .

واعترض على الرب ، وأخطأ في القول : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، وابتعد عن رحمة ربه ، فأنزله من مرتبته التي كان عليها ، وقد نالها من عبادته حين كان متشبها بالملائكة ، وليس منهم لا من جنسهم ولا من نوعهم ، فخانه طبعه وعاد إلى أصله الناري .

الجن خلقوا من النار ، وهم مثل الآدميين يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ومنهم المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، والصالح والطالح .

وكفرة الجن منهم الشياطين ، وزعيمهم إبليس عدو آدم ، والبشرية كلها ، وهو - ومن بعده ذريته - مسلط على آدم وذريته ؟ غير أن الله تكفل بعصمة من آمن به منهم ، وصدق رسله ، واتبع شرعه .

وما يتلقاه الناس من سحر الجن والإنس ، ويتوصل به إلى التفرقة بين المتآلفين من الأزواج والأصدقاء ، ومن يكون بينهم مودة ، يسعد به إبليس غاية السعادة ، ويشكر من يسعى إليه ، ويقربه منه ، احتفاء به ، ومن يسخط عليه الله، يمدحه إبليس ، والذى يغضب الله يرضى إبليس ويسعد به .

فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، وإذا شعرت بوسوسته وإغرائه لك بالإقدام على الشرور ، وذكرت ربك تراجع الشيطان صاغرًا متضائلا، حتى يصير فى حجم الذبابة ، وليس له صوت سوى طنينها .

والشيطان يقصد لابن آدم بكل طريق ، ويصده عن كل خير ، يصدّه عن طريق الإسلام موسوسا :

- أتُسْلم وتذر دينك ودين آبائك ؟

ويقصد له بطريق الهجرة فيوسوس له :

- أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟

ويحاول أن يثنيه عن طريق الجهاد والمال :

- أتقاتل فتُقتل ، وتصبح أثـرًا بعـد عـين ، وتـترك حيـاتك الحلـوة الأخـاذة فتنكح امرأتك ، وتذهب لغيرك ؟ أتهلك فيقسـم مـالك الـذى أفنيـت عمـرك فـى جمعه ، وبذلت جَهدك فى الحصول عليه ؟

فمن كان رقيق الإيمان أثرت وسوسة إبليـس فـى نفسـه ، وانصـاع لرأيـه ، وسار فى ركابه ، فيدخل حزب الشيطان ، ويكون من أنصاره المقربين .

ومن كان قوى الإيمان و لم يتأثر بوسوسة الشيطان ، و لم يتبع طريق الإغواء، خنس الشيطان عنه ، وابتعد عن دربه ، ولا يكون من حزب الشيطان ، فهـو مـن أنصار الله المؤمنين به ، المنافحين عن دعوته للمثل العليا والقيم الأخلاقية .

صار إبليس حقيرًا مهانًا ، ذليلاً مدحورًا ، متوعدًا بالنار هو ومن تبعـه مـن الجن والإنس على السواء ، فقد كان دائم الجهد فـى غوايـة بنـى آدم ، وإضلالهـم وبعدهم عن طاعةَ الله بكل طريق وفى كل مرصد .

العـداوة مسـتحكمة مستمرة بـين إبليـس والبشـر ، بـين الجـن العـاصى ، والإنس المطيع ، غير أن الله تكفل بحفظ من آمن به ، وعاش فى رحابه ، مصدقًـا رسله ، متبعًا شرعه .

قال إبليس متوسلا إلى ربه مستعطفًا رحمته :

- أنظرنى إلى يوم تبعث خلقك ، ابقنـى حيـا بـين مخلوقـاتك حتـى تنضـب منهم الحياة ، وتمضى أرواحهم إلى ساحة قبورهم ، ويبعثون مـن رقدتهـم ، وتبـدأ ملائكتك فى محاسبتهم .

التمس إبليس من ربه أن يبقيه بين الناس حيا ، يقوم بمهمته فى الإغواء وعصيان العباد ، والعمل على إضلالهم إلى يوم البعث ، إلى اليوم الذى تغيب فيه الدنيا ويموت الناس جميعًا ، يريد من ربه أن يمارس هوايته فى غواية البشر ، وإفساد الخلق .

رأى الله سبحانه أن فى هذا الالتماس الذى طلبه إبليس ، مكانا لاختبار البشر ، فمن يصمد أمام وسوسته ويعصاه ، ويرضى ربه ، يكون من المؤمنين الصالحين ، ومن يمالئ إبليس ، ويسير فى ركابه ، متبعًا ضلاله وشروره ، يكون من الفاسقين الغاوين .

قال الله لإبليس :

– إنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، واعلم أن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، فمن اتبعك منهم ، وسار فى ركبك ، فلسطانك عليهم دائم . وسطوتك عليهم مستمرة .

من ثم كان إبليس حيًا إلى يوم القيامة ، وله عرش على صفحة مياه البحر يستوى عليه ، ويبعث بسراياه هنا وهناك يلقون الشر بين الناس ، ويغرونهم بالفتن والآثام ، والعصيان والحروب ، وأعظمهم لديه منزلة هو أشدهم للناس فتنة .

الملائكة

خلق الله الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام ، خلقهم وليس في الأرض خلق ، وهم من الملأ الأعلى ، أجسام نورانية ، تبدو في صورة شباب حسان ، في طلعة مهيبة ، وبشرة بيضاء لامعة ، وصحة وافرة .

وكان جبريل عليه السلام يبدو للرسول ﷺ في صور مختلفة ، وصفات متعددة ، أحيانا يبدو في صورة أعرابي ، وأخرى في صورة أمير من أمراء العرب يسمى دحْية الكلْبيّ ، وأحيانا في صورته التي خلقه الله عليها . مرة وهو يهبط من السماء إلى الأرض حين كان الرسول يتعبد في غار حراء ، وأراد رؤيته . وثانية عند سدرة المنتهى في السماء السابعة ، كان شكله عظيمًا مهولا لا يطيقه بشر ، له أجنحة كثيرة تتوهج بألوانها الذهبية التي تأخذ بالأبصار ، وتفصل بين كل جناحين مسافة كبيرة مزدانة بأجمل الأشكال وأخلب اللمعان .

ومن صفات جبريل أنه كان ذا قوة خارقة ، ومن شدة قوته وجبروتها أنه رفع مدائن قوم لوط وعددها سبع قرى ، رفعها بأهلها جميعًا ، وعددهم لا يحصى ، رفعهم بأراضيهم وعماراتهم ودورهم وأمتعتهم ودوابهم ، وكل ما يقومون عليه ، ويتعاملون به ، رفع ذلك كله على طرف جناحه وبلغ بهن عنان السماء ، حتى كانت ملائكة السماء تسمع نباح الكلاب ، وصياح الديكة ، ثم قلبها رأسًا على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، ودكها في الأرض دكا ، ولذا وصفه الله بأنه شديد القوى ، شديد البأ س عند رب العرش .

ووصفه أيضا بأنه " ذو مِرَّة " ذو منظر حسن ، وخَلق مهيب ، وسناء مضيء وذو أمانة عظيمة ، وعهد وثيق ، ورسالة نافذة ، وتكليف محقق .

كان جبريل سفيرا بين ربه ورسله ، ينزل عليهم بالوحى ، ويبلغهم رسالة الرب ، يهدئ من روعهم إذا هلعوا ، ويسكّن من قلقهم إذا ارتاعوا ، وإذا عنّ لهم من الأمر شيء ، نفذ حكم ربه فتقرّ قلوبهم ، وتطمئن نفوسهم .

وإسرافيل من حملة العرش ، وهو نافخ الصور - والصور شيء كالبوق - ينفخ فيه بأمر ربه ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث . وهو أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ فى الصور .

يأمر الله إسرفيل بنفخة الصعق ، فينفخها ، فيصعق أهل السموت وأهل الأرض إلامن شاء الله ، فإذا خمدوا جميعًا ، جاء ملك الموت إلى الجبار العلى :

- مات الجميع إلا من شئت ، وبقى جبريل ، وميكائيل ، وحملة عرشك . يأمر الرب بموت جبريل وميكائيل ، فيموتان ، ثم يأمر بموت حملة العرش فيموتون ، ويأمر العرش فيقبض الصور من إسرفيل ، ثم يأمر فيموت ملك الموت، ولم يبق عندئذ إلا الله الواحد القهار ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ومن الملائكة ميكائيل ، موكل بالقطر والنبات ، وتنفيذ أمر الله فى توزيع الأرزاق التى أرادها الله ودوّنها فى اللوح المحفوظ . وميكائيل ذو مكانة عظيمة عند ربه ، ومن أشراف الملائكة المقربين .

هؤلاء الملائكة الثلاثة : جبريل وإسرافيل وميكائيل هم الذين صرح بأسمائهم فى القرآن الكريم ، غير أن ملك الموت - عزرائيل - لم يصرح باسمه فى القرآن ، ولا فى الحديث الصحيح ، غير أن تسميته بعزرائيل وردت فى بعض الآثار .

وعزرائيل ملك الموت له أعوان يستلون روح العبد من جسده إذا دنت منيّته ، يستلونها فى رفق وهوادة ، أو يجذبونها فى عنف وغلظة ، فإذا بلغت

الروح الحلقوم ، تناولها ملك الموت بيده ، فإذا أخذها تلقفتها الملائكة الأعوان ، فى أقل من لمح البصر ، وألقوا بها فى أكفان تلائم أعمالها وتليق بها .

يصعدون بها إن كانت صالحة ، فتفتح لها أبواب السماء ، ويتلقاها الملائكة بالترحاب ، وإن كانت طالحة ، أغلقت دونها الأبواب ، وأغلظوا لها فى القول ، وألقى بها إلى الأرض .

ومن الملائكة رضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النيران ، ومنهم زبانية جهنم ، ومن يحفظ الإنسان من بين يديه ومن خلفه ، ومن يحفظه فى نومه ويقظته، ومنهم من يحميه من الجن والإنس والهوام . ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد ، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد :

ملكان يكتبان عن يمينه وعن شماله ، يكتبان كل قول ، ويسجلان كل فعل، حتى خطراته التى تدور فى نفسه قبل أن يلفظ بها تكتب فى سجل أعماله ، خيرًا أو شرًا ، صالحًا أو طالحًا ، يثاب عليها أو يدان بها .

وللملائكة بيت فى كل سماء يعمرونه بالعبادة والذكر ، يفد إليه بعضهم إثر بعض ، يتناوبون فيه الذكر والأدعية ، إذا راح منهم فريق غدا فريق آخر ، دون أن يخلو البيت عنهم لحظة ، شأنهم فى ذلك شأن أهل الأرض ، حين يعمرون البيت العتيق بالحج فى كل عام ، يعتمرون ويطوفون ويصلون .

فما فى السماء السبع موضع قدم ولاشبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك راكع ، أو ملك ساجد ، ما من موضع إلا وهو مشغول بالملائكة ، دائمون على العبادة والذكر والتسبيح ، والأعمال التى أمرهم الله بها .

الملائكة : ليسوا بذكور ولا إناث ، ولايتوالدون ولايأكلون ولايشربون .

والجن : يتوالدون ، ومنهم ذكور ، ومنهم إناث ، يحيون ويموتون ، وليسوا مخلدين .

والشياطين : ذكور وإناث ، يتوالدون ولا يموتون ، بل يخلدون فى الدنيا ، كما خلد فيها إبليس .

فالملائكة خلقوا من نور ، ومن طبعهم الانقياد لأومر الله ، والطاعة والعبودية لجلال الله ، يحيط بهم التواضع ، لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يزهون بأنفسهم حين أمروا بالسجود لآدم ، والسجود أعلى مراتب العبودية ، حين أمروا بالطاعة والتواضع لله ، لم يتسرب الزهو إلى نفوسهم ، فسجدوا طوعًا لآدم من غير كره ولا إباء ، امتثالاً لأمر ربهم .

وإبليس خلق من نار ، وطبع النار الاستعلاء والاستكبار ، ولذا كان من طبعه الضلالة والإغواء ، يقولون : انتظم فى سلك الملائكة منذ خلقه ، وتشبه بأفعالهم تقليدًا لا تحقيقًا ، حتى عدّ من جملة الملائكة ، فلما امتحن بالسجود لآدم، أبى واستكبر ، وعصى وتمرد ، وخلع عنه أثواب الكذب والنفاق ، وظهر أنه كان من الجن ، وأنه طبع على الكفر .

أما شياطين الإنس من ولد آدم ، فإنهم يتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله ، يطيعون الشيطان ولايطيعون الله ، فيهم أعداء للرحمن ، وأعداء للمؤمنين .

إبليس : الجن

الجن هو ما استتر واجتن عن الرؤية ، لا تراه العين ، وإنما يختفى دومًا عن الأنظار .

وسمى زعيم الجن إبليسا ؛ لأنه أُبْليس ، أى يئس من رحمة الله ، وخرج عن طاعته ، كان اسمه عزازيل بالسريانية ، ، والحارث بالعربية ، لم يكن من الملائكة ، وإنما كان فاسقًا ؛ لأنه كان من الجن ، ولو كان من الملائكة ما عصى ربه شأن الملك ، فجاءت ذرية إبليس على شاكلته من الفسق والعصيان ، تترسم خطاه فى العداوة والضغينة والحسد والإيقاع بالبشر . والله لم يكن متخذًا من المضلين أعوانا، ولامن الشياطين أنصارًا .

فى أول الأمر كانت الملائكة تقاتل الجن ، فسبى إبليس ، وكان صغيرًا ، وحملته الملائكة معهم ، وتربى بينهم وعاش فى كنفهم ، فتعبد كما كانوا يتعبدون ، ونشأ على طريقتهم .

وابن عباس رضى الله عنه يقول : إن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن ، وكان إبليس واحدا منهم ، نافذ القول ، مرموق المكانة ، يسوس ما بين السماء والأرض . إلا أنه عصى ربه فمسخه شيطانًا رجيمًا ؛ عقوبة لعصيانه ، وتحقيرًا لأفعاله .

عصى ربه حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجدوا جميعًا ، إلا إبليس تذرّع بالإباء والمنع ، فكان من الجن .

امتنع عن تنفيذ أمر الله ، ولم يسجد لآدم ، فهو عدو لك ولزوجك حواء .
كان حواء شديد النقمة على آدم ، وحين رأى نعمة الله تبدو على آدم ، غضب عليه ، وصار عدوا له .

كان آدم شابًا جميل الصورة ، بهى الطلعة ، مشرق الوجه ، أبيض البشرة ، علمه ا لله الأسماء كلها ، وكان إبليس على العكس منه شيخًا جاهلاً ، والشيخ الجاهل يكون أبدا أشد عداوة على الشاب العالم .

إبليس خلق من نار ، وآدم من تراب وماء ، وبين النار والماء عداوة متأصلة فالنار تحاول أن تلتهم الماء وتطغى عليه ، ولكن الغلبة للماء فهى تطفئ أوار النار وتغطيها وتمحوها من الوجود ، فبقيت العدواة بينهما وفيهما على الدوام .

وإذا أفلح إبليس فى إغراء آدم ، وهبط بك يا آدم من الجنة ، وتركت النعيم الذى تعيش فيه ، حصل لك الشقاء ، ولزوجك المشقة ، ولذريتك الإجهاد من بعدك .

ستعانى من الكبر والضعف ، والتعب الدنيوى ، لا تطيقه إلا بمشقة وإرهاق. ستعمل فى الأرض فتحرثها ، وتقلب تربتها ، وتعانى فى زرعها ، وترقبك إنباتها ، وبعد فترة تحصدها ، ثم تطحن حبوبها وتعجن دقيقها ، وتخبزه حتى يصير خبزًا سائغا ، فأمامك عمل كثير ، وإرهاق شديد ، يحتاج الآدمى لبذله فى أمر معيشته .

ورغم أن هذه النعم كلها كانت فى يدك ، منتشرة فى الجنة ، لا تسعى إلى العمل والمشقة كى تنالها وتسر بها ، فهى حاضرة فى كل مكان بين يديك ، ومن خلفك ، وفوق رأسك ، وتحت بصرك ، هى الجنة التى حباك ا لله بها ، وفيها كل ما تشتهيه نفسك ، وتتناوله فى سهولة ويسر .

وعندما تهبط إلى الأرض ، ولم تذعن لتنفيذ ما أمرتك به ، والبعد عما نهينك عنه ، ستحترق بالظمأ ، ويستبد بك الجوع ، فتسعى للبحث عن شربة

ماء ، ولقمة عيش ؛ لتقى نفسك الهلاك ، هلاك الظمأ المنبعث من قيظ الشمس وحرارتها ، وهلاك الجوع النابع من خواء المعدة وفراغها .

فى الجنة العيون تتدفق ، والماء يجرى أمامك فى الأنهار حيثما تتلفت ، حرارة الشمس لا وجود لها ، لا تضحى بهجيرها ، فأنت فى الجنة فى ظل ممدود، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لا تعرى من ثيابك ، فالملبوسات وافرة فى الجنة ، فكيف تكون عاريًا مما يستر جسدك ، وزوجك حواء التى وقعت تحت إغراء إبليس ، وأثرت عليك فأغرتك ، فوقعت فى حبائل إبليس .

حواء سينتظرها تعب ونصب ، ومشقة وألم ، ستصاب بإرهاق شديد ، إرهاق الحمل ومتاعبه ، والآم المخاض ودواعيه ، وشدة الولادة وتعبها ، ستشعر حواء بآلام لا قبل لها بتحملها عند الولادة ، وقد تفارق الحياة بسبب هذه الآلام .

أراد إبليس أن ينفذ خطته فى إغواء آدم ، والإيقاع به ، وجذبه إلى وسوسته ، حاول أن يدخل الجنة ليقوم بما اعتزم عليه من الغواية ، عرض نفسه على كل الدواب أن تحمله فيدخل الجنة معها ، ويحدث آدم وحواء ، فيسهل عليه تنفيذ مهمته ، كل الدواب أبى ذلك ، ولم يرد صحبته أو تيسير مهمته ، وأخيرًا كلم الحية فدخلت به ، كانت الحية كاسية تمشى على أربع قوائم ، ضخمة مثل البعير، استجابت الحية لإبليس وأدخلته فى جوفها وعبرت به إلى الجنة ، عندئذ عراها الله من كسوتها ، فبدت عارية تزحف على بطنها عقوبة لها على تيسير مهمة إبليس.

وسوس إبليس لحواء ، وزين لها أن تذوق من الشجرة التى نهاهما الله عنها هى وزوجها آدم ، أخذ فى الإلحاح والإغراء ، حتى استجابت له حواء ، فذاقت

من ثمرِ الشجرة ، فوجدته حلو المذاق ، لذيذ الطعم ، فسولت لآدم أن يتذوقها ، وقد فعل .

كان النهى بأمر من الله ، وكان تذوق الثمرة بوسوسة إبليس ، ندم آدم على فعلته، وطلب التوبة من ربه ، غير أن الرب غضب على إبليس غضبة شديدة قال:

- اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .(١)

طرد الله إبليس مذمومًا مدحورًا ، وأقصاه عن حضرته العالية ، وأبعده عن جنته الدانية ، فأنت مرجوم بالحجارة ، بعيد عن الرحمة ، قصىّ عن كل كرامة ، عليك لعنتى إلى يوم القيامة ، وغضبى يلاحقك حيثما كنت فى الدنيا أو فى الآخرة . .

قال إبليس :

- إذا جعلتنى مطرودًا من جنتك ، قصّيًا عن رحمتك ، فأمهلنى إلى يوم البعث ، يومٌ يموت فيه الناس ويبعثون ، يوم يبعث فيه آدم وذريته ، وفى فترة الحياة الدنيا سأبذل طاقتى ، وأجتهد فى إغواء البشر جميعًا من ذرية آدم ، وسأعمل دوما على الإيقاع بهم فى حبائلى ، وآخذ بثأرى منهم .

- سأمهلك وأؤخر أجلك إلى يوم يبعثون ، وستكون مرافقًا لعبادى فى دنياهم ، فيبدو حينئذ من خليقتى من طُبع على الشر فعصانى ، ومن جُبل على الخير فأطاعنى ، وسيظهر واضحًا من يدنو منك ويبتعد عنى ، ومن يتقرب إليك ويشطّ عنى ، فيتبين الصالح من الطالح ، والمطيع من العاصى ، ومن تخلص من تأثيرك عليه وطردك من ساحته فحظى برضا الله ومن تأثر بك وعمل بمشورتك فأغضب ربه عليه .

١- الحجر ٣٤، ٣٥

سيقف كل بشر على حقيقة نفسه ، ويعلم أنه عصى ربه ، أو أناب إليه واتقى وسوستك وإغراءك .

إن مخاطبة الرب العلى لإبليس الشقى ، ليس فيها تكرمة له ، ولاتدل على علو منصبه عند ربه ، ولا رفعة منزلته عند خالقه ؛ بل كان خطابًا موجها إليه ؛ إهانة وإذلالاً .

إبليس باق إلى يوم يبعث فيه الخلق ، إلى يوم موتهم عند النفخة الأولى ، وهو باق على الدوام ما دام الإنس يحيون ، فإذا فنى الخلق ، فنى إبليس معهم ، وتتبين قدرة إبليس على من يخضع لوسوسته ، وضعفه أمام من لايعبأ به ، ولا يستسلم لغوايته ، فيشاطره الشر ، وحينئذ يظهر المعدن الخبيث من الطيب ، وتنكشف كل حال بما أودع فيها من خير ، وما طبعت عليه من شر .

أقسم إبليس بذات الله العلية أن يزين المعاصى الآثمة لبنى آدم ، ويسهل عليهم اللذة الهادرة ، وقضاء الشهوة العاتية ماداموا على قيد الحياة الفانية ، حلف ليحملنهم أجمعين على الغواية والعبث والضلال .

- سأتوعد عبادك ، وأترصد لهم بكل سبيل ، قريب أو بعيد ، وأحولنهم عن طريق الحق ، وأزينن لهم الباطل ، وأورطهم فى الشر وفى كل ما يكرهون ، حتى يكون محبوبًا لديهم فيقترفوه ، ولن يدخلوا جنتك الوارفة الظليلة ، ولن ينعموا بخيراتها من ثمار وماء وظل وما تشهيه أنفسهم وتلذبه أعينهم ، لن ينعموا بالبقاء فيها أو العيش بها ؛ بل سأجتهد فى غوايتهم حتى يطيعونى فيساقوا إلى هجير نارك اللافحة ، وحرارتها اللاذعة .

وبعزتك وجلالك لآتينهم من حيث لا يتوقعون ، من قبل الآخرة فأشككهم فيها ، ومن قبل الدنيا فأرغبهم فى الأخذ بأعناقها والعدو فى نواحيها ، ثم أوقعهم فى الرياء وحب التظاهر ، فتتملكهم السيئات القبيحة فيرتكبونها ، والحسنات النافعة فيندون عنها ، سآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، حتى لا يكون بينهم شكورًا لك ، معترفًا بنعمتك عليه ، نعمتك التى يتقلب فيها ، وإذا ارتكب من الموبقات ما أريد لا يسعى إلى عفوك عنه أو التوبة لك .

أوحى الرب :

- اخرج من الجنة مطرودا مذمومًا ، وعزة وجلالى ، ، لأملأن جهنم منك ومن كل من تبعك ، وسار معك فى طريق الضلال والغواية من ذرية آدم ، وذريتك أيها اللعين البغيض ، وستكون أول من يكتوى بنار جهنم .

ومن يخلص من العباد لطاعتى ، ويطهر دخيلته من شوائب الشرك وآثام الضلال فلا قدرة لك على إغوائه وقهر إيمانه ، ولن تستطيع أن تؤثر عليه بالمعاصى.

إن عبادى المخلصين ليس لك على قلوبهم سلطان لا بالاغراء ولا بالاتباع ، إلا من كان ضعيف الإيمان ، مرتاب الطوية ، واهن التدين ، فتتسلط عليه ، وتزين له الباطل حقًا ، والضلال هداية ، وتموة الشر فتجعله يبدو فى صورة الخير ، ومن يقع تحت تأثيرك ، ويسير مع غوايتك ، ويستمر فى اتباعك ، فمصيره العذاب الذى يحرق جسده ويشوى جلده ، عذاب نفسى وبدنى لا يستطيع أن يتحمله ولا قبل له به .

ومن يبعد عن وسوستك ويتقى ربه ، ويشط عن شهوات الدنيا الفانية ، يدخل جنتى بمتاعها الخالد ، ونعيمها الدائم ، سالمًا من كل خوف ، آمنا من كل

بطش ، ويصبح مع غيره من المؤمنين إخوانًا تجمعهم المودة والصفاء وحسن السريرة ، وينتفى بينهم التحاسد والتباغض ، يجلسون متقابلين ، كل شىء ميسر لهم ، متنعمين فى الجنة أبد الآبدين ، مخلدين فيها ، لا يخرجون منها ، ولا يبعدون عنها .

يقول الرب ذلك لإبليس مستهينا به ، مستخفًا له ، مهددًا إياه ، ماضيا فى تبكيته وتقريعه .

- امض لما قصدت إليه من الإغواء ، ومحاولة التأثير على الضعفاء من خلقنا، وسأخلى بينك وبينهم ، وسأترك من تسول له نفسه اتباعك والخضوع لك ، فجزاؤك وجزاؤهم جزاء موفورًا من العنت والمشقة ، كاملا من العذاب والتلظى بوهج جهنم .

حرك من قدرت أن تستفزه من ذرية آدم بوسوستك الآثمة ، ودعائك للشر والأخذ بالمعصية . اصرخ فيهم بأعوانك وأنصارك ، وسلط عليهم أتباعك ، ومن اقتدى بك من أهل الفساد والجور ، على اختلاف أهوائهم وهيئاتهم ، راكبين أو مترجلين ، أغنياء أو معوزين .

تسلط على من تغوبه ، وأوهمهم أن اتباعك فى المقام العالى ، كأنك فارس مغوار انقض على قوم فأفزعهم بصوته الصاخب المزعج ، فتقتلعهم من أماكنهم ، وتقلقهم عن مراكزهم .

داهمهم بجندك الأفذاذ من خيالة ورجالة حتى تستأصلهم .

تسلط عليهم بكل جهدك ، وكل ما تقدر عليه .

سقهم إلى المعاصى كما تشتهى ، وافعل مع ضعاف الإيمان ما يحلو لك ، شاركهم فى الأموال التى جمعوها من حرام ، وأنفقوها فى خبث على الشهوات ،

وتصرفوا فيها على غير ما ينبغى من الربا ، ومنع الزكاة ، والإسراف فى إنفاقها دون وجه حق .

قاسمهم فى أولادهم الذين أشركوا فى باطن أنفسهم ، وخلعوا عليهم أسماء تشى بعدم الوحدانية لله ، كعبد العزّى وعبد الشمس ، وعبد الدار ، فمجّسوهم أو هوّدوهم أو نصّروهم ، وسارت ذريتهم على نهجهم فى التعدى والأثرة ، والانحراف عن الدين القويم .

استعمل معهم ما شئت من حيلك ومخادعتك ؛ لتحملهم على الإيمان بالأديان الزائفة ، والأفعال القبيحة .

عدْهم بطول الأمل ، وتأخير التوبة ، حتى يستمرئوا معاصيهم دون أن يقلعوا عنها .

أخبرهم بما شئت من تجديف ، ولا وجود لجنة أو نار ، وأن آلهتهم من الحجارة ستشفع لهم ، وتقيهم عذاب الآخرة .

زين لهم كل خطأ وقربه إلى نفوسهم وحببه لهم ، وأوهمهم أنك على صواب ، ومن لم يسر على هواك ويقتدى بخطاك ، سيكون فى المؤخرة من القوم، وتقتحمه العيون دون أن تعبأ به .

هذه هى فعالك ، وهذا هو طريقك فى الغواية الذى ينبغى لك أن تحققه ، لبئس الملعون أنت ومن اتبعك من عبادى العاصين .

أما المخلصون فهم فليسوا من أتباعك ، وليس لك طاقة على غوايتهم ، وستستمر الحرب شعواء بينك وبينهم ، يعصونك لأنهم يفطنون إلى ألاعيبك وهمزاتك ، عندهم مناعة فلا يستسلمون لما توسوس به ، وقناعة دون ما تغرى عليه ، يؤمنون بربهم فأنا خالقهم ، ويعصونك فأنت تبغى هلاكهم ، وهم عنك فى حصن منيع لا تستطيع أن تنفذ منه إلى قلوبهم .

آدم

أول الأمر كان آدم عليه السلام يسكن الجنة تحيط بها الأشجار اليانعة والثمار الناضجة ، والمياه العذبة ، الأشجار مختلفة الطول والأحجام ، والثمار متنوعة الصنوف والمذاق والرائحة ، والماء يجرى متدفقًا سلسالاً، وضوء الشمس دافق كأنه شلال ، ليست حاسية ولا حارة ، والجو من حوله ليس فيه برد ولا زمهرير ، والعيون تتفجر أمام ناظريه حلوة الطعم ، شائغة الشراب ، ليس فى الأفق رياح عاتية ، ولا حرارة محرقة ، ولا برد لاذع ، والدواب تتهادى من حوله فى رفق ودعة ، ليس بينها إحن ولا صياح ، والطيور تحلق مغردة فوق رأسه تتنقل فى حرية فوق الأشجار ، كأنها تعزف سيمفونية رقيقة حالمة فى أمن ، وسلام ، واطمئنان .

كان آدم يطوف فى الجنة متهاديًا متنقلا بين أنحائها ، فيرى الجمال يحيط به من كل جانب ، والسلام يعم أرجاء الكون ، والشمس تعكس حرارتها ودفأها فى كل اتجاه ، فيذكر نعمة الله التى أسبغها عليه وجعلها طوع بنانه وملك أمره ، يتنقل فى هذا الجمال ، وتلك السكينة ، راضيًا سعيدًا بما حباه الله به ، يعيش فى راحة ورخاء ، وما يصبح فيه من نعم يمسى عليه من رضا . لا شئ من هذه السعادة يتغير أو يتبدل ، كل الأشياء فى أماكنها وترتيبها الذى خلقت عليه .

بدأ الملل يتسرب إلى نفسه ، والوحشة تدب فى قلبه ، يعيش فردًا وحيدًا ، ليس معه رفيق يخفف من وحدته ، ولا صاحب يحادثه ويزيل وحشته ، ويبدد سأمه ، وامتلأت نفسه شوقًا إلى من يجاذبه الحديث ، ويميل إليه بقلبه وجوارحه ، استغرق آدم كلية فى هذه الرؤى اليقظة ، داعبه النعاس وغلبه ، فغفلت عيناه ،

ونام برهة لم تطل ، استيقظ منها ، فوجد بالقرب منه امرأة تجلس ، امرأة لا تماثل الدواب التى تعيش معه فى الجنة ، ولا الطيور التى تحلق فوق رأسه فى الهواء ، شئ ليس له صنو ، لم ير مثله قبلا ، ولم تقع عيناه على نظيره ، تحير فى أمر ذلك المخلوق الذى لا يضاهيه شئ ، ولا يماثله أحد .

- من أنت ؟

- أنا امرأة .

- ولم خُلقْتِ ؟

- لتسكن إلىّ

- وكيف خلقت ؟

- خلقنى الله من ضلعك .

- وما اسمك ؟

- حوّاء

- ولم كان هذا الاسم ؟

- لأنى خلقت من شئ حىّ ، خلقت من ضلعك الأيسر وأنت نائم ، والتأم فكان الضلع لحمًا .

تتكشف حكمة الله البديعة فى تنوع خلقه ، خلق حواء من ضلع آدم ، خلقها من جسد حىّ دون أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق الناس جميعًا من أب وأم ، أما آدم فقد خلق من تراب دون أب أو أم ، وبذلك تميزت عجائب الرحمن التى تتحير فيها الأفهام وتكلّ العقول .

خلق الله حواء لتزيل وحشة آدم ، وتبدد سأمه ، فلا يبقى وحيدا دون أنيس ، ولتبقى ذريته من بعده تتناسل على مر الأزمان وكر العصور ، يخرج منها الأنبياء والمرسلون والناس أجمعون .

سكنت حواء لآدم فى جنة الله ، وأكلا من ثمارها ، أكلا رغَدًا عن سعة ، ومن حيث يريدان ، ومن أى مكان فى جنة الرحمن ، يأكلان ويشربان ويستمتعان بكل ما أحل الله لهما ، لا يمنع عنهما شيئا ، و لم ينههما عن شئ ، بل ترك لهما حرية التناول من كل ما تشتهيه نفساهما دون تحفظ أو ردع .

أراد الله أن يختبرهما ، ويضعهما أمام نفسيهما بهذا الاختبار ، نهاهما أن يأكلا من شجرة معينة ؛ بل نهاهما أن يقتربا من هذه الشجرة ، والنهى عن القرب نهى عن الشجرة أولى ، بل هو أدل على النهى أيضا ، فإذا اقتربتما منها كنتما من الظالمين المتجاوزين لما أذن الله لكلم فيه ، وأبيح لكم منه .

لم يصرح الله بثمرة هذه الشجرة التى حرمها ، أهى شجرة كرْم ، أو سنبلة قمح ، أو غصن زيتون أو ثمرة تين ، لا يعنينا أن تكون هذه الشجرة من عنب أو قمح أو تين أو زيتون ، لا يعنينا سوى أنها شجرة نهى الله آدم عن الاقتراب منها والأكل من ثمارها .

آدم عليه أن يستجيب لنهى ربه كما يستجيب لتلبية أمره ، فمخالفة أوامر الله ينبغى ألا تكون ، خاصة من الأنبياء والرسل .

لكن إبليس الذى جبل على الشر والإغواء كان يتطلع إلى فرصة ليستزلهما ، ويدفعهما إلى الزلل والخطيئة .

فقال :

– يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يبلى ؟ إن أكلت من هذه الثمرة كنت ملكًا مثل ربك ، وتكون أنت وزوجك من الخالدين ، لا تموتان أبدا ، وحلف لهما إنى كلما لمن الناصحين .

أبى آدم أن يأكل منها مخافة عصيان ربه ، فجاء إبليس إلى حواء بالثمرة المحرمة ، وعاود الكرة معها ، فربما تستجيب لغوايته ، بل ستستجيب ، فحواء أسهل اقتناعًا ، وأسلس قيادا ، وأقل حرصًا من آدم ، فالمرأة تغلب عواطفها على قرارها أكثر مما تغلب الرجل ، فسيكون من السهل التأثير عليها وإغواؤها ، وسوس إبليس لحواء مترفقا مداهنا .

– لقد انجذبت إلى هذه الثمرة ، فانظرى إليها : ما أطيب رائحتها وألذ طعمها ، وأجمل لونها ، إن من يرى هذه الثمرة الغضّة لا يقوى على الامتناع عنها ، تذوقى طعمها ففيها من الحلاوة ما يشرح القلب ، ويسعد النفس ، وينشط الجسد . تذوقى حلاوتها ، وانتهزى هذه الفرصة التى سنحت لك ، فهى لا تتكرر ، وإن

فاتتك ندمت على ذلك كل الندم ، فكيف تتركين هذه النصيحة الغالية التى أسديتها إليك تكرِمة لك ، فأنت عزيزة علىّ ، وأرغب فى رضاك عنى بتقربى إليك .

أخذ إبليس يكرر مقالته ، ويعاود إغواءه دون ملل ، ويزين لحواء أن تأكل من الشجرة ، ويرغبها فى ثمرتها ، فلم تملك حواء - رغم مقاومتها - إلا أن تتناول حبة منها وتأكلها ، فاستساغتها وتلذذت بحلاوتها ، وقد طابت لها رائحتها .

ذهبت حواء مسرعة حفيّة بالثمرة لآدم ، ذهبت إليه فى عجلة من أمرها ، تزف إليه البشرى ، وتقدم إليه أثمن ما حصلت عليه ، وهى ترغب أن يكون زوجها آدم مشغوفًا بما تجلبه له وتقدمه إليه ، فهى لاتجلب إليه إلا ما يكون عزيزًا يسعد نفسه ، ويشرح صدره ، ويسر وجدانه .

- انظر إلى هذه الشجرة ، فثمرتها بين يدى ، تناول حبّتها ، فهى أطيب ريحًا وألذ طعمًا ، وأحسن شكلاً من صنوف الفاكهة الأخرى ، تناولها فهى تزيدك سعادة ، وتملؤك رضا ، وتشبعك حلاوة ، سينشرح لها صدرك ويميل إليها فؤادك .

وقع آدم تحت هذا الإغراء الذى لا يدفع ، واقتنع بما قالته حواء ، ونسى نهى ربه له عن تناول ثمرة هذه الشجرة ، فلما ذاق الشجرة ، سقط عنه لباسه ، وظهرت منه عورته ، فلما نظر إليها أخذه الروع فأجفل ، وسرى فى بدنه اضطراب ، وتسرب إلى نفسه نفور ، تحير ولم يدر ماذا يصنع ، لم يبق هادئًا ولا ساكنا ، جرى بين الزروع والأشجار ، وهرول فى استحياء يحاول الاختباء من ربه الذى حباه بنعمه ، وطلب منه أن يمسك عن هذه الشجرة .

كان آدم طويلا فارع القامة ، بنيانه كجذع شجرة متينة ، كثيف الشعر ، لقيته فى عدوه شجرة اعترضت طريقه ، وأخذت بناصيته ، ونازعته شعر رأسه ، فنازعها ، وتخلص منها بعد لأى وشدة فاختبأ فى جوف شجرة . ناداه ربه :

- أفرارًا منى يا آدم ؟

- قال : بل حياء منك والله يارب مما اقترفت ، مما جئت به ووصلت إليه .

- لقد سترت عورتك أنت وزوجك ، وكشف العورة مع وجود ما يسترها غاية فى القبح والشناعة ، وهذه الملابس التى سقطت عنكما ، فأبدت عورتكما ، ونزعت عنكما ما تتجملون به . فالملبس للإنسان زينة كالريش للطائر ، وهذا من فضلى ورحمتى على الإنسان حين أغنيه باللباس عن كشف العورة .

اعترفا بالخطيئة ، وسارعًا إلى التوبة فى تذلل واستكانة ، لقد ظلمنا أنفسنا وعرضناها للخروج من الجنة .

- نسألك يارب أن تستر علينا ذنوبنا ، وتعفو عن زلاتنا ، وتغفر لنا ما بدر منا ، وترحمنا بقبول توبتنا ، وإلا أصبحنا من الهالكين المبعدين ، الذين باعوا حظهم الباقى فى الآخرة بشهوة زائلة فى الدنيا الفانية .

حذر الله آدم من فتنة إبليس ، الذى طبع على العداوة والحسد لبنى البشر ، كما طُبعت الحية الرقطاء على اللدغ والأذى ، وطُبع الذئب على الغدر والتهجم ، فإبليس عادى آدم ؛ لأن رياسته على الملائكة قد ولت ، وسلطانه قد أدبر ، وآدم وذريته أعداء لإبليس أبدا ؛ لأن الابن يرث العدواة عن أبيه ، وآدم صار عدوا له لأنه أخرجه من الجنة ، فإذا تركتما الجنة وهبطتما إلى الأرض ففيها مآل لكم ، واستقرار لأبدانكم ، تتمتعون وتنتفعون بها ، ولكن ليس على الدوام ، وإنما إلى أمد محدود ، ووقت معلوم ، حتى تقوم الساعة ، ويعود الخلق لرب العالمين .

- وأنت يا حواء . غررت بعبدى آدم المطيع ، ولذا فسأعاقبك على فعلتك، فلا تحملين حملا إلا حملته كرها ، ووضعته كرها ، فإذا حان وقت الوضع شعرت بمشقة هائلة حتى إنك تشرفين على الموت ، وستكون هذه الآلام المبرحة فى كل ولادة ، ولا تغنى مشقة فى ولادة عن المشقة فى الأخرى .

وأنت أيتها الحية الغريرة ، أدخلت إبليس فى جوفك حتى خدع عبدى ، ملعونة أنت فى الدنيا ، وستتحول قوائمك التى تسيرين عليها وتدخل فى بطنك ، فتزحفين عليها ، ولا يكون لك من رزق سوى التراب تعيشين فيه وعليه ، فأنت عدوة للبشر ، والبشر عدو لك ، وحيث تلقين أحدا منهم أخذت بعقبه فأهلكته ، وحيث لقيك أحد من البشر شدخ رأسك وأرداك .

شعر آدم بثقل يرين على صدره ، فالمستقبل الذى ينتظره فيه سحابة من غيوم ، وعرف أنه إذا خرج من الجنة لن يعود إليها مرة أخرى ، لعصيانه أمر ربه .

طمأنه ربه ، وخفف عنه هذا الأسى ، وأنه سوف يعود إلى الجنة لاحقا ، فقرّت عينه وهدأت نفسه ، فقد أخبره ربه :

- فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .

سيحيا آدم على الأرض ، ويقيم بها ، ثم يموت ويقبر فى ترابها ، ثم يخرج من قبرها ، ويعود إلى الجنة مرة أخرى ، وصار متسليا بوعد الله ، مؤمنا برضا ربه وفضله عليه .

أراد الله لآدم وحواء أن يخرجًا من الجنة ، ويتردى إبليس الذى وسوس لهما بغدر وإثم ، وأن يهبط بالحية فقد كانت وسيلة إبليس ، وحمله إلى الجنة حيث كان آدم وحواء ، أخفته فى جوفها ، وسهلت مهمته فى الغواية والشر .

أوحى الله :

- اهبطوا منها جميعًا ، أنتم الأربعة ، اهبطوا متحـاربين متعـادين ، بعضكـم لبعض عدو ، يبغض الجن الإنـس ، ويخشـى الإنـس الجـن ، ويهـاب الحيـات ، إذا صادفها دكها بقدمه ، أو هوى عليها بهراوته ، تلدغه إذا غفل عنها فتنشر سمومها فى جسده حين تتمكن منه .

إبليس عدو لكما ، وأنتما عدوان له ، والحية عدو لبنى آدم ، والبشر أعـداء لها ، فاستغرقتكم العداوة جميعًا ، وسيكون لكما مأوى مـن الأرض تلـوذون بـه ، وتعيشون فيه ، وتسـكنون إليـه ، ليـس علـى الـدوام ، ولكـن إلى حـين ، إلى يـوم الوفاة، لا إلى الأبد .

قـال إبليـس متشـفيا فـى آدم وحـواء ، مؤكـدا غلبتـه وانتصـاره عليهـا ، ووقوعهما فى مصيدة إغرائه :

- ألم ينهكما ربكما عن هذه الشجرة ؟ ألم ينصحكما بالبعد عنها والأكل من ثمارها ، ألم يمنعكما من الاقتراب منها ؟ وأقسم لكمـا أننـى لم أكـن أبغـى مـن وراء ذلك سوى النصح والخير لكما .

بفعل وسوسة إبليس وإغرائه نزلا من الدرجة العليا إلى المرتبة الدنيا ، وهبطًا من جنة الرضوان إلى شرور الأرض ، غرر إبليـس بهمـا بيمينـه الكاذبـة ، وميثاقـه الفاجر أنه لا يهدف إلى شر ، ولايسعى إلى خطيئة ، فلما أفلـح إبليـس فـى تنفيـذ رغبته وتحقيق غرضه ، وأقنع آدم وحواء من أكل ثمرة الخطيئة ، وانكشـفت عـورة كل منهما عقـوبة لهما ، خجلاً من أنفسهما ، واستحييا من ربهما ، وأخذا يلصقان عليها أوراق التين ، ورقة بجوار ورقة .

أوحى الله لهما محذرا إياهم وموبخا لهما ما اقترفا :

- ألم أنهكما عن هذه الشجرة ؟ ألم أنبهكما أن الشيطان عدو لكما مضلّ مبين ؟ وألا تستمعا لوسوسته ، ولا ترضخا لغوايته ، ولاتطيعانه ، فعداوته لكما ظاهرة مستحكمة ، وعليكما بالخلاص منه ، وعدم السير فى ركابه ، ولكنكما لم تأبها لذلك ، وسرتما وراء رغباتكما وتحقيق شهواتكما ، فتحملا نتيجة فعلكما .

أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جنته ، فنزع جبريل التاج عن رأس آدم ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، فشعر آدم أن الله ساخط عليه ، غاضب من فعلته .

وفرق الله بين الأطراف الأربعة ، بين آدم وحواء وإبليس والحية عند مغادرة الجنة ، فهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة ، وإبليس بالبصرة ، والحية بأصبهان .

تعلم آدم صنعة كل شئ مما يحتاج إليه ، وأرادت حكمة الله أن يلتقى آدم بزوجه حواء .

هبط آدم وحواء إلى الأرض فى عُرى كامل ، فأصابتهما حرارة الشمس الملتهبة ، وأحسا بلذعتها الساخنة ، فقعد آدم يبكى فى لوعة ، وزوجه حواء تسرى عنه ، وتخفف من إحساسه بالندم والخطيئة .

جاء جبريل بقطن وأمر حواء أن تغزله ، وعلمها كيف تغزل ، وطالب آدم بالحياكة وعلمه طريقة النسج ، وأعطاه حبات من الحنطة ، ليفلح الأرض ويبذرها فإذا نبتت حصدها ودرسها وطحنها ثم عجن دقيقها وخبزها فيأكله ، تحمل فى ذلك الجهد العظيم ، والمشقة الهائلة ، والتعب الشديدوكان من أمر الملبس فى الجهد والمشقة ما كان من أمر المطعم :

جزّ شعر الضأن ثم غزله ، فنسج لنفسه جبة ، ولحواء درعا وخمارا ، فشقى فى طلب وإصلاح المعاش .

لم يكن آدم قد طاف بزوجه وهو فى الجنة ، فإذا هبطا منها بسبب الخطيئة كان كل واحد منها يرقد على حدة ، بعيدا عن الآخر ، فأمره جبريل أن يأتى حواء وعلمه كيف يأتيها ، فلما أتاها ، واستمتع بها ، جاءه جبريل وقال له :

- كيف وجدت امرأتك ؟

- قال : صالحة .

خلا آدم بنفسه يتذكر فى ندم ما فعله به إبليس الرجيم ، وكيف عصى ربه، وطلب منه بعد ذلك الصفح والغفران .

قال آدم :

- يارب : ألم تخلقنى بيديك ؟ ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ ألم تشمّتنى حين عطست فقلت يرحمك الله ؟ يارب : لقد سبقت رحمتك غضبك ، ورضاك سخطك ، وعفوك مآخذتك ، وكتبت علىّ أن أرتكب هذه الخطيئة .

- قال : بلى .

- قال آدم : أفرأيت إن تبت هل أنت ترجعنى إلى الجنة ؟

- قال : نعم .

كانت هذه الكلمات التى قالها ، وتلقى آدم من ربه هذه الكلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم .

لم يكن آدم عليه السلام قد زل عن طريق الحق ، أو ضل عن سبيل الهدى ، وهوى إلى حومة الباطل ؛ بل إنه ترك الأفضل وأوى إلى الفاضل ، فآدم وغيره من

الأنبياء إنما يعاقبهم الله لجلال أقدارهم ، ورفعة مكانتهم وعظيم شأنهم ، فالأنبياء معصومون عن الكبائر والصغائر ، لا يرتكبون معصية ، ولا يقعون فى رذيلة ، وإذا فعلوا شيئا فهو عن قبيل صغائر الزلات التى يعفو عنها الله سبحانه .

احتباه ربه ، واصطفاه ، وقربه إليه ، بأن حمله على التوبة ، ووفقه إليها ، وهداه إلى الأخذ بها والثبات عليها ، والتمسك بالبعد عن الإثم وإن كان كبيرًا ، واللمم وإن كان ضئيلا .

لقد فضل الله آدم على الملائكة ، وهم أجسام نورانية يفعلون ما أمرهم به ربهم ، ولا يعصونه أبدا فى أمر من الأمور .

وخلق الله آدم من تراب ففضله على الجمادات والحيوانات ، وفضل جنس البشر أبناء آدم على جنس الملائكة ، حتى إن الملائكة وهى تعرف قدرها العظيم عند ربها وخالقها ، طلبت من خالقها أن يجعل لها من المزية مثل ماجعل لآدم .

- فقالت : يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لأبناء آدم الدنيا ، فاجعل لنا الآخرة .

أوحى الله العزيز الحكيم

- لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له : كن فكان

....

فى حديث متواتر عن أبى هريرة وهو صحابى له عدالة ، وفيه حفظ وإتقان ، يروى عن رسول الله فى أكثر من موضوع هذا الحديث :

قال موسى عليه السلام : يارب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة ، فأراه آدم (١) .

---

(١) البداية والنهاية ١/٨٤ .

قال موسى : أأنت آدم ؟

قال : نعم أنا آدم .

قال موسى : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ؟ ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك .

قال : نعم .

قال موسى : فما الذى حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟

قال آدم : من أنت ؟

قال : أنا موسى .

قال آدم : أنت موسى نبىّ بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء حجاب، ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ، واصطفاك برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ ، وقربك منه نجياً ؟

قال موسى : نعم أنا هو .

قال آدم : أتلومنى على عمل أعمله ، كتبه الله علىّ قبل أن يخلق السموات والأرض ؟

فحج آدم موسى وغلبه بحجته .

وإنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فآدم لم يخرج الناس من الجنة ، ولم يهبط بهم إلى الأرض ، وإنما الذى أخرجهم هو الله سبحانه الذى رتب الإخراج على أكل آدم من الشجرة ، وهو

الذى قدره وكتبه قبل أن يخلق آدم ، فلا تلومنى يا موسى على أمر ليس نسبته إلى أكثر من أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون خروجى مترتبا على ذلك ليس من فعلى ، فأنا لم أخرج الناس ولم أخرج نفسى من الجنة ، وإنما كان هذا من صنع الله وقدرته وتدبيره ، وله حكمة فى ذلك ، فلهذا حج آدم موسى عليهما السلام .

....

وآدم له أسماء عدة ، كل منها يحمل صفة تعدّ من لوازمه .

فسمى آدم لأنه مشتق من الأُدْمة ، وهى بياض اللون ، أو لون بين البياض والسواد كالحنطة ، أو لأنه خلق من أديم الأرض وترابها .

وسمى الخليفة ، حيث جعله الله فى الأرض خليفة ؟ لأنه خلف من تقدمه ، وكان آدم خلف قومًا من الخلق يسمون الجان ابن الجان ،ولكونه ناب مناب ملائكة السماء . وجعل الله الإنسان خليفة فى الأرض يخلفه على الناس ، ويتولى أمرهم ويصلح شأنهم .

وسمى أبو البشر ، أو البشر ، حيث قال الله : إنى خالق بشرًا من طين ، وذلك لمباشرته عظائم الأمور ، لما كان فى وجهه من البشر والبشاشة .

وسمى إنسانًا ؛ لأنسه بجنسه ، ولأنه يأنس لغيره وغيره يأنس به ، أو من الإيناس ، وهو الإبصار ، لأنه يبصره الظاهر وبصيرته الباطنة ، يرى رشده ،ويصل إليه.

وكان الرسول محمد ﷺ يقول : أنا أشبه الناس بأبى آدم عليه السلام .

خلقه الله بيده ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جنته ، واصطفاه ، وكرم ذريته ، وعلمه جميع الأسماء ، وجعله أول الأنبياء ، وعلمه ما لم يعلمه الملائكة المقربون وجعل من نسله الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين .

خلقه الله من تراب ، أو من طين لازب ، أو من حمأ مسنون ، أو من صلصال كالفخار ، وهى ألفاظ كلها ترجع إلى معنى واحد ، وهو التراب ، والتراب أصل الطين ، أى خلق من تراب جعل طينا ، ثم انتقل فصار كالحمأ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخار.

قابيل وهابيل

كانت حواء تلد فى كل بطن ولدين توأمين : ذكرًا وأنثى ، فولدت أولاً قابيل وأخته إقليما ، ثم ولدت ثانية هابيل وأخته ليوذا ، فلما أدرك الجميع وبلغوا سن الحلم ، ورغبوا فى الزواج ، أوحى الله لآدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر، فيتزوج قابيل ليوذا ، ويبنى هابيل على إقليما توأمة قابيل .

كانت توأمة قابيل أجمل شكلاً ، وأمشق قدا ، وأكمل جسدًا ، وأشرق وجهًا ، وأحسن طلعة من توأمة هابيل ، فحسد قابيل أخاه هابيل لأنه سيستأثر بتوأمته الجميلة ، وتكون توأمة هابيل الدميمة من نصيبه هو .

سخط قابيل على هابيل ، وامتلأ قلبه موجدة على هذه الزيجة غير المتكافئة، فليوذا لا تتمتع بقسط من الجمال ، ولا تميل إلى الألفة والمودة ، ولا تأنس النفس إليها أو ترغب فيها .

زعم قابيل أن هذا الزواج ليس بأمر من الله ، وأن الله لم يوح لآدم بشئ من ذلك ، وإنما قال آدم ما قال ؛ لأنه يميل إلى هابيل ويحبه أكثر مما يميل إليه .

اعترض قابيل على أبيه آدم ، ولم يرض بما قسم الله له ، فأمر آدم ابنيه أن يقربا قربانا ، وذهب ليحج إلى مكة ، واستحفظ السموات على قابيل وهابيل ، وتركهما وديعة عندها ، فأبت السموات ، فليس فى مقدورها أن تتحمل هذه الأمانة ، فكاهلها ينوء بحملها ، وفعلت مثل ذلك الأرضين والجبال ، فأبين أن يحملن هذه الأمانة ، وتعهد قابيل بحفظ الأمانة وتنفيذ ما أمر الله به آدم .

قال آدم : قربا قربانا ، فمن أيكما قبل قربانه تزوج من أراد ، ففعلا .

كان هابيل صاحب غنم ورعى ، فقدم جذعة سمينة مليحة ليس بها عيب عسى الله أن يتقبلها منه .

وكان قابيل صاحب زرع يفلح الأرض وينبت الزرع ، فقدم حزمة من بقايا زرع ردىء لا يعتد به .

أنزل الله نارًا من السماء فأكلت قربان هابيل وتقبل الله قربانه :

أتت النيران على الشاة ، فكان ذلك إيذانًا بأن الله تقبل منه .

ولم تقرب النار قربان قابيل ، وعدلت عنها ، وبقيت الحزمة على حالها دون أن تمسها النار أو تأتى عليها ، وكان ذلك دليلاً على أن الله لم يتقبل منه قربانه .

أشتعل قلب قابيل غضبًا ، وامتلأ صدره بالحقد على أخيه ، واندلعت نار العدواة فى جوانحه ، فكيف لم تتعرض النار لقربانه ، ولم تدن منه ، ولم تتقبله .

أقسم لينتقمن من أخيه هابيل وليقتلنه ، وسوف أمنعه أن ينكح أختى إقليما الحسناء ، بينما أنا أنكح توأمته الدميمة ، فيتحدث الناس أن أخاه خير منه ، يستأثر بالجمال والائتلاف وأبوء أنا بالخسران والاحتقار ، يفخر أبناؤه على أبنائى، بجمال هيآتهم دون أبنائى ، فالأولاد زرع الوالدين ، فإذا كانت البذرة حسنة طيبة كان النبت حسنًا طيبًا، وإذا كانت البذرة سيئة قبيحة ، فلا مفر أن يكون النبت غثًا ضئيلا . هيهات أن يتزوج هابيل أختى إقليما الحسناء ، وأتزوج أنا توأمته القبيحة العجفاء .

- قال آدم لقابيل بعد أن تقبل قربان هابيل دونه : إنما تقبل منه لأنك أبطنت لأخيك العدواة ، وتوعدته فيما بينك وبينه ، واستكثرت عليه ما هو حق له بأن يتزوج توأمتك ، فرضى الله عن تصرفه ولم يتقبل أفعالك ونواياك ؛ فقد شططت عن الحق ، وأردت أن تستأثر بما ليس لك .

قال هابيل لأخيه قابيل :

- وما ذنبى إذا لم يتقبل الله قربانك، وتقبل قربانى، فالله يتقبل قربان المتقين، ويرفض القبول من غيرهم .

امتلأ قابيل غيظًا، وظهر على وجهه الغدر، واتقدت عيناه بشواظ من نار، فبدت حمراوان مشتعلتان، فرفع كفه يريد أن يهوى به على وجه هابيل ويصفعه .

قال هابيل :

- إن مددت إلى يدك، وباشرت قتلى، وتحقق ذلك منك، فما أنا جار بجراك فى العدواة والإثم، ولا أنا متبع سبيلك فى الغدر والحقد ؛ لأنى أخاف ربى، رب العالمين .

كان هابيل هو الأقوى، أشد ذراعًا، وأحكم بنيانًا، ولكنه تحرج أن يمد يده إلى أخيه قابيل ويبطش به، أذعن هابيل لكيد أخيه، لا خوفًا منه ؛ بل خوفًا من غضب الله عليه، وطلبا للأجر والمثوبة من ربه . فقال لقابيل :

- حين لا أدفعك عن نفسى - رغم قدرتى على ذلك - وضعف قواك الخائرة أمام قوتى الباطشة . حين استسلم لغّيك، وامتنع عن التعرض لك وإلحاق الأذى بك، ستبوء بالإثمين معا :

إثمى لو بسطت يدى إليك، وإثمك حين تقبض بيدك على عنقى، فتصبح من أهل النار، عقوبة لك ؛ لأنك لم تمتثل لأمر الله ولم ترض بحكمه .

سولت نفس قابيل له أن القتل طريق سهل لاحرج فيه ولا إثم عليه، وإزهاق الروح أمر حتمى لا رجعة فيه ولا مفر منه .

نسى أن القتل، وخاصة قتل الأخ فيه من العصيان والأثم ما لم تتحمله النفس البشرية الألوف - التى لم تقارف الأذى، ولا تميل إلى القتل، ولا تحب إراقة الدماء .

ولكن قابيل نازعته نفسه الشريرة ، وسوس له شيطانه الرجيم أن يهم بقتل أخيه وإزهاق روحه ، لكنه لم يكن يدرى كيف يقدم على القتل ، ويمارس إزهاق النفس .

بينما هو متحير فى أمره ، لايدرى كيف يخطو هذه الخطوات التى تخلصه من صورة أخيه الماثلة أمامه دوما يريد أن يستولى على إقليما الحسناء . بينما هو كذلك تمثل له إبليس اللعين فى صورة بشر يتسم بالقسوة ، فأخذ طائرًا ودفع به إلى الأرض ، ووضع رأس الطائر على حجر ، ثم شدخه بحجر آخر فمات لتوه .

التقط قابيل طريقة إزهاق الروح من فعلة إبليس الشنعاء . إن القتل أمر بالغ السهولة ، أضع رأس هابيل على حجر ، وأهوى بحجر آخر على رأسه ، أو أضعه بين حجرين صلدين فأسحق رأسه ، ويفقد حياته ، وأتخلص منه . راودته هذه الوساسوس ، وألحت عليه ولم يبق سوى التنفيذ . كانت فى قابيل جرأة وقسوة لا حد لهما . فتمثلت الخواطر أفعالا ، والأقوال تنفيذا ، فدفع أخاه هابيل ، فسقط على الأرض ، وظهره ملقى على التراب ، ووجهه فى مواجهة السماء ، ولم يفكر قابيل فى شئ سوى القتل ، فألحقه بحجر آخر وهوى به على رأسه ، فشدخها ، وسالت منها الدماء ، غزيرة متدفقة كالنافورة .

قال هابيل وهو ينازع الروح فى الرمق الأخير ، قال لقابيل :

- لقد خسرت دنياك حين أسخطت عليك والديك : آدم وحواء . وستصبح مكروهًا مذمومًا منهما طيلة حياتها حتى يوم وفاتهما ، ولن يصفحا عنك ما فعلت بأخيك الذى يكن لك كل الحب والوفاء .

وخسرت آخرتك بما ينتظرك من عذاب مريع ، حين ارتكبت هذه الجريمة الشنعاء ، وبؤت بغضب من الله ، وحلت عليك لعنته .

كانت هذه آخر الكلمات التى تفوه بها هابيل ، وأسلم روحه لبارئها .

تحير قابيل ، فجسد أخيه هابيل مسجى أمامه ، راقد على التراب وقد فارقته الحياة ، لا يدرى كيف يتخلص من هذه الجثة ، وكيف يوارى هذا الجسد ؟

لم ير أحدا من قبل يمارس القتل حتى يقتدى به ، ويفعل مع أخيه القتيل مثل ما فعل القاتل فى ذلك الظرف الكريه ، ولم يبصر أحدا يقتل ثم وارى جثة من قتل وتخلص منها .

استرسل فى هواجسه وتهيؤاته ، نادمًا حزينًا على ما فعل بأخيه ، وظل هائمًا على وجهه ، يحمل جثة هابيل مرة على رقبته ، فإذا شعر بالكلل ، حملها على ظهره ، يتنقل بها من مكان إلى مكان ، فى صحراء قاحلة ، ورمال محرقة ، يجوب الفيافى والقفار ، متحيرًا فى أمر أخيه ، وجثته قابعة فوق رأسه أو على كتفيه ، ماذا يفعل ، وكيف يتصرف وإلى أين ينتهى ؟

كان يعض بنان الندم ، وقد تيقظ منه الضمير ، وهدأت فيه النفس .

وحزن على وفاة أخيه وقتله له بيديه الآثمتين ، حزن حزنًا عميقًا ، وكل مافعله أخوه إن كان قد فعل شيئا ، لا يستحق عليه قتلاً ولا هلاكًا .

مضى قابيل فى الفيافى شريدًا طريدًا ، فزعًا مرهوبًا ، حتى هيأ الله له غرابًا يقتتل مع غراب آخر ، فأدمى أحدهما الآخر وانتهى إلى قتله ، ثم حفر له فى التراب حفرة ، حفرها بمنقاره ورجليه ، وألقى بالغراب الميت بداخلها ، وقابيل ينظر ويتأمل متعجبًا كيف لم يخطر بذهنه ما فعل الغراب ، ولم يفكر بهذه الطريقة التى استعملها الغراب فى دفن غريمه ، وكيف لم يهتد لمثل ما اهتدى له ذلك الغراب الطائر الصغير ، وكيف يعجز عن مواراة جسد أخيه كما فعل الغراب مع غريمة حين قتله، وظل قابيل يلوك خواطره ، ويجتر أحزانه ، نادمًا على صدور القتل منه.

اقتدى بما فعل الغراب وحفر لها حفرة وارى جسده بداخلها ، وتخلص من جثته نهائيًا ، بعد أن كانت عبئا يرين على صدره ، وثقلا يحمله على ظهره .

جاءت الشرائع كلها تحرم القتل - بغير الحق - وتدين القاتل ، فمن قتل نفسًا واحدة بغير قصاص ، أو أفسد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ، حيث أغرى بالقتل وجرأ الناس على ارتكابه ، وهتك حرمة النفس وأراق دماءها .

وعلى النقيض من ذلك : من أحيا نفسًا أو تسبب في الإبقاء عليها حية بالعفو أو المنع أو الإنقاذ ، فكأنما أحيا الناس جميعًا ، فالنفس البشرية لها مكانتها عند الله وحرمتها عند الناس ، ولنا أن نحافظ عليها ولانهدر قيمتها ، ولكن فريقًا من الناس لا يبالون بالشرائع ؛ بل يجترئون على القتل ، ويسرفون في تدبيره وتنفيذه .

عوجل قابيل بالعقوبة يوم قتل أخاه الطيب ، علقت ساقه إلى فخذه ، واستدار بصفحة وجهه إلى الشمس كيفما اتجهت ، تنكيلا به وتعجيلاً لذنبه ؛ عقوبة لبغيه وحسده .

الوفاة

وهب الله آدم ابنا سماه شيثا ، رزق به بعد أن قتل قابيل هابيل ، ومعنى شيث : هبة الله، وسمى بهذا الاسم ؛ لأنه كان هبة من الله لآدم بعد مقتل هابيل.

أنزل الله مائة صحيفة وأربع صحف ، نزل منها على شيث وحده خمسين صحيفة .

وعندما حضرت الوفاة آدم ، عهد إلى ابنه شيث أن يتولى الأمر بدلا منه ، وأعلمه أن طوفانا سيأتى بعد فترة ، فى زمن نبى يقال له نوح ، هذا الطوفان ، سيفيض على جوانب المعمورة ، يدمر الحرث ، ويغرق الأرض ولا يبقى عليها شيئا .

إن بنى آدم ينسبون كلهم إلى شيث بن آدم ، وبقية أبناء آدم انقرضوا وبادوا ، ولم يبق منهم أحد غير ذرية شيث .

توفى آدم يوم الجمعة ، كما خلق يوم الجمعة ، وعند وفاته جاءته الملائكة بطيب وأكفان من الجنة ، أخذوا العزاء من ابنه شيث ، وكسفت الشمس والقمر لموته سبعة أيام ولياليها .

عندما حضرت آدم الوفاة ، قال لبنيه :

– يا أبنائى : إنى أشتهى شيئا من ثمار الجنة ، أتحرق شوقًا إليها ، بعد أن حرمت منها ، وقد غفر الله زلتى ، فليسمح بقطف منها وأنا ألفظ أنفاسى الأخيرة .

ذهب الأبناء يطلبون ثمار الجنة تلبية لرغبة أبيهم ، وتحقيقًا لأشواقه الجارفة ، استقبلتهم الملائكة ، ومعهم أكفانه التى يلفّون فيها جسده ، وطيبه الذى يغسلون به بشرته ، وبين أيديهم أدوات الحفر يضربون بها وجه الأرض ليسدوه الثرى ، وقالوا لأبنائه :

– يا بنى آدم ماذا تطلبون ، وأين تتجهون ؟

– قالوا : أبونا مريض ، وفى النزع الأخير ، ودنا من الموت ، وهو يشتهى شيئا من ثمار الجنة .

قالت الملائكة :

– ارجعوا فقد قضى نحبه ، فعادوا من حيث أتوا ، عادوا بوجوه حزينة متكدرة ، ونفوس منكسرة والهة ، فعرفت حواء ما وراءهم ودنت من آدم تحتضنه.

قال آدم :

– إليك عنى ، فقد أوتيت من قبلك ، و لم أهلك إلا بسببك ، فخلى بينى وبين ملائكة ربى ، فقد طلب منها الرب أن تنزع روحى ، وتصل بها إلى رحابه .

نزعت الملائكة الروح فى هوادة ويسر ، مترفقة به ، راضية عنه ، فرضاها من رضا الرحمن .

فارق آدم الحياة ، وغسلت الملائكة جسده بالماء والطيب ، وكفنته بالأردية والثياب ، وكبرت عليه أربع تكبيرات ، كانت هذه التكبيرات بمثابة صلاة الجنازة للمسلمين ، وهى سنتهم إلى يوم الدين .

حفروا له حفرة تتسع لجسده ، أدخلوه قبره ، وأودعوه بداخله ، ثم حثوا عليه التراب .

وبعد موت آدم عليه السلام انتشرت الأبناء والأحفاد فى كل بقعة وأرض ، وفى كل مكان وزمان ، فى العمران والصحراء ، تحت وهج الشمس ، وفوق ثلوج الجبال ، فى كل بقعة تقع عليها العين ، أو ترهف فيها الأذن ، نجد ابنا من أبناء آدم عليه السلام ، عمروا الأرض ، وشيدوا بنيانها ، وأقاموا عليها صروحهم وقصورهم وخيامهم .

دفن آدم بجبل أبى قبيس بمكة، أو بالهند فى الموضع الذى أهبط فيه من الجنة.

وماتت حواء بعد آدم بسنة واحدة .

فى زمن نوح عليه السلام عم الطوفان الكون ، وأغرق الأرض وأهلك الحرث والنسل ، فخشى نوح على جثة النبى آدم وزوجه حواء ، فحمل كلا منهما فى تابوته ، ودفنهما فى بيت المقدس .

كان عمر آدم فى اللوح المحفوظ ألف سنة ، عاشها كلها ، عدا أربعين سنة وهبها لداود عليه السلام ، فاكتملت بذلك الألف .

وعندما لفظ آدم عليه السلام أنفاسه الأخيرة ، وأسلم روحه لخالقه ، بكت عليه الخلائق سبعة أيام بلياليها ، وقام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام .

وبذلك طويت صفحة أول البشر ، وأول الأنبياء ، وأول من عمر الأرض ، صفحة من نور طواها الزمن ، و لم يبق إلا أريجها يعطر الأنفاس .

مأساة العقـوق
قصـة النبـى نــوح

" يا بنى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سأوى إلى جبل
يعصمنى من الماء"
سورة هود آيه ٤٢ ، ٤٣ .

شيخ المرسلين

كان بين مولد نوح وموت آدم عليهما السلام عشرة قرون ، ألف عام كان الناس فيها على الإسلام دين الفطرة والسماحة ، ليس بينهم كافر أو ضال ، ثم حدثت أمور أخرجت الناس عن الصلاح والتقوى ، وآل الحال فى ذلك إلى عبادة الأصنام .

هذه الأصنام : وَدّ وسُواع ، ويَغوث ، ويَعوق ، ونسْرًا ، كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما مات هؤلاء الرجال ، وسوس الشيطان لأهل القرى والأمصار أن يقيموا أصنامًا على مثال هؤلاء الرجال الصالحين ، وأن يسموها بأسمائهم ، ففعلوا وامتثلوا لا للعبادة ، ولكن لمجرد الذكرى ، يذكرونهم فى كل خير ، ويسيرون على منوالهم ، فى سلوكهم وصلاحهم وتقواهم ، والبعد عن الغى والضلال والإفساد .

كرت الأزمان وتطاولت العهود ، فنسى الناس اتخاذهم هذه الأصنام للتذكر والتقرب بالخصال الحميدة ، والمآثر الجليلة . وانحرفوا بها إلى مسار آخر ، فاحتفلوا بها ، وعُنوا بشأنها ، ووضعوها فى المكان اللائق بها ، يقدرونها ويعظمونها ويستنزلون بها الخير والبركة . وأمعن إبليس فى وسوسته لهم فصدقوه ، فكانوا يلوذون إليها فى كل شئونهم ، ويتقربون إليها فى جميع حوائجهم ومصالحهم ، ولا يقدمون على أمر إلا بعد الرجوع إليها والمثول بين يديها وأخذ الإذن منها .

انتشر الفساد فى الأرض ، وعم البلاء بعبادة الأصنام ، فأرسل الله نوحًا ومنحه العطاء ، وأجزل له النعمة ، ومنع الجاحدين الحياة فأغرقهم فى اليّم ، وطوتهم الأمواج .

ما حدث لنوح من الطوفان ، وغرق ابنه وفلذة كبده ، لم يعرفه رسول أتى من بعد نوح ، فكانت المحنة قاسية الوقع على نفسه ، شديدة الوطأة على قلبه ، فكان الصراع المرير بين ما يكنّه من شفقة لفلذة كبده ، وبين عصيان الابن لدينه ، وجحده الإيمان بربه .

طلب نوح النجاة لابنه ، فابنه من أهله ، وقد وعده الله بنجاة الأهل ، ولكن الله رد رغبة الأب وهو نبىٌّ مرسل ؛ لأن القرابة ليست بالنسب أو الدم ؛ بل القرابة بالدين ، والانقياد للرب ، وابنك على دين غير دينك ، متبعًا هوى نفسه ، فلا مناص من كفره ، ولا مفر من هلاكه .

هذه المأساة فى أحداثها وتطورها وقسوتها على قلب الأب ، جديرة بالاعتبار والتدبر ، فهى ليست بين رسول وبين معاندين فحسب ؛ بل هى أيضًا بين والد وما ولد ، بين أب تخفق جوانحه بالحب والحنان ، وابن يفيض صدره بالجحود والنكران .

الدعوة

نوح عليه السلام هو نوح بن لامكْ بن متوشَلْح ينتهى نسبه إلى شِيث ابن آدم عليه السلام . وأمه شمخاء بنت أنوس .

كان أبوه وأمه مؤمنين ، إذ لم يكن بين نوح وآدم من آبائه كافر ، وكان بينه وبين آدم عليه السلام عشرة من الآباء .

ونوح أطول النبيين عمرًا ؛ إذ عمر بين قومه أكثر من ألف عام ، وعلى طوال المدة التى عاشها والعناء الذى لاقاه من قومه ، شعر أن الدنيا غمضة عين أو رمشة جفن ، وأنه ليس أكثر من رجل دخل بيتًا له بابان ، فمكث فى وسط الدار لحظة ، ثم خرج من الباب الآخر .

وكان عبدًا شكورًا يحمد ربه على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله . وكان يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكر يكون بها ولا يكون إلا بعملها .

أرسل نوح إلى قومه وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، ولبث يدعو قومه إلى التوحيد حتى بلغ من العمر المديد والأجل الطويل ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان نحو خمسين وثلاثمائة أخرى .

أُرسل نوح إلى قومه مبشرًا بالتوحيد ، ونبذ ماهم فيه من عبادة الأصنام والشرك با لله ، حتى تسلم نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم ، فالإيمان يمنح السلام للروح والجسد ، ويحدث بينهما نوعًا من الائتلاف والاقتراب ، ويبدد كل

ما يمكن أن يكون بينهما من نفرة أو اضطراب ، فالسلام الذى ينعم به المرء يكون من دوافع الإيمان الذى يتشربه القلب ، فلو أسلم المرء نفسه لله ، وتوجه بدينه للخالق الديّان ، لشعر بالطمأنينة وراحة البال . وتبددت حلَكة النفس وأصبحت صافية هانئة ، وأمست فى رضا واطمئنان ، لا أثر فيها للتوتر أو القلق . فإن استمعوا إليه وأطاعوه فى رسالته ، كان لهم بهذه الطاعة نعيمًا مقيمًا ، وسعادة مستقرة .

وإن عصوا وتمردوا عليه وخالفوا رسالته ، أنذرهم بالعذاب الشديد ، والغرق المريع ، كان إنذاره بينًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض .

أمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ، وما تتناوله العبادة من واجبات ومندوبات من أفعال القلوب وأعمال الجوارح .

والأمر بالتقوى يتناول الزجر عن المحظورات والمكروهات .

والأمر بالطاعة أن يطيعوه فى جميع ما أمر به ، وأن يبتعدوا عن كل ما نهى عنه ، والأمر بالطاعة داخل فى الأمر بالعبادة والتقوى إلا أنه أراد أن يشدد بهذا التفصيل على الإيمان والعمل به ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة ، الطاعة التى تمحو مضار الدنيا وانحرافاتها قدر المستطاع ، وتقربهم من ثواب الآخرة حيث غفران الله لذنوبهم ، ومكافأتهم على حسن صنيعهم ، فأنا منذركم من عقاب الله ، مخوف لكم من عذابه ، ومبين لكم ما فيه نجاتكم .

فاعبدوا الله واتقوه ولا تشركوا به غيره ، وذِلوا له بالطاعة ، واخضعوا له بالاستكانة ، ودعوا عبادة ما سواه ، فليس لكم فى الوجود غيره .

فإن فعلتم ذلك غفر لكم ذنوبكم ، ذنوبكم التى سبق أن اقترفتموها ، وما سلف منكم من قبل أن تطيعوه ، وأنا الآن أدعوكم إلى التقرب منه .

أما إذا عصيتم بعد أن دعوتكم إلى الإيمان فلن يغفر الله لكم ؛ إذ حقّت كلمته على الذين كفروا أنهم أصحاب الجحيم .

والله يمنحكم ما تحبون بأكثر من ثواب المغفرة ، يبارك فى أعماركم إن آمنتم به ، ويمحو منكم البركة إن ابتعدتم عنه .

إن آمنتم لم يمتكم الله بالقتل ولا بالغرق ولا بالحرق ، ويؤخر أعماركم إلى منتهى آجالكم .

لا تغلو فى حب الدنيا ، ولا تتهالكوا على لذاتها ، كأنكم تشكون أن أعماركم لها نهاية ، وأن حياتكم يعقبها فناء ، وأنكم ستخلدون أبد الدهر ، وستبقون أحياء دون موت ، إذا حانت لحظة فلن تتأخروا ساعة ولن تتقدموا لحظة ، وإنما تفارقكم أرواحكم ولن تعود إلى أجسادكم الفانية ، فسارعوا إلى ما أمرتكم به من الإيمان .

هل تخافون أن تتركوا عبادة آلهتكم وأصنامكم إلى عبادة من لا يستحق العبادة غيره ؟

ألا تخشون أن يزيل عنكم الله الواحد القهار ما منحكم من النعم ، ويسلبها عنكم فتشعروا بالمذلة والهوان ؟

ألا تحفظون أنفسكم من عقابه الذى تقتضيه ذنوبكم ؟

إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم لا تستطيعون أن تصنعوا فيه شيئًا ، فلا تقبل توبتكم ، ولن تمحى معاصيكم .

فى كل مرة يسمعون فيه نداء نوح : يقولون ما سمعنا بشرًا من قبل في الأمم الماضية يزعم هذه الدعوى ، ما سمعناه من آبائنا أو أجدادنا الأولين .

كانت دعوة نوح غريبة عليهم لم يألفوها من قبل ، إذ لم يسمعوا برسول سبقه يدعو قومه إلى التوحيد بالله ، فكيف ينبذون ما درج عليه آباؤهم ، وسار عليه أجدادهم . وأولى بهم أن يعتصموا بحبال التقليد ، وأن يتمسكوا بها ويسيروا على هديها .

قالت جماعة من أشراف قومهم الذين جحدوا التوحيد وكذبوا نوحًا : ليس نوح إلا بشرا مثلكم ، مجرد إنسان كبقية الإنس ، يريد أن يستولى على الأمر ، ويصير له الفضل دونكم ، فيكون متبوعًا وأنتم له تبع ، ولو شاء الله ألا نعبد شيئًا سواه ، لأنزل ملائكة بدلاً من البشر ، تؤدى عنه رسالته ، وما سمعنا بما دعانا إليه نوح من أنه لا إله غير الله فى كل القرون الماضية منذ آبائنا الأولين ، قالوا ذلك سفاهة واختلاقًا .

لم يكتفوا بذلك ، بل رموه بالسفه والجنون ، وأنه يَهْرِف بما لا يعرف ، وأنه مستمر فى هذيانه ، فعليهم أن ينتظروا حتى يتكشف أمره ، ويظهر حاله ، ويفيق من جنونه ، فيترك هذا الداء وهذه الدعوى الكاذبة المضللة . أو ينتظروا حتى يقضى نحبه فيستريحوا منه وتبطل دعواه .

صك سمع نوح ما يتقول قومه عليه ، وما يرمونه به ، فهم يواجهونه بهذا الافتراء ليلاً ونهارًا ، وعرف تماديهم فى الكفر وإصرارهم عليه .

لم يبق أمامه طريق فى الدعوة إلا سلكه ولكنهم أيأسوه منه ، فأسلم وجهه لله ، فهو حسبه وكافيه ، ودعا عليهم أن ينتقم له منهم ، ينتقم بما يشاء وكيف يريد ، فقد كذبوا نبيك واستهانوا به ، ولم أفلح فى دعوتى معهم ، فقابلونى بالإهانة والتحقير ، فتصرف معهم بما يستحقون من عذاب ، فأنت القدير وأقدر عليهم منى ، وعقابك أخوف لهم ، فأنا لا أملك من أمرهم شيئًا : أنا ضعيف وهم أقوياء ، وأنت أقوى من كل موجود . أنا وحيد وهم كثرة ، وماذا يفعل واحد وهم جماعة ؟ وأنت يا رب فى كل ذرة من هذا الكون الرحيب ، فعليك بهم ، وانصر دينك الذى لم يبالوا به ، واحفظ نبيك الذى أساءوا إليه .

دعاهم نوح إلى الإيمان بالله وتوحيده مرة أخرى ، وأمرهم بالعبادة والتقوى والطاعة حتى يغفر الله لهم ، فاستقبلوا دعوته بكبْر ليس فيه شئ من التواضع ، بل فيه إمعان فى الاستهانة والإهمال .

جعلوا أناملهم فى آذانهم كى لا يسمعوا حجته ، ولا يصيخوا السمع إلى ما يقول ، بل أدخلوا أصابعهم كلها فى آذانهم - إن كانت الأصابع تدخل - ازدراء به ، ومقتًا له .

تغطوا بأثوابهم على وجوهم فحجبوا عيونهم حتى لا يبصروا وجهه ، كأنهم كرهوا أن يسمعوا كلامه أو يروا وجهه .

فإذا أودعوا الأصابع فى الآذان ، وألقوا الثياب على الوجوه والأبدان ، كان ذلك دليلاً واضحًا ، وعلاقة أكيدة أنهم كرهوا سماعه ، وزهدوا فى رؤيته .

أصرّوا على الكفر واستمروا فى دواعيه ، وداوموا على الإعراض عن سماع دعوة الحق .

استكبروا استكبارًا حتى بلغوا فيه نهاية الشوط وأقصى المدى ، لبسوا له ثياب العداوة ، وقلبوا له ظهر المجن ، و لم يقلعوا عن كفرهم و لم يتوبوا عنه ، استكبروا عن قبول الحق ، وامتثال ما أمرَهم به نوح .

كان يدعو الرجل بعد الرجل ، يكلمه سرًا فيما بينه وبينه ، ويعرض عليه رسالة ربه من توحيد وعبادة ، كان يدعوهم جهرًا متفرقين ومجتمعين ، كان يطرق عليهم أبواب منازلهم ، ويدعوهم إلى الإيمان فلم ينجح ، كان يدعوهم جامعًا بين السر والجهر فلم ينجح ، و لم تفلح دعوته فيهم .

بدأهم سرًا ؛ لأن السر أسهل ، وثنى بالجهر ، لأن المجاهرة أجمع وأفلح ، ثم دعاهم سرًا وجهرًا ، لأن الجمع أقوى من الجهر منفردًا . لم تنفع دعوته مع قومه لا فى السر ولا فى العلن ، ولا فى الجمع بين الخفية والجهر ، حتى تسرب اليأس إلى قلبه ، فكيف يعمل لصالح قومه ، وهم يقابلون إحسانه بالإساءة ، ويلاقون دعوته بالإعراض .

لم يجد أمامه غير أن يبوء إلى الله ، ويلوذ إلى رحابه .

فلا يقابل إنكارهم وجحودهم وعنادهم وتهكمهم إلا بأن يتوكل على الله .

ذلك دأبى الذى اعتدت عليه دوما ، والله حسبى وكافينى ، وعليه أتوكل لا على غيره ، فاعزموا أمركم ، واجمعوا أقوامكم على ما شئتم من الإنكار والجحود ، فهذا لن يغير من الأمر شيئًا ولن يفت فى عضدى ، ولن أترك تبليغ ما أمرت به ، مهما لا قيت من عنادكم وتهكمهم ، ومهما واجهتمونى بالخذلان والصعاب ، وما ترمونى به من السفه والجنون ، فلن أتخلى عن تبليغ رسالة ربى .

ادعو أصنامكم ، ونادوا آلهتكم ، حتى تنصركم ، إن كان لديها النصرة أو المؤازرة ، وعجلوا من أمركم ، واصنعوا ما بدا لكم ، وامضوا فيما أنتم فيه دون تسويف ، فسوف تخذلون وتندمون ، وأنا واثق من نصره الله وتأييده لدينه الذى أدعو إليه ، فإن أعرضتم عن نصحى لكم وتذكيرى إياكم ، فما سألتكم فى مقابل دعوتى أجرا تؤدونه لى ، فلا تتهمونى فيما أرسلت به .

إن الله طبع على قلوبكم ، وعلى سمعكم ، وجعل الغشاوة على أبصاركم ، فجاوزتم الحد فى الكفر والضلال ، والغى والمعصية .

* * *

الجدل

تطاول الزمن على دعوة نوح ، والجدال دائم بينه وبين قومه ، لا ينمحى ولا يهدأ ، بل هو ثابت مستمر يواليه سرًا وجهرًا ، ليلاً ونهارًا ، فلم يزدادوا منه إلا نفرة وفرارًا .

لبث بينهم أكثر من ألف عام ، يدعوهم بعد أن عاش بين أظهرهم خمسين وثلاثمائة عام إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام فلم يستجيبوا له ، كلما انقرض جيل وصّى السابق منهم اللاحق بمخالفة نوح ومحاربته وعدم الإيمان به . وكان الصبى إذا بلغ الحلم أوصاه أبوه وأخذ عليه العهد ألا يؤمن بنوح ما عاش أبدًا .

كانوا أصحاب طباع خشنة ، وقلوب غلاظ تأبى الإيمان والانقياد إليه ، وتنفر من الحق واتباعه ، لا يحبون العدل ، ولا يرومون القسط ، فكانوا يجادلونه جدالاً مرًا شديدًا ، وهم لا يودون الوصول إلى الحقيقة ، ولا يهدفون الانقياد إلى الصواب ، فالحقيقة ظاهرة ملموسة ، فى أنفسهم ، وفى الكون حولهم ، فى خلق الإنسان ونموه واختلاف وأطواره ، وفى إنشاء السموات والأرض ، وخلق الليل والنهار ، وفى ظهور الشمس والقمر .

وفى الصحارى حولهم والجبال ، وفى ترامى الأنهار والبحار ، فى النبات والحيوان ، فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فى شربة الماء ، ولسعة الشمس ، وتأجج النار ، إنهم لا يبغون التوصل إلى الحق ، وإنما يريدون العناد والمجادلة .

كانوا يجادلون نوح دون أن يكترثوا بأمره ، أو يأخذوا بنصحه ، أو يسلموا برسالته ، كان ينصح لهم دون أن يجد آذنًا صاغية أو قلوبًا متفتحة . إنه يؤذن فى صحراء ولا مجيب ، ويسبح فى محيط لا ساحل له ، لا أمل فى استجابة ، ولا ترجيع لصدى . لقد فتنهم الشيطان وأغواهم عن طريق الهداية ، فلن يملك أحد هدايتهم ، أو العودة بهم إلى طريق الرشاد ، لا أحد سوى الله ، العليم بمن يستحق الهداية ، ومن يسير فى طريق الغواية .

قالوا متهكمين : إيتنا بما تعدنا من ألوان العذاب ، إن كنت من الصادقين فى دعواك أنك رسول منّ قبل الله .

لن يمنعكم تحذيرى من عقاب الله ، ولن ينفعكم نصحى إن كفرتم برسالتى ، أنتم لا تقبلون النصح ، ولا ترضون بالإنابة ، وسوف تهلكون بعذاب الله الذى إليه ترجعون ، فإن كان نصحى لكم من أوهامى ، واختلاقًا من عندى ، فعلى إثم الافتراء على ربى وليس عليكم ، ولن يؤاخذكم به ، فأنا برئ من الإثم ، بعيد عن العذاب .

ضاقوا ذرعًا بنوح وبدعوته ، ولم يعودوا يطيقون سماع كلامه ، أو رؤية وجهه ، فأغروا به سفاءهم ، سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم ، كانوا يخنقونه حتى يغشى عليه ، ويضربونه حتى يفقد الوعى ، فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

تمادوا فى ارتكاب المعاصى واقتراف الخطايا ، وتطاولوا فى الضلال ، وبالغوا فى الغى ، كانوا يواجهون نوحًا بكل قبيح ، ويسمعونه كل بذئ ، ويرتكبون معه كل ما هو بعيد عن الخلق من قول أو فعل .

اشتد على نوح البلاء ، وازدادت وطأة المحنة عليه فلم يعد يتحملها ، لا يأتى قرن من الزمان إلا كان أسوأ من سابقه ، وأشد حلكة ، وكانوا يرمونه بسفه القول ، ويقذفونه بصفة الجنون .

لقد كان نوح مع آبائنا وأجدادنا ، وهو على هذا الحال من الجنون الذي يريم عليه الآن ، فلا تقبلوا منه أمرًا ، أو تسمعوا له كلمة ، فهو يجدّف فى أقواله ، ويتكلم دون أن يعى ، ويتخبط فى أفعاله فلا تبقوا عليه .

كانوا يسمعون كلام كبرائهم وأشرافهم ، فيترجمونه قذفًا بالحجارة ، ورميًا بسفه القول ، وسوء الفعل ، يمسكون بتلابيبه ويركلونه بأقدامهم ، فإذا يئسوا منه تركوه وشأنه ؛ تحقيرًا لأمره وحطًّا من شأنه .

ونوح يردد بلسانه ما يجيش بصدره : إن ربى لهم بالمرصاد ، يمهلهم ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف وعده لى ، فهو عزيز فى انتقامه ؛ لأنهم كفروا به ، وآذوا رسوله ، وخالفوه أمره ، وهو أيضًا الرحيم بتوابه لمن تاب منهم ، وأقلع عن غيّه ، وسمع دعاء نبيه .

اللهم هذا وعيدك لمن عصاك ، وخالف دعوة رسولك ، وهذا وعدك لمن أطاعك واتبع رسالة نبيك .

طلب منهم نوح أن يسألوا ربهم المغفرة من ذنوبهم السابقة ، أن يسألوه بنيّة خالصة ، وقلب طاهر ، وصدر سليم ، فالله كثير الغفران للمذنبين ، تواب لمن طلب التوبة وأقلع عن المعصية .

ذلك أن نوحًا عليه السلام حين كذبه قومه زمنًا طويلاً حبس الله عنهم المطر وحفف أصلاب رجالهم وأعقم أرحام نسائهم زهاء أربعين عامًا ، لا يتوالدون ولا يتناسلون .

شعروا بالبلاء والغمة بعد أن كانوا فى أمنة وطمأنينة ، وعاشوا فى الفقر بعد أن تقلبوا فى النعمة ورغد العيش ، وأصبحت حياتهم قاحلة مجدبة ، خواء من المال ، خالية من الأولاد ، حزنوا لذلك وأصابتهم الكآبة ونزل بهم الخوف وزال عنهم الاطمئنان .

هرعوا إلى نوح يلتمسون منه أن يسأل ربه أن يخرجهم من هذه المحنة ويزيل عنهم تلك النقمة ، وأن يسارع فى مدهم بالمال والولد والرضا .

كان رد نوح عليهم يسيرا غاية اليسر ، فلم يطلب منهم سوى أن يستغفروا لربهم ، إنه غفار ، يرسل السماء عليهم بالإمطار ، ويمدهم بالأموال ، ويرزقهم الأولاد ، ويجعل لهم من الأرض بساتين وبسطًا خضرًا ينعمون فيها ويأكلون ثمارها . فالكفر سبب فى جدب أرضهم حيث افتقدوا رضا الله فتكاسلوا عن العمل بها ، فضلاً عن شح الماء الذى يحيى الأرض الموات وهو نازل من السماء بعون الله .

وطلب منهم أن يؤمنوا با لله ، فالإيمان هو سبب الفلاح ورباط التقوى ، فاستغفاركم من الذنوب من أعظم أسباب الرزق ونزول المطر ، وحصول دواعيه ، فيجعل لكم أنهارًا جارية ، ومياه عذبة ، ويكثر من أموالكم فى الدنيا . ولكنكم لا تخشون ربكم ، ولا توقرونه حق توقيره ، ولا توحدونه ولا تطيعونه ، لا تخافون عقابه ، ولا ترجون ثوابه ، وأنتم أقل الناس استغفارًا ، وأكثرهم ذنوبًا .

إذا كنتم عصيتم ربكم فاستغفروه يغفر لكم ، فا لله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا .

حثهم نوح على الطاعة والإيمان ، ووعدهم من منافع الدنيا بأشياء ، لأنه خبير بالنفس البشرية التى جبلت على محبة الخير العاجل ، واللذة الخاطفة .

أولها : أن ا لله يرسل المطر عليكم فيحيى أرضكم ، ويزهر زرعكم ، وتثمر أشجاركم ، فتحصدون منه ما تعيشون به من خيراتها وثمارها .

وثانيها : أن ا لله يمدكم بالأموال التى تفتقرون إليها ، وتكون سببًا فى رغدكم ، وهناء عيشكم .

وثالثها : أنه يرزقكم بالبنين والأحفاد ، وهم عماد المرء فى حياته ، وعزوته فى دنياه .

ورابعها : أنه يجعل لكم أنهارًا تتدفق ، تمخر بعبابها شقوق أراضيكم وصحرائكم ، فتساعد على طيب العيش وهناء الحياة .

وخامسها : أنه يكثر لكم من البساتين المحملة بالأزهار ، المثقلة بالثمار ، فتتقلبون فى جناتها وتنعمون بجنيها .

أعلمهم نوح وأكد لهم أن إيمانهم يجمع لهم الحظ الوافر فى الآخرة ، والخصب العميم فى الدنيا .

فما لكم لا تخافون الله ولا تعظمونه ، ولا توحدونه ولا تطيعونه ؟ ومالكم لا ترجون ثواب الله ، وغفران ذنوبكم ، فلا تعظمونه ولا توقرونه ؟

لم تتفتح قلوبهم لسماع دعوة نوح ، ولم يصيخوا السمع لندائه الذى يحثهم على الإيمان بالله وما يقربهم إليه ، ويزيدهم من نعمه وخيره ، ويجعل حياتهم طيبة رغدة ، مزهرة خضراء ، يستريحون فى فيئها ، وينعمون بخيرها ، لكنهم لم يستجيبوا لنداء نوح ودعوته .

الأراذل(١)

فإذا أردت أن نتبعك ، ونؤمن برسالتك ، ونطيعك قولاً وعملاً ، فالفظ هؤلاء السفهاء ، وأبعد أولئك الأراذل الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ويعملون بالصناعات الخسيسة والمهن الحقيرة . نَحِّهم عنك ، ولا تقارب بينك وبينهم ، فأنت غير جدير بالتمسك بهم ، وهم غير جديرين بولائك واتباعك . فلا تضعنا وهم فى منزلة سواء ، فنحن أكثر ثروة ، وأرفع حسبًا ، وأوجه قومًا ، فلا تسوى بيننا وبينهم .

أنكر نوح عليه السلام على أشراف القوم هذا القول العجيب ، قول دعيّ بلاحجة ولا سند ، بلا برهان أو دليل ، فالدين لله الواحد ، لا يعترف بالطبقية ولا بالتحيز ، والناس فيه سواسية كأسنان المشط ، والدين ليس قصرًا على الغنى دون الفقير ، ولا حجرًا على الوجيه دون الوضيع ، كيف يحق لى أن أطردهم من اتباع دين الله ، وكيف أنحيهم عن طاعة الله ، وإذا صح لى أن أطردهم فمن يجيرنى من عذاب الله إن جاءنى ؟ ومن ينصرنى من عقابه إن ألح على ؟ ، فلئن ظلمتهم كان ظلمى لهم فادحًا لا يُغتفر ، إن طلبكم هذا فيه الكثير من الجهل بدين الله الذى يمنحه للبشر أجمعين ، دون تفرقة بين الذكر والأنثى ، وبين رفيع القدر ووضيع المكانة ، وبين الغنى والفقير ، وبين القوى والضعيف ، وبين صاحب السلطان الآمر والتابع المأمور .

---

(١) ﴿ ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ " سورة هود : الآية ٢٧ "

ولكنم تتمسكون بهذا الجهل الوخيم ، والادعاء الكاذب الذى سيعاقبكم به الله سبحانه .

لن أقول لأتباعى المؤمنين الذين تعيبونهم وتنتقصون من منزلتهم ، وتحقرون من شأنهم ، لن أقول لهم إن الشر قريب منهم ، وإن الخير بعيد عنهم ، بل قد أتاهم الله بالخير كل الخير حين آمنوا به ، واتبعوا نبيه ، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ، ورافعهم إلى المكانة العليا فى الدنيا ، ولن يضرّهم احتقاركم أو إهمالكم شيئًا مما ادخره الله لهم ، فالله أعلم بإيمانهم ، وأعرف بإخلاصهم ، ومجازيهم على هذا الإيمان وذلك الإخلاص ، وليس لى أو لكم من أمرهم شئ .

لن أقول لهؤلاء الذين اتبعونى ، وأظهروا الإيمان بى ، وصدقوا رسالتى لن يؤتيهم الله خيرًا ، فأكون بذلك قد قضيت بما أسّروا ، ولم أحكم بما أبدته ألسنتهم لى دون علم منى بما يبطنون ، فأقصيتهم عن مجلسى ، وأبعدتهم عن اهتمامى ، إن فعلت ذلك كنت من المعتدين الظالمين .

استخفوا بقول نوح ، وحقروا احتفاءه بمن دخل فى دينه من الضعفاء فأمرهم الله أن يعظموا نبيه ، ويتركوا الاستخفاف برسالته ، وطلب منهم توقيره ، فإن توقير الرسول من توقير المرسل ، فما لكم لا ترجون لله وقارًا ، فإذا لم ترجوا الوقار لله فلن ينتظركم سوى الهلاك المريع والشر المستطير .

ولو رجوتم ثوابه لما أقدمتم على ما أنتم عليه من الاستخفاف برسل الله وطاعة أنبيائه .

أخذ نوح فى تعداد نعم الله على خلقه ، فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، فقد خلق الناس فى تباين عظيم واختلاف كبير ، وكل حال تختلف عن سابقتها ، خلقكم صبيانًا ، ثم شبابًا ، ثم شيوخًا .

خلقكم مختلفين فى أقوالكم وأفعالكم ، وأخلاقكم وصوركم ، خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم سواكم عظامًا ولحمًا ، ثم أنشأكم خلقًا آخر .

فأحوالكم فى تغير دائم واختلاف مستمر ، فمن تراب إلى أن سواكم خلقًا آخر لا يخرج عن أصله وهو التراب ، ونهاية خلقه أن جعلكم فى أحسن تقويم ، وأبهى تركيب .

خلقكم متباينين لا يشبه بعضكم بعضًا ، لا فى الصورة ولا فى السلوك ، لا فى الخير ولا فى الشر ، لا فى الغنى ولا فى الفقر ، تشعرون به فى قلوبكم وتحسون به فى صدوركم ، لا يمكنكم إنكاره أو إغفاله ، ترونه فى خلقه وفى الكائنات جميعًا ، ترونه فى النسمة وفى تفتح الزهرة ، ترونه فى هديل الحمام ونعيق الغراب ، ترونه فى ذرات الرمال ، وأحجار الجبال ، ترونه فى كل ما حولكم من إنسان ونبات وطبيعة . فى السموات وفى الأرض ، من نجوم وكواكب ، من وهاد وجبال ، ومن صحارٍ وأنهار .

كان نوح يدعو قومه للنظر فى الآفاق ، ويحثهم على التأمل فى الكون الرحيب حولهم ، إذا تأملوا ذلك ، ازدادوا يقينًا با لله المعبود الذى لا شريك له ،

لكمال قـدرته وبديع صنعتـه ، وأنـه الجـدير وحـده بالعبـادة دون غـيره ، سواء أكان وثنًا أو صنمًا .

خلق سموات سبع طباقًا متوافقة ، بعضها فوق بعض ، كل سمـاء مطبقـة على أختها ، وتحت السموات سبع أرضين إحداها فوق الأخرى ، وبـين كـل سماء وسماء ، وكل أرض وأرض أصناف خلقها سبحانه ، أودعها فـى الكـون لننبهر بها ، ولا ندرى ما حقيقتها وما كنهها .

وجعل القمر فى السماء الدنيا ، فانعكس نـوره على بقيـة السـموات ، لأنها صافية كالمرآة ، فـالقمر يسـلط نـوره على وجـه الأرض فيحيلهـا نـورًا مضيئًا يبدد غبش الظلمة ، فتهجع إليه نفس المقيم ، وتأنس لـه روح المرتحـل ، يودع الأمن فى قلب الأم ، والطمأنينة فى صدر الطفل .

وجعـلَ الشـمس ضـياء كالمصباح لأهـل الأرض ، يمحو الظـلام ويبدد العتمة ، فيسهل على أهل الأرض التصرف فى معاشهم وأحوالهم .

ومـن دلائـل الخـالق الأعظـم أنـه أنشـأ أبـاكم آدم مـن تـراب الأرض ، وأنبتكم من ترابها كما أنبـت أبـاكم آدم ، فالنطفـة متولـدة مـن الأغـذية ، وهى متولدة من النبات ، والنبات تصدع به الأرض .

أودع فى البشر الكبر بعد الصغر ، والطـول بعـد القصـر ، والقـوة بعـد الضعف ، وعشتم قدر ما عشتم ، ثم يدور الزمن دورته فترتدون إلى حـالتكم السابقة ، فتغادرون الدنيـا الأثـيرة ، وتعـودون إلى جـوف الأرض التـى نشـأتم

منها ، دونكم تراب وفوقكم تراب ، ثم تخرجون منها وتلفظكم إلى سطحها ؛ لأنه وقت الجزاء ، فتحاسبون على أفعالكم .

هذه الأرض التى تقفون فوقها كبساط مستو ، وفراش وثير ، تتقلبون على سطحها ، كما تتقلبون على بسطكم فى بيوتكم .

وجعل لكم فيها طرائق متشعبة ، ممهدة واسعة ، تسلكونها فى حياتكم ومعاشكم ، وتتخذون منها أسبابًا لبقائكم وسعادتكم .

لقد أسبغت عليهم يارب كل نعمك ، وحققتها فى أنفسهم ، وفى آفاق الكون حولهم .

فى أنفسهم حين خلقتهم طورًا بعد طور ، وحين مددتهم بالمال والبنين ، وحين أحطتهم بالبساتين والثمار ، وحين خلقت السموات والأرض التى تدل على عظمتك ، وأشعت بينهم ضياء الشمس نور القمر ، وحين تنتهى آجالهم يموتون ويبعثون ليتلقوا منك الجزاء الأوفى على صنيعهم ، كل ذلك يارب ذكرته لهم ، ورددته على أسماعهم ، وقربته إليهم ، حتى يزدادوا لك يقينًا ، وإليك طاعة ، وبك توحيدًا ، فيؤمنوا لك ولا يشركوا بك .

ويقول نوح فى جزن ملتاع ، وأسى عظيم ، وكرب شديد : لم تنفع دعوتى لهم ، ولم يستجيبوا لى ، ولم يطيعوا أمرك ولم يتقوا غضبك ، دعوتهم بكل الوسائل الظاهرة والدلائل الخفية ، فلم أجد منهم إلا كل قبيح فى الفعل وبذئ فى القول ، حتى إنهم تمادوا فى الأمر فبطشوا بى ، وأغروا سفاءهم وصبيانهم فى التحرش بى والكيد لى .

شكاهم نوح إلى ربه علّه ينقذه من برائنهـم ، ويخففـون وطـأتهم عنـه ، فقد استمروا فى عصيانه و لم يستجيبوا لدعائه ، و لم يتبعوا دينـه الـذى ينـادى به ويدعو إليه .

لم يوحـدوا بـك يـارب وأنـت الـذى لا إلّـه سـواك ، وضمـوا إلى هـذه الكبيرة معصية أخرى ، وهى اتباع سادتهم ، وطاعة رؤسائهم الذيـن يدعـون إلى الإشراك بـك ونبـذ توحيـدك . فكـانت الأمـوال التـى رزقتهـم ، والأولاد الذين منحتهم ، سببًا لخسارتهم وضياعهم فى الدنيا والآخرة .

اتبـع فقراؤهـم أغنيـاءهم ، وضعفـاؤهم أقويـاءهم ، والأراذل أصحـاب السلطة فيهم ، فلم يزدادوا إلا ضلالاً وعتوا وقهرًا .

استعملوا المكر قدر طاقتهم فأغروا السفهاء بى ، أغروهم بالمال ، ومدوا لهـم حبـل الأمـل بـالفلاح والنعمـة ، فـاقتدوا بهـم ، وسـاروا علـى منوالهـم ، وأظهروا لنبيك نوح العداوة والبغضاء ، وعاملوه بالهزء والسخرية .

فرؤساهم على الحق دوما ، ونبيك على الباطل أبدًا، ولولا تقلبهم فى الثروة وانغماسهم فى النعيم ، لعاشوا فى فقر ومهانة كما يعيش أتبـاع نـوح ، أليـس ذلك دليلاً على أنهم على حق وفى صواب؟ هكذا يدعون ، وذلك ما يشيعون .

مكروا بنوح حين منعوا قومهم عن التوحيد والإيمان با لله الأحد القهار ، وحـين طالبوهم بالكفـر وعبـادة الأصنام ، فكان الأمـر بالشــرك مـن أعظـم ما ارتكبوه من الخطايا ، وأقبح ما فعلوا من المخـازى ، أليـس الأمـر بـالتوحيد والدعوة إلى الإرشاد من خير الأمور وأجلها نفعًا ؟

استعملوا الحيلة حين استمرءوا عبادة الأصنام ، وأعلّوا من شأن الأوثان ، فكانت أصنامهم آلهة لأجدادهم وآبائهم ، وهى بالضرورة آلهة لهم ، فلو قبلتم قول نوح وأخذتم به ، لاعترفتم على أنفسكم بأنكم الغاوون السادرون فى طريق الضلال ، المنغمسون فى سبيل الغى ، وقضيتم بالجهل والرعونة على آبائكم ، وألصقتم بهم النقص والطغيان ، وهكذا كانوا يصرفون أقوامهم عن الدين القويم الذى كان نوح يدعو إليه .

بهذه الحيلة القبيحة ، وهذا الكيد الخبيث ، استطاعوا أن يعمقوا الأثر فى نفوس الضعفاء ، ووجدوا لكلماتهم صدى فى مشاعر الجهلاء .

كانوا يقولون لهم : إن آلهتكم خير من آلهة نوح ، فآلهتنا تمنحكم الأموال وترزقكم الأولاد ، وإلّه نوح فقير لا يعطى شيئًا ؛ لأن الفقير يأخذ ولا يكاد يعطى ، فقد سلب من نوح رضا قومه ، وحبهم له ، ونزع منه الطمأنينة والسلام ، وهما ما كان يتمتع بهما بين قومه .

بمثل تلك الحيل الفجة ، والكذب المموّه ، الذى ينطلى على البسطاء والسفهاء، كانوا يتقولون ، وينثرون الكلام فى كل مجلس ، وفى كل اتجاه ، وهكذا صُرف القوم عن طاعة نوح والالتزام بما دعا إليه من توحيد وقالوا فى نزق وطيش : إن عبادة الأوثان دين قديم ، موجود قبل مجئ نوح ، وقد عم أطراف المعمورة إلى زمن نوح على وجه لا يعرف بالتحديد ، وإلا ما بقى هذه المدة المتطاولة ، فديننا هو الحق ، ودين نوح هو الباطل .

ولكن الثابت أن الدين من لدن آدم عليه السلام إلى أول زمن نوح كان على الإسلام ، و لم يكن ثمة كافر إلى أن عبد الناس الأصنام فى زمن نوح ، واعتدوا برجال صالحين فصوروهم ثم عبدوهم وجعلوا منهم آلهة يعبدونها من دون الله ، فجاء نوح بدعوته ليصحح المسيرة ويعيد الإيمان إلى قلوب البشر .

أغلظوا لنوح القول وقالوا : إن لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا ، لتكونن من المرجومين ، نسفوك الرمال ونقذفك الحصا .

توعدوه متجبرين ، فلما سمع منهم ذلك تألم أشد الألم ، وأقام فى نفسه حزن ممض يكوى جسده ويمزق روحه .

قال : رب إن قومى كذبونى ، وأصروا على تكذيبى والاستهانة بشأنى، و لم يسمعوا قولى ، و لم يستجيبوا لدعائى ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين .

لا أدعى أنى أملك مالاً ، وليس لى غرض فى السعى إليه ، لا أخذًا ولا ردًا .

ولا أزعم أنى أعلم الغيب حتى أتوصل به إلى ما أريد لنفسى ولا أتباعى ، ولا أقول إنى ملك أبدو عظيمًا كشأن العظماء ، بل طريقى هو التواضع والخضوع ، ومن كان هذا شأنه لا يستنكف عن مخالطة المساكين ومعاشرة المحتاجين ، ولا يسعى إلى مجالسة الأمراء والسلاطين ، فلا تحقروا الفقير ، ولا تحطوا من شأن المسكين .

عندما طعنوا فى أتباعه بالفقر ، نفى عن نفسه أنه يملك خزائن ا لله حتى يجعلهم أغنياء . وصفوا أشياعه بالنفاق ؛ لأنهم أظهـروا لـه الإيمـان والطاعـة ، فقال: لا أعلم الغيب حتى أعرف مـا يبطنـون ، وإنمـا آخـذ بظواهـر الأمـور ، فلست مكلفًا بسبْر أعماقهم ، والنفاذ إلى بواطنهم .

نسبوا إلى نوح التعاظم ، وأنه يسعى من وراء رسالته إلى تحقيق بواعـث نفسية ، ودواعى شخصية ، فقال : لا أقول إنى ملـك حتى أتصـف بالعظمـة والرفعة ، ولا أسعى إلى شئ مما تدعـونَ ، وإنمـا أنـا رجـل مـن عامـة النـاس ، أرسلنى ربى لمصلحة العباد وخير الأنام .

لم يكفـوا عـن ادعاءاتهـم ، ولم يقصـروا فـى إيقـاع الأذى بنبيّـك ، فافتح بينى وبينهم فتحًا ، ونجنى ومن معى من المؤمنين .

الدعاء

يزعمون أن الله جسم يحل فى مكان ، فقالوا : إن الله نور من أعظم الأنوار ، وأسناها بهاء ، وأكثرها تلألؤا ، والملائكة التى تحف حول عرشه بمثابة الأنوار الصغيرة ، تراها منثورة كما ينثر الدر حول واسطة العقد ، فالله نور عظيم متوهج ، والملائكة حوله خافتة باهتة .

اعتقدوا هذا المذهب ونسجوا حوله ما تراءى لهم من أوهام ، فاتخذوا صنمًا كبيرًا هو أعظم الأصنام على صورة الإلّه الأعظم ، وحوله آلهة تتفاوت فى حجمها وشرفها ، على صورة الملائكة المقربين الذين يحفون بعرش الله ، واشتغلوا بعبادتها على اعتقاد أنهم بعبادة الصنم الأعظم وحوله الأصنام الصغيرة ، إنما يرمزون لعبادة الله وقد حفّت به الملائكة ، فعبادة الأوثان تنبثق من فكرة التجسيم ، فكما جعلوا الإلّه جسمًا وأحلوه مكانًا ، اتخذوا من الحجارة آلهة فجسدوها ، وصنعوا منها أصنامًا وضعوها فى أماكن العبادة ، وأوثانا أقاموها فى دورهم .

أو أنهم زعموا أن الإلّه الأعظم خلق هذه الكواكب السيارة ، وفوض أمر هذا العالم السفلى إليها ، فالبشر عبيد لهذه الكواكب ، والكواكب عبدة للآله الأعظم ، فاتخذوا أصنامًا على أشكالها وصورها ، واشتغلوا بعبادتها ، وغرضهم عبادة هذه الكواكب .

أما أشراف القوم الذين يملأون القلوب مهابة والمجالس أبهة قالوا : لا تتركوا عبادة آلهتكم التى اتخذتم منها صورًا لأصنامكم ، فهى الباقية لكم ، الكفيلة بأرزاقكم وتحقيق رغباتكم .

فكان وَدّ على صورة رجل .

وسُواع على صورة امرأة .

ويَغوث على صورة أسد .

ويَعوق على صورة فرس .

ونَسْر على صورة نسر .

أو أنهم اتخذوا تماثيل على صور أقوام يعتقدون صلاحهم يعظمونهم ويجلونهم ، فعظموا بذلك صور تماثيلهم وأصنامهم ، حتى يشفعوا لهم عند الله فى آخرتهم بعد مماتهم .

أو ربما مات ملك عظيم ، أو رجل ذو مكانة ، فاتخذوا على صورته صنمًا ، يتقربون إليه ، وينظرون تجاهه إذا عنّ لهم أمر ، أو وقعوا فى محنة ، فيطلبون منه العون ، وهكذا سار الأبناء على خطا الآباء ، فاستقبلوا هذه الأصنام بالتبجيل حتى وصل بهم الأمر إلى عبادتها .

أو كانوا يظنون أن الله صورة يجوز عليه الانتقال من مكان إلى آخر ، والحلول فى أى كائن كان ، فلا يستبعدون أن يحل الله فى شخص صنم أو فى جسد إنسان ، فإذا أحسوا من هذا الصنم حالة عجيبة دفعتها إليها أوهامهم ، خطر ببالهم أن الله حلّ فى ذلك الصنم ، فقربوه وعبدوه .

إن الله ليس بجسم ولا صورة ، وليس له مكان ، ولا يحل بشخص أو يتلبس فى صنم ، حتى يتخذ من الشخص أو الصنم آله يعبد من دونه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرًا .

هكذا وسوس إبليس فى نفوس القوم ، وسيطر على حواسهم وقلوبهم ، فالذين من قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها ، وسيروا على نهجهم ، ولا تتخلوا عن فضل آبائكم وأجدادكم ، ومن يتخلى عن آثار الأقدمين ضل .

فكان وَدّ أول صنم معبود ، وسمى ودا لتودّدهم لـه ، وكـان ود لكلـب بدومة الجندل .

وسواع لهذيل بساحل البحر .

ويغوث لمراد بالجرف من سبأ .

ويعوق لهمدان ببلخ .

ونسر لذى كلاع من حمير .

فسمت العرب بعبد ودّ ، وعبد يغوث ، وعبد يعوق وهكذا .

لقد أغرى الرؤساء الأراذل باتباعهم ، وأضلت الأصنام الأتباع بعبادتهم .

كان قوم نوح يناصبونه العداء ، يستفزونه إذا سكت عنهم ، ويحقرونـه إذا اقترب منهم .

كان يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، الذى بيـده الخير والشر ، والثواب والعقاب .

وهم يدعـونه إلى عبـادة الأوثان التى ليـس شئ يضارعـها فـى المنزلـة ، أو يقوم مقامها حاضرًا أو غائبًا .

كـان يريهـم أن السـماء تهطـل عليهـم بالأمطـار ، فتجـرى النعـم بـين أيديهم ، فيعم الخير والرفاهية .

وأن الله يمدهم بالأموال والأولاد والثمار ، ويفيض عليهم برزقه العميم .

وكانوا يقولـون لأقوامهم اتبعـوا رؤساءكـم وأصنـامكم الذيـن يزيـدون فى أموالكم وأولادكم ، وتجنون من ورائهم الخير والمنفعة .

دعاهم نوح بكل سبيل ، وأراد أن يهديهم بكل طريق ، فلم يجد لديهم أثرًا لدعوته ، ولا صدى لرسالته ، لم يتوقع هداية منهم أو اتباعًا لدينه ، فهم فى صمم وعمى ، وهم عنه لاهون ، وعن دينه غافلون .

بل تمادوا فى الغى والضلال ، وآثروا التكذيب والاحتقار ، حتى أمسكوا بخناقه ولعنوه ، وضربوه أمام صبيانهم ، وأغروا به عبيدهم . أهدروا كرامته ، وحقروا دينه ، وحطوا من قدر الله الذى يدعو إليه ويعبده ، ويدعوهم إلى عبادته .

سخروا منه أشد السخرية ، وطالبوه بتنفيذ وعد الله له ، أن ينزل بهم العذاب كما ادعى ، ظنًا منهم أن ما جاء على لسانه هو مجرد تهديد أو وعيد لا ينفذ ولا يقع ، فأمضوا فى طلب الهلاك المزعوم ، إحراجًا لنوح ، فلا يملك هو أو إلاهه الذى يزعم أنه مرسل من جهته ، شيئًا يلحقه بهم من أذى أو هلاك أو عذاب .

وكان نوح شديد الشغف بتلبيتهم لندائه ، وحبه لإيمانهم ، وهو دائم السؤال لربه أن يبقيهم على وجه الأرض ، وأن يطيل فى أعمارهم حتى يدخلوا فى رحاب الإيمان وينعموا بنوره ، ولكن الله أخبره أنه لن يبقى منهم أحدًا ، ولن يدع منهم على ظهر الأرض فردًا ، فهم كفرة مارقون ، فجرة خاسرون ، ولن يؤمن منهم إلا من سبق عليه القول ، ولن يدع منهم إلا من آمن ، وإذن فلن يترك منهم أثرًا ، وسيقطع دابر الكافرين .

حزن نوح حزنًا شديدًا ، واجتاحه الغم والكرب لأقوالهم وأفعالهم ، فلم يعينوه على أداء رسالته ، ولم يناصروه أو يؤيدوه ، بل وقفوا له بالمرصاد ، وكلما همّ بفعل طاردوه حتى أيأسوه ، فسأل نوح ربه أن يهلك هؤلاء القوم الكافرين ، وألا يذر منهم على وجه الأرض أحدًا ، جزاء عنادهم وكفرهم ، وخروجهم عن دين الله وطاعته .

دعـا عليهـم ألا يزيـدهم الله إلا ضـلالاً ، ضــلالاً فى أمــــر دنيــاهم ، لا فى شأن دينهم ، فكيف يدعو إلى الضــلال ، وهـو يطلـب هدايتهـم للديـن الجديد ، وما فيه من عبادة وتوحيد .

مـن أجـل خطاياهم دبر الله إهلاكهـم ، هلاكـًا فـى الدنيـا بـالغرق ، وعذابًا فى الآخرة بسوء المصير .

فقد أدرك نوح مـن معاشـرته لقومـه مـا يقـرب مـن ألـف سـنة ، أدرك طباعهم وعنادهم ، وأنهم لن يدخلوا فى دعوته .

كان الرجل ينطلق إلى نوح وفى يده ابنه الصغير ويقول مشيرًا إلى نوح : احـذر هـذا الرجـل فهو دعيّ أفـاق ، يوصى ابنـه أن يفـر مـن ديـانة نـوح ، فإذا مات الكبير نشأ الصغير على ما عوّده أبوه ، وزينه له من كفر وتجديف ، وترعرع على هذا الوهم الكاذب الذى لا يحيق إلا بأهله .

كان قلب نوح يمتلئ غمًا ، ويفيض حزنًا ، فـلا أمـل فـى هدايـة القـوم ودخولهم دين الله ، لقد توارثوا الكفر والفجر ، وليـس ثمة بصيـص مـن أمـل ينفذ من خصاص نفوسهم فيضيئها بنور الإيمان ، وإنمـا سيظلون فـى كفرهـم وبعدهم عن الحق .

اشتد الأمـر علـى نـوح وأيقـن بعـدم الاسـتجابة فقـال : " رب لا تـذرْ علـى الأرض مـن الكـافرين ديّـارا ، إنـك إن تذرْهـم يُضلّـوا عبـادك ولا يلـدوا إلا فـاجرًا كفّـارًا " .

السفينة

بعد أن مكث نوح فى قومه زمنًا بعيدًا يعانى من قومه الاستكبار والعناد والأذى ، أوحى الله إليه بغرس شجرة ، غرسها وتعهدها ، فضربت بجذورها أعماق الأرض ، وارتفعت جذوعها فى عنان الفضاء ، حتى عظمت وذهبت فى كل اتجاه ، وملأت الأرض فروعًا وأغصانًا تذهب كل مذهب ، وغطت مساحة هائلة تظلل الأرض وتخفف من لفح الشمس .

فلما أوحى الله إليه بصنع السفينة ، أخذ يقطع فروعها ويسوى جذوعها حتى يقيم هيكل سفينة ، كل ذلك فى دأب وصبر حتى يعدها للسير فى الماء ، وكانت السفينة من خشب الصنوبر يطلى ظاهرها وباطنها بالقار ، فأصبحت بصدر يشبه صدر الطائر ، وليس ثمة من سبيل لصون نفسه وحفظ أتباعه إلا بهذه الوسيلة .

هذه السفينة تكون له ولقومه من المؤمنين بمثابة الدار التى يلوذ إليها المرء ، من عناء تعب اليوم وإرهاق العمل ، فهى محل السكن ودار الإقامة بعد هذه السياحة الطويلة .

إذا مر القوم عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وازدادوا تهكمًا عليه وازدراء به : أأنت تعمل سفينة فى البر ، وهل تجرى السفينة على اليبس ، وكيف ؟

تدعى أنك نبى وأنك مرسل من إلـهك ، فإذا بك اليوم صرت نجارًا تعمل بصناعة الأخشاب ودق المسامير .

فى يدك فأس أو إزميل تعالج به صنع شئ لا ندرى كنهه .

لم يسلم من ألسنتهم ولذع كلماتهم ، يشيرون إليه كما لو كان معتوها أو مجنونًا لا يدرى ما يصنع ، وما حداوه ، فاتخذوا من نوح أداة للهوهم وعبثهم .

ولماذا لم يغنك إلـهك الذى تحمل دعوته عن هذا العمل المضنى الشاق ؟

وهذا الصنيع الذى لم نعتده من أحد قبلك ؟

أنت تصنعها فى البر فوق الرمال ، وتقوم بصنعها فى مكان قصى عن الماء الذى تدعى أنها تسير فوقه ، ولا يمكنك أن تنقلها هذه المسافة الطويلة حتى تصل الأنهار العظيمة ، أو البحار المترامية أليس ذلك سفاهة منك وجنونًا ؟

كانوا يسخرون منه بهذه الأقاويل اللاذعة ، يناوشونه ويهزأون به .

كان يرد عليهم سخريتهم بسخرية ألذع وحوار أقسى ، فأنتم أحق بالسخرية وأدعى للجهل ، وأجدر بالعذاب ، لما جبلتم عليه من الكفر ، فأنتم أشد قبحًا وأفظع جهلاً ، أما المؤمنون بدين الله فهم أحق بحسن العاقبة ، وطيب المصير .

أزف الوقت وحانت الساعة وجاء أمر الله الذى لا يتخلف لحظة ولا يتأجل برهة ، وهو متروك لقضائه إن شاء فعله ، وإن أراد لم يفعله ، فلا شئ واقع إلا بإذنه ، ولا أمر يحدث إلا بمشيئته .

أمر الله نوحًا أن يعد العدة ، ويهيئ السفينة إذا فار التنور – وهو الفرن الذى يخبز فيه – ونبع فيه الماء ، وهل الماء يخرج من النيران ويفور منها ؟

كيف ينبثق الماء من النار ؟ أليس فى ذلك معجزة ، إن ذلك لأمر خارق للعادة ، فكيف يجتمع الضدان فى شئ واحد ؟

إن السفينة ترسو ناحية الكوفة ، أو فى مسجد الكوفة أو بالشام أو بموضع يقال له عين الوركة قريب من بعلبك ، أو بالهند ، ليس مهما أين كانت السفينة ، ومكان صنعها ، فذلك لن يغير من أمرها شيئًا . فكل شئ معد للإبحار ونوح يترقب الإذن بالرحلة المجهولة فى عباب الماء ، ولا يدرى كيف يسير بها وإلى أين تتجه ؟ وماذا يخفى لها القدر ، وماذا يكون شأن ركابها .

أصبحت امرأة نوح وهى تخبز ، فإذا التنور يفور وينبع منه الماء ، التنور الذى يتأجج نارًا ملتهبة يفيض بالماء الغزير .

دهشت امرأة نوح واعتراها الذهول ، فأسرعت نحو نوح تخبره بهذه الأعجوبة ، التى لم تشاهد مثلها من قبل . فظهر على وجه نوح الجد ، ويزغ فى قلبه أن قضاء الله قد حان ، وعليه تنفيذ ما يطلبه ربه منه .

يقولون : إن التنور هو مكان صنع الخبز .

أو إنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورًا فإذا فار وجه الأرض ونبع منه الماء ، على نوح أن يتخذ للأمر أهبته .

أو أن التنور هو طلوع الصبح ، فإذا اشتد الأمر وحمى الوطيس ، فانج بنفسك ومن معك إلى السفينة . فإذا فار التنور وبزغ ماؤه ، كان ذلك علامة على حدوث الواقعة التى يجرى بها قضاء الله .

عندما فار التنور أمر الله نوحًا أن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من المخلوقات:

قسم السفينة ثلاثة أقسام :

فى الأسفل وضع الوحوش والسباع والهوام .

وفى الأوسط ألقى الدواب والأنعام .

وفى الأعلى جلس هو وقومه المؤمنون ، وما افتقروا إليه من زاد .

كانت السفينة شامخة قوية ، قوية بجذوع الشجرة التى صنعت منها ، متسعة بالقدر الذى يتحمل نوحًا والمؤمنين من قومه ، وما يحتاجون إليه من زاد ومتاع ، ومن كل أنواع الحيوان والنبات زوجين ، فالمرأة زوج ، والرجل زوج ، ويقال لهما زوجان .

حمل نوح قومه من المؤمنين ، وحمل أهله جميعًا إلا من سبق عليه القول منهم .

حمل نوح عليه السلام ثلاثة من أبنائه وهم سام وحام ويافث ، وكلٌّ معه زوجه ، فكان نوح وأهله جميعًا سبعة أفراد ، أما امرأته واعلة الكافرة ، وابنه كنعان العاصى ، فقد سبق عليهما القول من الله ألا يكونا من أهل الركب .

أما المؤمنون فكانوا شرذمة قليلين ، لا يتجاوزون عدد الثمانين ، فما آمن معه إلا نفر قليل .

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ (سورة هود : الآية ٤٠) .

وعندما أراد الله نجاتهم نزلوا من السفينة وبنوا قرية بالقرب من الموصل سميت باسم الثمانين .

ذكر القرآن الحيوان قبل ذكر الإنسان ؛ لأن الإنسان عاقل ، والعاقل يستطيع أن يدفع عن نفسه أسباب الهلاك ، وأن يذود عن شخصه جراء ما يصيبه من الأذى بالتفكر والتدبر ، بالعقل والحكمة ، بحسن التصرف واتخاذ الحيطة . بخلاف الحيوان فقد ذكره مقدمًا على باقى الخلق لأنه لا يدفع عن نفسه ما يلحقه من أذى بعقله وحكمته ، وإنما يدفع ذلك بطبعه وغريزته التى أودعها الله فيه ، فدفاعه عن نفسه وقتىّ نابع من اللحظة والمفاجأة ، ولا حيلة له غير ذلك ؛ إذلا تفكير يجعله متأهبا للذود عن نفسه فى المستقبل".

تلقى نوح الإذن من ربه بركوب السفينة واعتلاء البحر ، قال لقومه : اركبوا فيها ، بداخلها وليس على السطح منها ، فى جوفها وليس على ظهرها ، كان طول السفينة ثمانين ذراعًا ، وعرضها خمسين ذراعًا ، وارتفاعها ثلاثين ذراعًا ، وبابها على قدر عرضها ، والذراع من اليد إلى المنكب .

السفينة تجرى باسم الله وقدرته ، وترسو باسم الله وحكمته ، إذا أراد أن تسير قال : باسم الله فتسير .

وإذا أراد أن ترسو قال باسم الله فترسو . حتى تتم بذكر الله بركة السير ، وبركة الوصول إلى تمام المقصود .

بدأت السفينة تسير على الماء فى أوائل رجب ، ومضت فى طريقها ستة أشهر ، واستوت على جبل الجودىّ فى أوائل المحرم .

أخبر نوح قومه أن يتمسكوا بإيمانهم وأن يربطوا به على قلوبهم ، وألا يداخلهم شك فى وصولهم إلى بر الأمان ، وأن الله سيحفظهم من كل شر وكيد .

فالله هو المسير للسفينة وهو المرسى لها ، والسفينة ليست سببًا فى الحصول على النجاة ، وليس عليهم إلا أن تتعلق قلوبهم بالله ، وترتبط هممهم بفضل القادر ، فالمعول عليه هو الرحمن الرحيم ، وهو الملاذ والأمان ، ليس الأمر مرتبطًا بالسفينة التى تمخر عباب الماء ، وفضل النجاة راجعًا إليها ، فالسفينة مجرد وعاء يمثلون بداخلها ، وتصل بهم بقدرة الله وفضله إلى حيث يريد الله .

كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة فى مقام الذكر ومقام الفكر ، ليس له الطّول ولا القوة ، وإنما الطّول والقوة من الله وبالله .

جلس مع تفكره يتدبر أمر المشركين الذين عصوه ، و لم يرتادوا معه السفينة ، وآثروا أن يكونوا منفصلين عنه ، وما سوف يحل بهم من الهلاك والإغراق لعصيانهم .

أما المؤمنون الذين معه ، فأمرهم متعلق برضا الله عليهم ، والله راض عن إيمانهم ولن يخذلهم أبدًا ، وإنما سيحميهم من الهلاك والفناء .

فعلى المرء أن يعتمد على الله ، وأن يضرع إليه فى كل شئ ، وأن يتحرك شوقه إلى الله بلسان قلبه ، ونبضة فؤاده ، وخفق مشاعره .

أما إذا طلب معرفة الله بالحجة والبرهان دون الشعور والإحساس ، سيهوى حتمًا بين أمواج الظلمات ، إذ العقل يتوه ، والفكر يتحير .

فإذا قال باسم الله مجريها ومرساها ، وصلت السفينة إلى ساحل النجاة، وتخلصت من أمواج الضلالات ، وانقشعت عنها حلكة الظلمات .

ونوح مهما كان نبيًا مرسلاً ، ومؤيدًا من قبل الله إلا أنه مفتقر إلى عون الله وفضله وإحسانه ، وأن يكون معه رحيمًا ، وبه حفيًا ، وعنه راضيًا ، هذا الشعور لا يتخلص منه إنسان ، ولو كان نبيًا من أقرب المقربين إلى الله .

كانت الريح لينة رخاء ، ولا تؤذن بالهبوب ، والسفينة تسير فى تؤدة وهدوء ، والسماء صافية لا عبوس فيها ، والشمس مشرقة ليست مكفهرة ، والبحر ساج لا تتلاعب به الأمواج ، بساط ساكن لا حركة ولا صخب ، والحيوان داخل السفينة تجرى وتلهو ، تأكل وتطرد حتى كثر روثها فى السفينة ، ونفرت الأنوف من روائحها الكريهة التى صكت كل أنف ، ونسيم البحر لم يفلح فى تلاشيها ، فضاقت بها الصدور ، لتضاعفها يومًا بعد يوم ، حتى كادت النفوس تزهق من جرائها .

سألوا نوحًا أن يجد لهم مخرجًا من هذه الحال ، ويخفف عنهم ما يضيقون به .

يقول المفسرون كلامًا كثيرًا ليدلوا به على كرامة نوح على ربه ، وأنه يعالج ما يعنّ له في السفينة أولاً بأول .

يقولون : أوحى الله لنوح أن يغمز ذنب الفيل ، فغمزه ، فسقط منه خنزير وخنزيرة ، من طبعهما أن يلتهما أكل المخلفات والقاذورات ، فأقبلا في نهم على الروث يبتلعانه ، ويتلذذان بسريانه في بطونهما وأمعائهما .

ويقولون : أخذت الفأرة تقرض حبال السفينة ، مما يودى إلى هلاكها أو إتلافها ، فأوحى الله لنبيه نوح أن يضرب بين عينى الأسد لتخرج من منخره هرتان فابتلعا الفأرة .

وخاف الركب من الأسد الكاسر وطبعه التوحش والتهجم ، فسلط الله عليه الحمى ، فسلموا من فتكه وأذاه .

هذه أشياء حدثت في سفينة نوح ، فهل هي من الكرامات ، أو المعجزات التى أيد الله بها نبيه حتى تسير دعوته إلى ما أراد الله لها أن تسير ، وأن تجرى السفينة إلى حيث يريد لها المولى أن تجرى .

المأساة

دخل نوح ومن معه الفلك ، وأحكم غطاء السفينة على من فيها .

جرت السفينة بريح طيبة فرح بها الركبان ، وفجأة تغير كل شئ وتبدل كل حال . الريح عصفت ، والماء تحركت ، والموج ارتفع كالجبال ، وجاءهم الطوفان من كل مكان ، السماء تمطر من فوقهم ، والماء يفور من تحتهم ، وظنوا أن الهلاك محدق بهم ، أصبحوا كريشة فى مهب الريح ، ينتظرون الموت بين لحظة وأخرى ، والهلاك يطاردهم ولا مفر ، الريح تلعب بالسفينة يمنة ويسرة ، مرتفعة منخفضة ، تضرب أشرعتها وقوائمها فى عنف وضراوة ، وأصبح ركبان السفينة فى ظلام دامس يحيط بهم الموج ، يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وتضافرت السماء والأرض فى إرسال الماء ، فالسماء تصب الماء صبًا على جميع الأرض : أنهارها ويابسها ، تصبه مدرارًا غزيرًا لا يكف ولا ينقطع ، ولا يضعف ولا يفتر ، والأرض تفور من تحتهم فتنشق الأرض ولا يتفجر منها إلا الماء ، يخرج عيونًا متدفقة ، فأصبحت الأرض كلها بحرًا عظيمًا ، وما بين الأرض والسماء كله ماء متلاطم ، والأمواج أحاطت بسفينة نوح من كل جانب ، فكانت تجرى بين الأمواج المتلاطمة ، ولا مفر من هلاك من عصى وكفر ممن لم يركب معه ، ومن ركب معه كان فى حماية الله ، يشمله بالرحمة ، وينقذه من الهلاك .

وفى خضم الهول يتذكر نوح ابنه العاصى كنعان ؛ الذى لم يرتد معه السفينة ، ونأى بنفسه عن أبيه ، يظن أنه بمعزل عن الهلاك والإغراق .

كان كنعان وهو قطعة من أبيه نوح بعيدا عنه ، وهو فى هذا الجو المشحون بالعواصف والأمطار ، الذى يطارد كل من كفر وعصى ، فاعتقد نوح أن ابنه عرضة للتلف والهلاك شأن الكفار ، فهو كافر معاند عصىّ ، كان ابن نوح كافرا ، كما جاء والد النبى إبراهيم عليه السلام كافرًا .

كان فى معزل عن أبيه وأخوته والمؤمنين ، ناداه نوح بقلبه المكلوم ، يريد أن يستجيب له فينقذه من الهلاك .

فهل ظن نوح أن ابنه مؤمن فناداه ؟

أم شفقة الأب عليه تغلبت فدفعته إلى هذا النداء ؟

أم أن مشهد الهول الفاجع ، والغرق الذى لن يسلم معه كافر غلب عليه ، فأراد له أن يتخلى عن عصيانه ويلوذ بفريق المؤمنين ؟

أم أنه كان ابن امرأته ولم يكن من صلبه وليس ابنًا له ؟

كل هذه أمور ممكنة جاشت بصدر الوالد الحانى ، يرى فلذة كبدة تطيش منه ، ويتلاشى أمامه قطعة قطعة فيفور صدره بين جنبيه .

نادى نوح ابنه ، وكرر له النداء ، عساه أن يستجيب له ، ويثوب إلى رشده ، ويقلع عن غيّه ، ويدخل فى الإيمان والطاعة .

قال الابن العاق المعاند لربه ، قال لأبيه : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، ويمنع عنى الغرق والهلاك .

كان متماديًا فى كفره ، مصرًا عليه ، متمسكًا به ، مكذبًا لأبيه فيما أخبر عنه .

رد عليه أبوه خطأه ، وظنه أن الجبل الشاهق سيعصمه من المـاء ، والمـاء لن يصل إلى قمته ، وسينجو حتمًا من الغرق .

لم يراود قلب نوح أن قدرة ا لله تلاحـق البشـر ، وتحيـط بهـم مـن كـل مكان ، وأن القدر مسلط على رقاب العباد ، ولا حيلة للمرء فيمـا أراد ا لله ، فإذا أراد ا لله أن يهلك قرية برمتها تحقق ذلك فى غمضة عين . ولكـن غـرور الإنسان فاق كل تصور ، وتخطى كل توقع .

قال نوح لابنه وقلبه ينفطر جزعًا من عصيان ولـده ، وعنـاده وكفره : " لا عاصـم اليـوم من أمـر ا لله إلا من رحـم " وا لله لـن يرحـم كافـرًا ، بل يهلكه ، ويفنيه بالغرق الذى بدت بوادره تلح فى طلب الكافرين .

"يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين"، كان شقيًّا أضمر فى نفسه كفرًا .

وكانت الجبال شامخة تبدو فى حرز من الأمطار ، فظـن أن فـى اللجـوء إليها ملجئًا وملاذًا ، فقال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء .

أرسـل نـوح النـداء الأخير لابنـه ، والموت يتخطفـه من كل جـانب ، لا جبال تحمى ، ولا ارتفاع يقى إلا من يرحم ا لله .

كثر الماء وارتفع ، وطغى على المكان وأغرق الجبال ، ابتلـع المـوج كـل شئ ، فباد ما على وجه الأرض من العباد ، ودفن كل ما تسنم ذروة الجبال ، والتهـم كل شئ فى بطنه حيوانًا أم نبـاتًا ، فلـم يتبـق مـن الخلائـق إلا نـوح ومن معه من المؤمنين .

واستمر الطوفان على هذا الحال زمنًا طويلاً إلى أن غـاض مـاؤه ، قرابـة ستة أشهر وعشر ليال .

لم يكن ثمة مفر أن يغرق ابنه كنعان مع من غرق من الكافرين ، فانشـق قلب الأب ، فمشاعر الأبوه وحنانها تملك عليه نفسه ، مشـاعر لم يستطع أن يتجاهلها أو يلغيها ، إلا أن ثقته با لله وحكمته وقدرته خفّفت مشاعره الدفينة نحو ابنه ، و لم يبق أمامه سوى التسليم بقضاء ا لله .

عمل الطوفان عمله وأغرق الأرض ، وأهلك الناس والكائنـات جميعًـا ، أغـــرق كنعـان الابـن العـاصى ، وأغـرق معـه الأم واعلـة الكـافـرة ، وأغرق المشركين جميعًا ، فلم يبق منهم أحدًا ، عملاً بدعاء نوح عليه السلام : " رب لا تَذرْ على الأرض من الكافرين دَيّارًا " .

بلعت الأرض ماءها الذى انبثق منها ، تشربته وطوته فى جوفها ، وعاد إلى المكان الـذى نبـع منـه ، وكـأن الأرض لم تتشـقق ، و لم تلفـظ ماءهـا ، أو تفيض به على وجهها ، وكأن لم يبق بداخلها شئ .

والسماء أقلعت عن أمطارها المتهاوية وكفت عن تساقطه ، فالسماء أقلعت والأرض بلعت بكلمة واحدة من الواحد القهار ، كانت هذه الكائنات : السماء والأرض يندلق منهما الماء كأفواه القرب ، كالشلالات فى طغيان وجبروت ، فتعلقت بكلمة من الله ، بأمره ، ونفذته على أكمل وجه ، فليس فى الوجود كله قدرة أعظم من قدرة الله ، ولا بأس ولا سلطان أشد من بأس الله وسلطانه ، الذى تضاءلت أمامه كل قوة وجبروت .

هذه الجمادات كفت عن إرسال الماء ، وسكت هديرها ، وهدأت حركتها ، وصارت وادعة هامدة ، فلا يقف أمام حكم الله ونفاذه أرض أو سماء .

* * *

هل غرق الأطفال بسبب جرم آبائهم من الكفار ؟

هل هلك الطير والوحش مع أنه لا تكليف عليهما البتّة ؟

لا أحد يعترض على فعل من أفعال الله ، كيف وهو " لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون " .

أجل : غرق الأطفال والحيوان ، إذ جرى ذلك مجرى إذنه ، وكما يجرى ذبح الحيوان ، وتكليفه بالأعمال الشاقة العنيفة ، يسخر مخلوقاته بعضها لبعض ، ولا اعتراض من أحد على الذبح أو التكليف .

قالوا : لم يكن فى وقت الطوفان أطفال ، فا لله قد أعقم أرحام النساء ، وجفف أصلاب الرجال قبل الغرق بأربعين عامًا ، فلم يغرق أحد إلا وقد بلغ سن الأربعين .

وفى عقم النساء جميعهن ، وتجفيف أصلاب الرجال جميعًا طوال أربعين عامًا ، آية مبهرة قاهرة إن كان ذلك واقعًا صحيحًا ؛ لأنها جرت على خلاف ما اعتاد الناس عليه ، فى كل الأزمان ، وعلى مر العصور .

* * *

الاستعطاف

أبحرت السفينة إلى اليمن ، ثم اتجهت من تلقاء نفسها وأمر ربها يحدوها الحنين إلى مكة ، فطافت بالبيت سبعًا وقد رفعه الله فلم يغرق ، ثم استقرت على الجودى شمالى العراق ، فى العاشر من المحرم ، وهو يوم عاشوراء .

قال نوح لمن معه : من كان منكم صائمًا فليتم صومه ، ومن كان مفطرًا فليصم .

استقرت السفينة على جبل الجودى دون بقية الجبال ، فهى متعاظمة متشامخة ، بينما بقى الجودى متواضعًا متضائلاً ، فأرسيت السفينة عليه .

الجودى جبل منخفض ، ليس بالشاهق ، ولا المستوى بسطح الأرض ، واستواء السفينة على ظهره ، دليل على انقطاع الماء ، وسقوطه فى باطن الأرض ، فالجبل الواطئ لم يغمره الماء ، وظهرت قمته وجوانبه بعد انحسار الماء عنه .

تضرع نوح إلى ربه متوسلاً ، ناداه مستعطفًا بقلب محطم وفؤاد مكلوم : لقد وعدتنى يا رب ووعدك الحق الذى لم يتخلف قط ، وعدتنى أن أحمل فى السفينة أهلى ، وأن يكونوا فى معيتى ، وإذا صاروا معى أنقذتهم من الهلاك والإغراق ، وابنى إنه من أهلى ، وقد كان من المغرقين لا أعترض على فعلك ، ولا أتشكك فى حكمك ، ولكن هل لى أن أفهم كيف جرت كلمتك على منية نفسى فأهلكته ، وغرق مع المغرقين .

فهل كان ولدى ممن سبق عليه القول بالهلاك ؟

أم أنه أشرك بك وعصاك ؟

أم لأنه لم يستجب لدعوتى كفعل الكفار ؟

أنا قلق ملتاع النفس ، مضطرب الفؤاد ، حائر فى فهم أفعالك ، وفعلك الحق الذى لامراء فيه ، وأنت خير الحاكمين .

أجل : إن ابنك من آل بيتك ، ولكنه ليس من أنصار دينك ، إنه كافر وأنت مؤمن ، هو عصىّ وأنت داعٍ ، وقد دعوته إلى الإيمان فأبى ، وكررت له الدعوة فهزأ وسخر ، ودينه مناقض لدينك ، ولا يستحق الغفران أو النجاة ، ومن ثم فهو ليس من أهلك الذين وعدت بنجاتهم وفوزهم ، فالقرابة الأصيلة ليست بالنسب ، وإنما القرابة بالدين ، وابنك عمل عملاً غير صالح ، أشرك بى ، وإن الشرك لظلم عظيم ، وكذّبك ، وتكذيب النبى معصية كبيرة .

فسؤال نوح فى حقيقة أمره يعد من صغائر الذنوب ، من ترك الأفضل والأكمل ، ومن باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

كان وحى الله لنوح بهذه الكلمات غاية فى اللوم والتأنيب وعاتب نبيه : " لا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين " لا تسألن نجاته ، وأربأ بك أن تكون من الجاهلين بالأفعال والأقوال ، ومسألتك إياى يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك .

- قبلت منك يا رب هذا اللوم والتأنيب ، ورضيت بما حكمت وقضيت ، ولا أعود للسؤال وإن كنت لا أقدر على كتمانه فى صدرى ، فأنا مفتقر إلى عونك وهدايتك ، وأعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وارحمنى برحمتك التى وسعت كل شئ ، وإن لم تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ؛ لأن الذهول عن شكر الله خاصة عند وصول هذه النعمة الجليلة من نجاته وأهله المؤمنين ، والغفلة عن هلاك أعدائه وخصومه الكافرين ، فيه نوع من ترك الفضل والكمال .

تلك الزلة الطفيفة التى صدرت عن نوح عليه السلام تفتقر إلى بيان : فالناس إما كافر يظهر كفره ، أو من مؤمن عرف بإيمانه ، أو منافق يبقى نفاقه خافيًا ، لا يطلع على إيمانه أو كفره سوى الله سبحانه .

وابن نوح كان من هذا الصنف الأخير ، كان من أهل النفاق ، يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، وكان نوح يحمل صنيع ابنه على الإيمان ، فربما انحاز إليه بدافع المحبة المفرطة التى تمليها شفقة الأب فى حق الابن ، فلما دخل نوح السفينة ، وقال ابنه سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، ظنًا منه أن هذا سينجيه من الغرق ويحميه من الهلاك .

قرر نوح أن النجاة لا تكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وهو فى كل ذلك لم يتحقق من كفر ابنه ، وأنه باق على الإيمان ، فطلب من الله خلاصه ونجاته بوسيلة من الوسائل ، بأن يمكنه من دخول السفينة ، أو يحفظه على قمة الجبل .

فا لله أخبره أن ابنه منافق ، وأنه باق علـى كفره ، خـارج عـن الإيمـان وليس على دين أبيه ، وليس من أهلك .

فالقضية إذن : أن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام كانت حيث إنه لم يدرك ببشريته الجوانب التى استقرت فى جوف ابنه ووراها فـى قلبـه ، فلم يستقص أحواله ، ولم يعرف كفره ، ولم يدرك نفاقه ، بل اجتهد فظن ابنه مؤمنًا ، ولم يكن صائبًا فى هذا الاجتهاد ، فما صـدر عـن نـوح لم يكـن مـن كبائر الذنوب ، وإنما هو من باب الخطأ فى الاجتهاد الذى يجوز على الأنبياء .

طمـأن الله نبيـه نوحًا ، وأشعره أنـه قريـب منـه ، حفـى بـه ، فـاهبط بسلام منا ، وانزل من الفلك إلى جبل الجودى الذى استقرت عليـه السـفينة ، اهبط وأنت سالم من المكاره ، وسلامى عليك دليل على تبجيلك وتعظيمك ، فما يكون من العظيم لا بد أن يكون عظيمًا .

فسـلام عليـك ، وبركـات على نسـلك ، بشـره بالسـلامة والبركـة ، فاطمأن قلبه ، وحصل له الأمن من جميع المكاره .

ومن المكاره التى اعترت نفسه أنه عندما هبـط إلى الأرض لم يجـد شـيئًا يمكنه أن ينتفع به ، لا نبات يطعمـه ، ولا حيـوان يذبحـه ، فقـد أودى السيل بكل شئ ، فأصابه الذعر الذى يصيب الإنسان فى مثل هذه الأحوال ، كيـف يعيش قومه من المؤمنين ، وكيف يدفع عنهم مسـغبة الجـوع ، ومـاذا يـأكلون وما يشربون ؟

فلما سمع من ربه هذا النداء .. اهبط بسلام منا " تبدل الخوف أمنًا والقلق سلامًا ، وزال عن كاهله كل ما اقترن به من هلع وخوف ؛ لفقده الماء والطعام ، ولم يجد شيئًا يصلح أن يكون مأكولاً أو مشروبًا ، فلم يأخذ الإذن أن يتصرف فيما معه من دواب وماشية ، والإبقاء عليها ضرورة للتناسل .

وعده الله بالسلامة والبركة ، فوسع عليه من الرزق ، واستقرار النعمة ودوامها ، ونيل الأمل وتحقيقه .

أراد نوح عليه السلام أن يعرف الحال التى آلت إليها البلاد بعد أن سكن الطوفان ، وأقلعت السماء ، وابتلع الماء ، وغيض فى باطن الأرض ، وقضى أمر المشركين فهلكوا ، والمؤمنين فنجوا .

أرسل غرابًا يأتيه بالخبر اليقين ، وهل الأرض ما زالت تنوء تحت الماء فيغطيها ، أم انحسر عنها الماء وأصبحت صالحة للمقام فيها والسعى فى مناكبها ؟

وجد الغراب جيفة فوقع عليها ، وانشغل بأمرها ، ونسى المهمة التى أرسل من أجلها ، وأهمل شأن نوح وانتظاره وقلقه على معرفة الخبر ، واشتد بنوح الغيظ لما فعل الغراب ، فدعا عليه أن يملأ صدره الذعر والفزع ، ومن ثم فهو ينفر من الناس ، ولا يألف الدور ، ويجزع عند أدنى حركة ، ويهرب عند أدق نأمة .

بعث بحمامة ليعرف منها مالم يعرفه من الغراب ، فجاءته بعد فترة تحمل غصن الزيتون فى منقارها ، والطين معلق بأرجلها ، فعلم نـوح أن البـلاد بعـد ما غرقت ، انحسر عنها الماء فصارت طميًا وطينًـا ، وأصبـح المقـام عليهـا مـن الممكنات ، فرضى عن الحمامة ، لأنها أسعفته بالخبر الأكيد ، والحجـة الدامغـة ، فاحتفى بها وطوقها بالخضرة فى جيدها ، ودعا لها بالأنس والأمان ، والألفـة والوئام ، ومن هنا كانت تألف البيوت ، وتعاشر الأحياء .

* * *

ذرية نوح

كان أمل نوح عليه السلام أن تبقى ذريته من بعده ، وتدوم على غير انقطاع ، يحفظها الله على مر الأزمان باقية في الأمم ، متواصلة جيلاً بعد جيل ، فيبقى اسمه محمولاً بين الأبناء والأحفاد ومن يأتى بعدهم .

حقق الله أمله ، ومات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ، فالبشر كلهم من نسله ، تولدوا منه ومن ذريته ، هذه هى بركة الله شملت نوحًا نبيه ورسوله ، شملته فى ذريته وامتدادها من بعده على مر القرون والأجيال .

فتزايدت ذريته وثبتت واستقرت ، وملأت الأرض نسلاً وجماعات وأممًا ؛ إذ لم يكن فى ذلك الوقت فى أركان الأرض أحد من البشر ، سوى قوم نوح الذين ركبوا معه السفينة ، فنشأ الناس من أصلابهم ، ثم تفرعوا وانقسموا ، فكان منهم المؤمن والكافر فعمت السلامة كل مؤمن إلى يوم القيامة ، وأحاط العذاب بكل كافر إلى يوم الحشر والنشور ، وإن كان الله سيعطيهم نصيبًا من متع الدنيا فى الحياة ، ثم يعقبه عذاب مريع فى جحيم الآخرة .

فسلام عليك يا نوح فى الأولين وفى الآخرين ، وبركات على نسلك ومن نشأ منهم من الأمم ، بركات فى صورة خيرات نامية فى نسلك ، وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق ، وصنوف العيش ، وهذا سيجرى فى أمتك إلى يوم الدين .

فى أفعاله ، راسخًا فى معروفه وإحسانه ، فارقد يا نوح فى سلام بعد طول معاناة ، واهجع فى طمأنينة بعد صبرك صبر المتقين العابدين .

فسلام على دأبك ، وإصرارك فى دعوتك ، ومواجهتك لقومك .

وسلام عليك يا بانى السفينة ، ويا ناصح المؤمنين بولوجها .

سلام على طويتك السليمة ، ودعوتك النبيلة .

وسلام على دعوتك الماحقة للظالمين الكافرين .

سلام على تحديك الصريح لقوى البغى والطواغيت .

وسلام على الوالد الحانى الوادع الذى تحطم قلبه من جراء فعل ولده الجاحد العاق .

وسلام على نوح الذى أنقذ البشرية والحيوانية من الطوفان .

سلام على سماحتك ، وثقتك بالحق الذى جئت به ، ودعوت إليه .

وسلام على نوح فى الأولين ، وسلام على نوح فى الآخرين .

* * *

غير أن بعض من يتشعب منهم ليس على دينك من الإسلام ، هؤلاء سنمتعهم قليلاً وهم الكفار وأهل الشقاوة ، ثم يمسهم منا عذاب أليم في الآخرة وبئس مصيرهم في الجحيم .

﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ (١) وحدهم دون غيرهم ، فالله أهلك الكفرة بدعاء نوح عليه السلام ، ولم يُبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين قُبضوا كلهم ، وفارقوا الحياة إلى نعيم ربهم ، ماتوا جميعًا ولم يبق منهم إلا أولاده الثلاثة ، فالناس كلهم من نسل نوح وأولاده .

فسام : أبو العرب ، وفارس ، والروم ، واليهود ، والنصارى .

وحام : أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند ، والنوب ، والزنج ، والحبشة ، والقبط ، والبربر ، وغيرهم .

ويافث : أبو الصقالبة ، والترك ، والخزر ، ويأجوج ومأجوج وغيرهم .

فذريه نوح هي الباقية ، وهي الدائمة دون ذرية أخرى من الكافرين ، فالله أغرقهم ولم يبق لهم نسلاً .

أثنينا على نوح ثناء عطرًا ، والبشرية تدعو له وتترحم عليه ، فقد تركنا له ذكرًا حسنًا إلى يوم الدين ، وأودعنا في قلوب البشر أن يذكروه بالخير ، وأن يكون السلام عليه من لدنًا ، ومن الخلق أجمعين : ملائكة وإنسًا وجنًا ، وذلك مكرمة لنوح واستجابة لدعائه ، فقد كان محسنًا في أقواله ، كريمًا

---

(١) الصافات «٧٧» .

بــرد النيران
قصة الرسول إبراهيم

" قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم "
سورة الأنبياء آيه ٦٩ .

الإمام[١]

إبراهيم عليه السلام : خليل الله ، حبيبه وصفيّه ، بن آزر بن ناحور ، ويكنى أبا الضيفان .

وينتهى نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام ، ونوح هو الجد التاسع لإبراهيم ، يذكر القرآن أن اسم أبيه آزر ، وتذكر السنة المشرفة فيما يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

يَلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة .... رواه البخارى والإمام أحمد [٢] .

واسم أمة " أميلة " بنت كريتا بن كرثى ، وهو الابن الأكبر لأخويه ناحور وهاران ، والد لوط عليه السلام .

ولد إبراهَيم فى عهد النُمرود بن كنعان ملك بابل ، ولد ببابل عند شاطئ نهر الفرات ، وكان أهل بابل ينعمون باللذة ، ويستروحون ظلال النعمة . غير أنهم يعبدون الحجارة ، ويتخذون من الأوثان أصناما ينحتونها بأناملهم ، ومستعينين بأدواتهم .

كان النمرود ملكا جبارًا شديد البطش ، قوى الشكيمة ، حاد الطبع ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، نصب لنفسه إلـها من صخر وأمر قومه بتعظيمه وعبادته .

---

(١) ﴿ قال إنى جاعلك للناس إمامًا ﴾ " سورة البقرة : الآية ١٢٤ " .

(٢) البخارى ١٦٩/٤ ، المستدرك ٢٣٨/٢ ، وشرح السنة للبغوى ١٥٣/٣ .

وكان آزر والد إبراهيم يعمل بالنجارة ، يقيم التماثيل ويشكلها ويبيعها للناس ، يحتفون بهـا ويحتضنوهـا ويعظمونهـا ، ويقدسـونها عبـادة وتبجيـلا . يكلف آزر ابنه إبراهيم ببيعها ، وإبراهيم غير مقتنع بهـذا العمـل ولا راضٍ عنـه ؛ بل ينفر منه ، ويتأبى عليه فى قرارة نفسه ، ولكنه يعرضها علـى النـاس طاعـة لأبيه ، وإذعانا لأمره .

ولكن إبراهيم فى طيّة نفسه يسخر منها ، ويهزأ بمن يقدم على شرائها ، ينادى إبراهيم على التماثيل والأصنام بمـا يصـرف النـاس عـن الإقبـال عليهـا ، يرفع عقيرته بنداء صريح يؤمئ بهزئه منها ، وتندّره عليها ، واستخفافه بها :

من يشـترى صنمًا يضـره ولا ينفعـه ؟ ويجعلهـا فـى المـاء منكوسـة ، ويقول لها إشربى ، علامة على النيل منها والهزء بها ، فيرفض الناس شـراءها ، ويصل بذلك إلى مراده ومرماه .

لبى أمر والده بالنداء عليها وبيعها ، ولم يطاوعه قلبه أن يعمل على نشر التمـاثيل بين النـاس ، فهى حجـارة لا تنفـع ، وأصنام لا تشـفع ، لا تسـمع ، ولا تعى ، ولا تجيب ، فـأى فـائدة فـى اقتنـاء النـاس لهـا ؟ وعلـى أى أسـاس يولعون بها ، ويقتنونها ، ويعظمونها ، ويعبدونها ، فلا هى تدفع عنهم شرا ، ولا تجلب لهـم خـيرا ، لا تقـوى مـن أزرهـم ، ولا تضعـف مـن شـكيمتهم ، وجودها بينهم وعدم وجودها يستويان ، بل إن ضررها أكثر من نفعها ؛ فهى تصرفهم عن عبادة الله الذى خلقهم وسوّاهم ، وتميل بهم نحو الضـلال الـذى ينحرف بهم إلى طريق المهالك .

اشتهر النمرود الحاكم بظلمه وقسوته ، وعنفه وسطوته ، فهو لا يميل إلى حق ، ولا ينأى عن باطل ، رأى النمرود فى منامه كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس ، ومحا نور القمر ، فلم يتبق من شعاعهما شئ ، حزن لذلك حزنًا طاغيا ، واغتم اغتمامًا شديدًا ، واعتبر ذلك رمزا على ذهاب ملكه ، فأمر بذبح كل غلام يولد فى هذا العام ، وحذر أن يقرب الرجال نساءهم ، فلا يبيتون في أحضانهم ، ولا يستدفئون بأجسادهم ، حتى يمنع حمل النساء ، وولادة الأطفال ، وبذلك لا يذهب ضوؤه ، ولا يمحى نوره ، ويظل الحاكم الوحيد الذى لا ينازعه أحد فى ملكه .

ولكن إرادة الله شاءت ، ومشيئة الله لا ترد ولا تبدل . شاءت إرادة الله أن يعود آزر من سفر ، عاد وهو فى شوق إلى حضن امرأته ، عاد بعد غيبة طويلة ، وحرمان شديد ، يريد أن يبل صدى ظمئه ، فارتمى فى حضن زوجه الدافئ ، وكانت ثمرة ذلك اللقاء أن ظهرت بوادر الحمل على امرأته ، أراد أن يخفى عن الناس حتى لا يصل الأمر إلى النُمرود فيأمر بقتله ، فانطلق بامرأته إلى مكان قصى يقال له وركاء بين الكوفة والبصرة . أرض قاحلة ، صحراء ممتدة لا يحدها النظر ، ليس بها شئ يقيم به أود امرأته ، فوضع عندها ما يُصلح من شأنها ، وسهر على راحتها ، وإدخال الطمأنينة على نفسها .

ظل آزر يتعهد زوجه بالعناية والرعاية ، حتى وضعت له ولدًا صبوحاً ذكرًا أسماه إبراهيم ، فتعهده الله ، وحفظه حتى بلغ سن الرشد ، وأصبح غلامًا يافعًا ، يتأمل كل ما يدور حوله ويفكر فيه .

ويحكى أن النمرود جبار ذلك الزمان ، رأى منجموه أن مولودًا سيولد ، ويكون خراب ملكه على يديه ، فجعل يتعقب الحبالى ، ويوكل بهن حراسًا ، فمن وضعت أنثى تركها ، ومن أنجبت ذكرا حمل إلى الملك فيذبحه .

حملت أم إبراهيم وكانت شابة عفية ، فسترت حملها ، ولما دنت ولادتها خرجت إلى غار فى الصحراء فولدت فيه ، وكانت تتفقده ، فتجده يمص أصابعه ، فيخرج منها لبن وعسل .

رأى الفتى إبراهيم حوله أشكالاً من السلوك ، وألوانا من العبادة لا تتفق والفطرة السليمة ، ولا التفكير المألوف ، رأى قومه يعبدون الكواكب من زهرة[1] ومشترى ويقدسون التماثيل ، ويمجدون الملوك ، رأى فى ذلك ما يجافى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، رأى شيئًا لا يقبله العقل الخالص الذى خص الله به الإنسان ، وميزه عن غيره من الكائنات ، فحنق أشد الحنق على هذه التماثيل ، وتلك الأصنام التى خلقها الله كغيرها من المخلوقات ، فيشاركون بها عبادة الرحمن ، الله وحده الذى يستحق العبادة ، وليست الكواكب أو المخلوقات ، أو الأصنام ، فعقائد القوم فاسدة هابطة ، وعليهم أن يصحلوا من شأنها ، فهم منغمسون فى وثنية مظلمة ليس فيها بصيص من نور ، ولا أمل يوصلهم إلى الحق المبين ، أو يهديهم إلى الطريق المستقيم .

---

(١) الزهرة : ألمع جرم سماوى بعد الشمس والقمر ، وأكثر الكواكب اقترابا من الأرض ، ولا يبتعد عن الشمس كثيرا .

والمشترى : أكبر الكواكب ، مفلطح عند القطبين ، وفى سطحه مناطق لامعة وسحب متجمعة ، ولا يفوق المشترى فى اللمعان سوى الزهرة و أحيانا المريخ .

دعاهم إلى عبادة الله بأسلوب لين رقيق ، وذكر لهم الأدلة على ما هم فيه من فساد وضلال ، بسبب حبهم وتقديسهم لمعبوداتهم ، التى لا تنفع ولا تضر ، ولا تغنى ولا تفقر ، ولا تشفى من مرض ولا تطعم من جوع ، لم يعطوه آذنًا صاغية ، بل قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا ، فلم يستجيبوا لدعوته ، وتشبثوا بما يعبدون كبرا وعنادا .

اختبر الله سبحانه نبيه إبراهيم - ومعناها الأب الرحيم - بكلمات تنبثق منها عشر خصال : خمس فى الرأس وهى المضمضة ، والاستنشاق ، وفرق الرأس ، وقص الشارب ، والسواك .

وخمس فى البدن وهى : الختان ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، والاستنجاء ، مع الاستبراء من البول بالماء ، كلمات لها شأنها فى نظافة البدن ، وطهارة الجسد ، فإذا تطهر الجسد ، برئت النفس من الفساد ، ومالت نحو الخير والاطمئنان .

أوحى الله إلى إبراهيم أن يطهر جسده بهذه الخصال العشر فلما فرغ من طهارة جسده ، نظر إليه ماذا يصنع بعد ذلك ؟

فاختتن وهو ابن ثمانين سنة ببلدة تسمى قدوم ، فأوحى الله إليه إنى جاعلك للناس إماما يأتمون بك فى هذه الخصال ، ويقتدى بك الصالحون ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن ﴾[١] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤

وإنما سمى الله هذه الخصال كلمات ؛ لأنها اقترنت بها أوامر ، والأوامر لا تخرج عن كونها كلمات .

بهذه الكلمات جعل الله إبراهيم إمامًا للناس يقتدون به فى هذه الخصال العشرة ، فإبراهيم عليه السلام نبىّ فى عصره ، ومن كان نبيًا كان الاقتداء به من اللوازم التى يؤيد الله بها نبيه .

فالله اصطفاه لرسالته ، فطمع أن يَمُن عليه باصطفاء بعض ذريته ، وجعلهم أئمة يقتدى الناس بهم .

ولكن أولاد النبى إبراهيم وأحفاده ليسوا سواء فى العقيدة والملّة ، فمنهم المسلم والكافر ، والبر والفاجر ، والصالح والطالح ، ولن تصل الإمامة لمن كان ظالماً من نسله ، و إنما ينال هذه المنة من كان قلبه بعيداً عن الظلم ، بريئًا من الفساد ، فلن ينال عهد الله من كان فى قلبه ذرة من ظلم أو حقد أو حسد .

وجعلنا لإبراهيم الكعبة مكانًا يلوذ إليه الناس ، ويلجأ إليه الخائف ، فإذا ثاب إلى الكعبة حاج أو معتمر تبدد خوفه ، واطمأن قلبه ، وشعر بأمان وسكينة ، وراحة نفسية كبيرة ، وإذا دخل البيت الحرام لم يخش على نفسه الهلاك أو الغدر .

واُتخذ من مقام إبراهيم – وهو الحجر الذى فيه أثر قدميه – موضعًا للصلاة .

وعمل إبراهيم وابنه إسماعيل على طهارة البيت الحرام من الدنس ، والنجاسة ، والأوثان ، جعل البيت طاهرًا لكل من يروده ، أو يطوف حوله ، أو يقيم عنده ، أو يصلى فيه .

وإبراهيم يدعو ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنا ، يأمن سكانه من المخاوف والقحط ، والكوارث والأمراض التى لا يرجى منها البرء ، وأن يرزق أهل البيت من الثمار التى لا تنقطع ، والمطعم الذى لا يزول .

إبراهيم يرفع أساس البيت ، ويعلو بالقواعد التى ثبتت واستقرت منذ زمن غابر ، وإسماعيل يناول أباه الحجارة ، وأبوه يضعها على القواعد فترتفع ، وترتفع حتى صارت بناء متكاملاً ، فأساس الكعبة موجود فى الأرض منذ القدم ، من قبل أن يولد إبراهيم عليه السلام ، فآدم أمر ببنائه ثم اندثر ودرس ، أو هبط من الجنة فكان ياقوته بيضاء دحيت الأرض من تحته ، ثم دلت الملائكة عليه إبراهيم ، فرفع قواعده .

﴿ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبلْ منا إنك أنت السميعُ العليم ﴾(١) .

كان لإبراهيم وفرة من البنين : أبرزهم إسماعيل وإسحاق وذكر السهيلى فى كتابه التعريف والأعلام ، أن إبراهيم أنجب أحد عشر ولدًا من ثلاث زيجات : هاجر وسارة وقنطورا ، إلا أن الذى كان يعاونه فى بناء الكعبة ، ورفع قواعدها ، هو إسماعيل وحده ، وكان يدعو مع أبيه وهما يرفعان القواعد ، أن يتقبل الله دعاءهما ، فرغم ما بذلا من جهد ، وما بلغا من نصب ، إلا أنهما كانا يشعران بالعجز والانكسار ، وأن ما قاما به أقل مما ينبغى أن يبذل .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧

وأنت المستجيب وحدك لتضرعنا . كانا يجأران بالدعاء : ربنا واجعلنا مخلصين لك ، واجعل ذريتنا تقوم بعبادتك ، وتعمل على طاعتك ، اللهم بصرنا بمواضع نسكنا ، ومواقيت حجنا ، وأماكن الوقوف فيها ، وموضع الطواف منها، والصفا والمروة ، وموضع رمى الجمار ، اللهم تب علينا مما فرط منا على غير قصد ، وتجاوز عن سيآتنا ، فأنت التواب لمن تاب ، الرحيم لمن أذنب ، طلبًا التوبة مع أنهم أنبياء معصومون ، طلبًا للدوام ، والتثبيت على الطاعات .

قالا ذلك الدعاء الحار رجاء أن يستجيب الله لهما ، وذلك هضمًا لأنفسهما ، وإرشادًا لذريتهما ، وتعليمًا لمن يأتى بعدهما مقتديا بهما ، سائرًا فى طريقهما ، وعلى نهجهما .

واستمر إبراهيم وولده إسماعيل فى دعائهما ، أن يبعث الله فى ذريتهما رسولا منهم ، يكمل الرسالة ، وينشر الدعوة ، فكان ذلك إيذانًا بأن يرسل نبيه محمدًا ، يتلو على قومه ما ينزل عليه من دلائل التوحيد ، وشرائع النبوة ، يعلم الناس القرآن ، والأحكام الشرعية ، ويطهرهم من دنس الشرك ، وأسْر المعاصى ، فأنت يارب : العزيز الغالب الذى لا يقهر ، القوى الذى لا يغلب ، الحكيم الذى لا يفعل شيئا إلا عن حكمة .

لا يترك دين إبراهيم أو يعرض عن شرعه إلا من أهان نفسه ، وطبع على الكفر والجحود ، فصار محتقرًا بين أهل الصلاح منبوذًا عند الله .

اختار الله إبراهيم واصطفاه من بين الناس قاطبة ، وأعطاه الحكمة والنبوة فى الدنيا ، وجعله من المشهود لهم بالخير والصلاح فى الآخرة .

اختاره ربه أن يخلص فى دينه ، ويستقيم على محجة الإسلام ، ولا يعبد إلا الواحد القهار .

نظر إلى الكون الفسيح فرأى فيه الكواكب السيارة ، والشمس المضيئة ، والقمر المنير ، ولم ير فيها سوى أنها مخلوقات خلقها الله لتعيش فيها وبها ، ولم تخلق لتعبد من دون الله ، أو تسأل لقضاء الحاجات ، فالالتجاء إليها رذيلة ينبغى أن يصون المرء نفسه عن التقرب إليها أو التمسك بها .

* * *

آزر

شب إبراهيم عليه السلام عن الطوق وأصبح فتى يافعًا يدرك ما حوله ، فوجد أباه آزر أو تارَح كما ذكر فى كثير من كتب التفسير ، وآزر معناه المخطئ المعوجّ ، قال لأبيه المخطئ الذى يظهر الحفاوة والخضوع أمام أحجار لا تشفع ولا تنفع ، راكدة هامدة ، إذا وقفت عليها ذبابة لا تستطيع أن تدفعها عنها . تعجب إبراهيم من مسلك أبيه آزر فى عبادته لهذه الأصنام وكان آزر نجارا محسنا ، ومهندسا بارعا ، ونمرود الملك يتعلق بالهندسة والنجوم ، ولذا كان آزر صاحب حظوة لديه . كانت الأصنام تُقام بأمر النمرود وإذنه ، ويطبع هو فى الصنم بختم معلوم عنده ، وحينئذ يعبد الصنم فكيف لأبيه الرجل الفاره الطول ، القوى البنيان ، العريض المنكبين ، الجسور القلب ، الصبوح الوجه ، المكتمل القد ، اللامع الفكر ، ينقاد وراء هذه الرغبة الطائشة ويعبد أصنامًا لا قيمة لها . أشفق على أبيه وتلطف فى دعوته يا أبتى : لم تعبد أصنامًا لا تسمع ثناءك أوتضرعك ، ولا تعى خضوعك أو خشوعك ، ولا تقدر على نفعك أو ضرك ، لا تستطيع أن تسلبك شيئًا فى دنياك ، أو تمنحك نقيرا فى أخراك ، كيف تعبدها وهى لا تستحق العبادة ؟! تلطف إبراهيم بأبيه ، وترفق به ، وهو يدعوه إلى نبذ هذه الحجارة ، وخاطبه بأحسن وجه وأحلى لسان ، فهو لا ينسى أن آزر أباه ، وحق الأب على الابن واجب مقدس يضعه أمام باصرته ، لا يغفله ولا يتجاوز عنه ، لم يقل لأبيه مثلا : أنت جاهل بهذه الأمور ، وأنا أعلم بها منك ، أنت تخوض فى الأوهام ، وأنا أقدر منك على تصحيح ما تردّيت فيه ، وبيان خطئك

وتجديفك ، لم يقل لأبيه شيئًا من هذا أو ذاك ، فاحترام الأب تدعو إليه الفطرة السليمة ، والتربية الصالحة . قال إبراهيم لأبيه آزر فى أدب جمّ : لقد جاءنى بطريق الوحى ما لم يأتك ، فلا تستنكف منى ، وخذ بما أعلم ، وما أعلمه ليس من اجتهادى ؛ بل هو بوحى من ربى الذى يستحق العبادة ، فهو خالق الكون والناس والكائنات جميعا ، وهو الأجدر بالعبادة ، وليس هذه الأصنام التى لا تعى ولا تتكلم . ولو اتبعت ما أقول لهديتك إلى صراط الله المستقيم ، ودينه الحق الذى يمنع التعظيم والتقديس لمثل هذه الأصنام والنجوم ، وأنجّيك من الوقوع فى ضلال كبير يسلمك إلى عذاب شديد .

يا أبت - كرر هذا النداء زيادة فى الاستعطاف ، والرغبة الأكيدة فى إصلاح حال أبيه - لاتعبد الشيطان ، فعبادتك للأصنام عبادة للشيطان ؛ لأنه يزينها لك ، ويغريك بها ، وأنت تعلم أن الشيطان كان عاصيًا لربه ، متآمرًا على دينه ، والعصيان يورث النقم ، ويزيل النعم ، ويملأ القلب سوادًا ، والنفس اضطرابًا .

ولو استرسلت فى عبادة هذه الأصنام سيصيبك عذاب من الرحمن ، وهو الرحيم لعباده ، يرجو لهم الخير والفلاح فى دنياهم وآخرتهم . ولكن اتباعك لهوى النفس ، وانقيادك لنزغات الشيطان ، سيخرجك من رحمة ربك ؛ لأنك ترتكب فعلا كريهًا يبغضه الله ، وعندئذ تصبح قرينا للشيطان الملعون أبدا .

وجه إبراهيم هذه النصائح القلبية خوفا على أبيه الذى انساق وراء إغراء الشيطان ، واعتصر فؤاده حزنًا على أبيه لعبادته الأصنام ، فهو بعيد عن عبادة الرحمن ، ومن يكن بعيدًا عن رضا الله لا ينال إلا سخطه وغضبه ، ويتردى فى نار تشوى الوجوه ، وتذيب الجلود .

نظر الأب لابنه فى صلف وتكبر ، وشعر أن كبرياءه قد جرح ، وأنه أهين ، فهل من حق الابن أن ينصح أباه ؟ وكيف يكون الأمر كذلك إلا إذا انقلبت الأوضاع ، وارتفع شأن الصغير على الكبير ، وأطاع الشيخَ الفانى النبْتُ الصغير .

لم يجر فى ظن الأب أن الابن وإن كان صغيرًا إلا أنه أوحى إليه بهذه النصائح ، فهى نصائح ربانية وتعاليم إلٓهيّة ، عليه أنه يتقبلها ، سواء أكان الداعى إليها شابًا أو شيخًا ، كبيرًا أو صغيرًا ، وما دام أبوه آزر يتصف بالعناد وسوء التقدير ، ويصمم على السير فى طريق الغواية وعبادة الأصنام ، ويغلق أذنيه ووجدانه عن النصائح التى وجهها إليه إبراهيم ، لم يرغب فيها و لم يأخذ بها ، واستكبر من ابنه أن ينفرد عن قومه ، ويترك عبادة الأصنام ، وعبادة الآلهة .

استنكر آزر من ابنه إبراهيم أن يسلك هذا السلوك مع والده ، وهدده : ﴿ أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيمُ لئن لم تنته لأرجمنّك واهجُرنى مليّا ﴾(١) ويصحب استنكاره شئ من التعجب والدهشة ، وكأن الرغبة عن عبادة الأصنام لا يصح أن تصدر من ابنه فضلا عن ترغيب قومه عنها ، خاصة أباه الذى ينبغى أن يظهر له كل التقدير والاحترام ، وأقسم له لئن لم تنته لأرجمنك بالحجارة ، وهى أقسى ألوان التعذيب والمهانة التى تهدر كرامة الإنسان ، وتلحقه بحيوان يعامل بلا شفقة ، سأرجمنك لحجارة حتى تلفظ الأنفاس وتفارقك الروح . فابتعد عنى ، واسلم من غضبى ، واتركنى وشأنى .

---

(١) سورة مريم : الآية ٤٦

يئس إبراهيم من دعوة أبيه إلى نبذ عبادة الأوثان ، فكيف يمكنه أن يعدل من فكر أباه ، أو يغير من تقليده الذى درج عليه ، ووجد أباه وأسلافه يعبدونها ويجلّون من قدرها ؟ كيف يمكنه أن يجعل قلب أبيه يخفق بحب الله ، وينفر من هذه الحجارة التى يكبّ على عبادتها ؟ وكيف يجعله قادرًا على أن ينسى هذا الشئ الذى لا يقدر على شئ ، ويكنّ له الإ خلاص ، ويأخذه بالترحيب والإجلال ؟ إنه بدعوته إلى عبادة الله لن يصيب أباه بمكروه ، ولا يشافهه بما يؤذيه ؛ بل يريد خلاصه من حبه للوثنية ، وبعده عن التمسح بأعتاب هذه الحجارة ، يبغى من الله أن يوفق أباه للتوبة ، ويهديه للإيمان ، وأنه يرجو من الله سبحانه أن يستجيب لدعائه ، ويغفر لأبيه ، فالله حفىّ بنبيه إبراهيم ، اصطفاه من بين الخلق قاطبة ليبث الطمأنينة فى قلوب الناس ، ويقوّم من عقيدتهم الزائغة ، وهو لا يفعل إلا ما يؤمر به .

لم يجد من أبيه أذنًا صاغية ولا قلبًا متفتحًا ، ولا عقلاً مفكرًا ؛ بل وجد أذنًا صماء وقلبًا أغلف ، وما وجده من أبيه رآه فى قومه : أذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ، ولم يبق أمام إبراهيم بعد هذه المحاولات المضنية إلا أن يهجر أباه وقومه ، ويخلّى بينهم وبين ما يعبدون من حجر وطين وشجر ، فهو يدعو ربه الواحد دون شريك آخر مهما كان ، فالصنم فى النهاية مخلوق من مادة ، خلق بأصابع الإنسان ، فالتماثيل المعبودة من صنع أنامل الإنسان ، قدّره الله على صنعها ؛ وإن كانوا يعبدون الكواكب أو النجوم ، فهى من صنع الله الواحد القهار وخلْقه ، وكل مصنوع ومخلوق زائل لا محالة ، والله المعبود ينبغى أن يكون قائمًا مستقرًا لا يبليه الزمان .

سلم قلب إبراهيم لعبادة ربه ، وأقام البرهان على فساد طريقة أهل الشرك والطغيان ، وذابت نفسه حسرات على عناد أبيه ، واتخاذه الأصنام آلهة تعبد ، فقد ضل أبوه عن الحق ، وشط عن الصواب ، وابتعد عن طريق الهدى والرشاد .

رسخ فى قلب إبراهيم ربوبية الله تعالى ، وسلطانه القاهر ، وقدرته النافذة فى كل شئ ، وعلى كل شئ ، للسماء و الأرض وكل ما فيهما ، من كائنات حية أو جامدة ﴿ وكذلك نُرى إبراهيم ملكوتَ السموات والأرض ﴾(١) . أخذت تلح على رأس إبراهيم فكرة الاعتماد على المشاهدة ، والرؤية الواضحة التى لا لبس فيها ، التى ليست فيها قابلية الاحتمالات . يشاهد الطبيعة حوله ويرى تقلبها من حال إلى حال ، فالنهار يعم الكون بضوئه ، وأشعة الشمس بقرصها الملتهب ، تظهر ما كان مختفيًا وراء أستار الكون ، فإذا بالنور ينقلب ظلامًا ، وإذا بالنهار يصير ليلا يستر كل ما حوله ، ويخفيه عن الأبصار ، من وقت غروب الشمس حتى ظهور أول خيط لها قرب الفجر ، وقوم إبراهيم يعبدون الكواكب والنجوم ، كما يعبدون الأحجار والأشجار ، فعندما يظهر نجم ثم يختفى ، يساور قلبه الشك فى أن هذا النجم يستحق أن يعبد ؛ فالنجم الذى يغرب عن الوجود ويستر عن الأنظار ، ويحجب عن الرؤية ، يستحيل أن يكون إلـها ، فالشأن فى الإلـه أن يكون موجودًا لا يختفى ، فتلمس وجوده فى كل شئ : فى المكان والزمان والكائنات والأحياء ، أن يكون موجودا لا ينعدم ، مؤثرًا لا يخفى على أحد . تمثل إبراهيم بهذه الأمور لأنه وقومه كانوا أصحاب علم فى النجوم ونظر فى الأفلاك ﴿ فنظر نظرة فى

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٥

النجوم ﴾(١) فوجدها تجنح إلى الغروب فلما أفل النجم وستره الظلام ، بزغ القمر فذهب بسواد الليل ، فلما بزغت الشمس ، زال ضوء القمر وخفى نوره ، ودنا غروبه ، وهكذا يكون الأفول بعد الظهور ، والظلام بعد النور ، وإبراهيم لا يحب الآفلين الذين يُمحى نورهم وأثرهم ، ويصبحون أثرًا بعد عين .

يقال إن الكوكب الذى ورد فى محاجة إبراهيم لأبيه آزر ، هو الزهرة أو المشترى .

ظهر القمر ليلاً ، وظللت أشعته الفضية أرجاء الكون ، فاحتفى به إبراهيم احتفاءً بالغًا ، ودخل فى روعه أنه إلّه ينبغى أن يعبد ، ولكن سرعان ما يأفل بعد بزوغ ، ويمحى بعد وجود ، ويظهر ضوء الشمس ، بدلاً من نور القمر ، أخذ يراجع نفسه ، فإذا عَبد هذا القمر الذى لا يبقى على حال من الوجود والظهور ، لكان مثل قومه ضالاً غويًا . والجزء المضىء من القمر يتغير من وقت لآخر فى الحجم والشكل ، فيبدو فى الأول رفيعًا منحنيًا ، ثم يزداد حجمه رويدًا رويدًا ، حتى يصبح دائرة تامة ، ثم يعود للتناقص حتى يصير خيطا باهتًا واهنًا كما كان فى الأول . هذه الحالات تسمى أوجه القمر ، فهو فى أول الشهر يكون محاقًا ، ثم يصبح هلالاً ، ثم يصير بدرًا ، ثم ينمحى شيئًا فشيئًا حتى لا تراه العين ، ولا يلحظه البصر .

إذا رأى الشمس تشق الحجب وتبدو العين قوية بنورها الذى يملأ الكون كله ، قال هذا هو الإلّه الأكبر حجمًا ، والأقوى ضوءًا ، والأكثر إنارة ، فهى من أكبر النجوم وأعظمها ، ولا شك أنها أعظم من القمر وأكبر

---

(١) سورة الصافات : الآية ٨٨

منه حجما . فهى جديرة بالتقديس والعبادة ، ولكن سرعان ما يختفى نورها ، ويعم المكان ظلام دامس ، وضعفت لديه حجة أن تكون الشمس إلـها . هـذا النجم المشع الذى يتدحرج من الشرق رويدًا رويدًا ، حتى يرى منه شعاع واه أصفر عند الغروب ، ثم ينحدر ويسقط من وراء الأفق ، فلا تراه العين . أين يذهب ؟ لا أدرى ، وكيف اختفى ؟ لا أعلم . أفتش عنه فى كل مكـان دون أن أجـد له أثرًا ، الكون ظلام دامـس لا يرى فيه المرء يديه ، ويكاد يتخبط مع صاحبه .

إن ما يظهر ويختفى ، ويكون موجودا ثم يصبح معدوما لا يتخذ إلـها ، الإلـه موجود أبدا ، باق دوما ، لا يتبدل ولا يتغـير ولا يختفـى ، وهـذا ينطبـق على الشمس والقمر أيضا ، يضئ ليلاً ويلقى أشعته الفضية على الكون فيبـدو رقيقا حالمًا ، جميـلاً جذابًا ، ولكن ما إن تتهادى تباشير الصباح حتى يختفـى هو الأخر وينعدم ، فنور القمر يتبادل مع ضوء الشمس ، فمرة يظهر نور ذاك . وأخرى يبدو ضـوء هـذه ، ولا تكـاد أشـعة واحـد منهمـا تسـتقر أو تثبـت ، فكلاهما لايصلح أن يكون إلـها يعبد أو يقصد ، فاستبعد ألوهيتهما ، وواجـه قومه بحجته ، ولكنهم لم يرجعوا عن عبادتهم و لم يكفوا عن تقديسها .

تمسكوا بعنادهم وصلفهم ، و لم يحكموا عقولهم أو يعملوا فكرهـم .

قال يائسًا ﴿ ياقوم إنى برئ مما تشركون ﴾(١) فـأنتم يـاقوم مشـركون با لله ، وأنا برئ من شركِكم وتجديفكم ، وأنى وجهت وجهى لله الذى فطر السموات ، وخلق الأرض ، وأودع ما بها من كائنـات ، وفكـرت مليّـا فلـم أجد أحدا ، أو شيئا يستحق العبادة سوى الله الواحد القهار ، وجعلت همتى

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٨

إليه بعيدا عن أديانكم المنحرفة ، وعقائدكم الزائغة ، التى تنأى عن طريق الحق والهداية ، ولست مشركًا با لله ، لا بالقول ولا بالفعل ، و أنزّه نفسى عن ظلمات الهوى ، وشهوات النفس .

- إذن ماذا تعبد يا إبراهيم ، وأنت لا تعبد مثلنا الكواكب ولا الشمس ولا القمر ، لا تعبد الأصنام ولا الأشجار ولا الأنهار ، ماذا تعبد إذن ؟ .

ألا تخاف أن تصيبك آلهتنا ببرص أو داء ؛ لتشهيرك بها وتنقّصك إياها ؟

لا أخاف الأصنام التى تشركونها با لله فى الربوبية ولا أخشى ضرها .

وكيف أخاف أصنامًا لا خطب لها ، - وهى من حجارة وخشب - إذا أنا نبذتها و لم أعظمها ، ولا تخافون أنتم ا لله عز وجل ، وقد أشركتم به فى الربوبية أشياء ليس لكم فيها حجة ؟ .

لقد أخلصت عبادتى لله ، وجعلته قصدى ، فهو فاطر السموات ، ومبدع الأرض ، أعبده حنيفا بعيدًا عن أديانكم المضلّلة وشرائعكم الضالة ، فأنتم تبتعدون أشواطًا عن طريق الحق و الهداية .

أخذ القوم يجادلون إبراهيم وهو يجادلهم ، وكل منهما يبغى التغلب على الآخر ، القوم وما ألفوه من عبادة الصنم ، وإبراهيم وما توصل إليه من عقيدة صحيحة ، لا تؤمن بغير ا لله ولا تشرك به أحدًا ، ولكنهم يراجعونه فى الحجة فى تو يد ا لله الفينة بعد الفينة .

هدّدوه أن الأصنام التى يأنف عن عبادتها لا بد أن تصيبه بسوء ، ولن يتحمل أذاها ، فإذا غضبت على أحد ، أهلكته ودمرت حياته ، وجعلته نهْبًا للشقاء و التعاسة .

لم يأبه إبراهيم بتهديد قومه وزعمهم أن آلهتهم سيناله منها الأذى والضرر ، لم يبال إبراهيم بشئ من ذلك ، فالله الواحد الذى يعبده سينصره على قومه ، ويرفع من شأنه بينهم ، ولن يخذله أبدًا ، سيحيطه بعنايته ويرفع عنه أذاهم ، فلا يبالى بتهديداتهم .

أتجادلوننى فى وحدانية الله وقد هدانى إلى الحق و إلى طريق مستقيم ؟ لا أخشى غضب أصنامكم ولا غدرها ولا أذاها كما تزعمون ، فهى لا تقدر على شئ من ذلك إلا بإذن الله ، ومشيئته وحدها هى التى تتحقق ، وليست رغبة الأصنام فى الأذى ، فهى لا رغبة لها إن كانت الرغبات تمنح اعتباطا ، هى جماد لا يحس ولا يقدر ولا يريد ، وأنتم تتوهمون أنها قادرة على كل شئ وأى شئ ، كيف ؟ ليس لديكم جواب على هذا السؤال ، فأصنامكم مجرد جمادات لا حول لها ولا قوة ، لا تضر ولا تنفع ، و لم لا تخافون عقوبة من هو أعظم من الكون كله ؟ و لم لا تخشون مغبة شرككم بالله الذى ليس كمثله شئ فى الأرض ولا فى السماء ؟ .

واستمر إبراهيم يجادل قومه وعبادتهم للأصنام ، فالله لم ينزل بشرككم له سلطانًا يحميكم وينصركم ، لم يؤيدكم بحجة أو برهان ، فأين حجتكم وبرهانكم حتى أسلك معكم الطريق إلى عبادتها ؟ . فمن أحق بالأمن ؟ من يدعو على عبادة رب واحد لا يتغير ولا يختفى ، أو من يدعو إلى عبادة صنم لا يتكلم ولا يستجيب ، ﴿ أى الفريقين أحق بالأمن ﴾(١) ؟ لاشك أن الذى

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨١

هو أحق بالأمن هو العابد لله الواحد القهار ، وليس العابد للأحجار أو الأشجار ، فإن كنتم تعلمون غير ذلك فأخبرونى به .

فالذين آمنوا و لم يخلطوا إيمانهم بالشرك ، أولئك لهم الأمن من العذاب ، وهم مهتدون إلى الحق ، ومن عداهم يتردى فى ضلال مبين .

هذه الحجج وتلك البراهين التى أرشد إليها إبراهيم قومه ، وأفحمهم بقوتها وصدقها ، والتى رفعه الله بها مكانًا عليًا ، حتى فاق فى زمن صباه شيوخ أهل عصره علما وحكمة ، فالله يرفع درجات من يشاء ، فهو حكيم فيما يفعل ويذر ، عليم بمن يرفع شأنه على أهل زمانه ، وتقاليد أمته .

استمر الجدل طويلاً بين إبراهيم وقومه من أهل بابل ، ودار فى مجالسهم حتى ضاقوا به ذرعًا ، وضاق بهم نفسًا .

فالقوم يعاملون أصنامهم معاملة العقلاء ، فجاراهم إبراهيم فى ذلك ، وخاطبهم باعتبار أن أصنامهم عاقلة .

﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعوكم أو يضرون ﴾[١] اعترفوا بأنهم يعبدون أصنامًا لا يجدون فيها نفعًا ولا ضرًا . وإنما يعبدونها لأنهم وجدوا آباءهم يعبدونها ، فاقتدوا بآبائهم فى العادة ، وليس لهم الاقتداء بما ورثوه . فلو تأملوا ما عبدوا وما عبد آباؤهم من قبل ، لأيقنوا بطلان عبادتها ، فالباطل لا ينقلب حقًا بكثرة من يفعله ويمارسه .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٧٢ ، ٧٣

فأصنـامكم أعـداء لى ، وأعـداء للبشـر ، وبالتـالى فهـى أعــداء لكــم ، فتبجيلكم لها وترحيبكم بها لن يغير مـن أمرهـا شيئا ، وسـواء أصنـامكم مـن ذهب أو فضة أو نحاس ، أو من خشـب أو حديـد أو طين ، وسـواء أكـانت علـى صـورة إنسـان أو حيـوان ، وسـواء عكفتـم علـى عبادتهـا أو اكتفيتـم بزيارتها ، فهى لا تسمع دعاءكم ، ولا تنفعكـم ولا تضركـم . وهكـذا أخـذ إبراهيم يطلعهم على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة عن صِّفة الإلـه .

طفق إبراهيم عليه السـلام يثنـى علـى الله تعـالى ، ويعـدد صفـات رب العالمين : أنه خلقنى بقدرته من العدم ، وأرشدنى إلى طريق مستقيم فـى دينـى ومحياى ومماتى ، هدانى منذ بداية خلقـى حين كنـت جنينًـا فـى بطـن أمـى ، امتص دم الحيض من الرحم إلى ولوج جنته بإذنه .

هو وحده الذى يرزقنى طعامى وشرابى ، وهو الـذى يطعمنـى ويسـقينى ، وكل ما يترتب على الطعام من لذة ومنفعة ، كالابتلاع والهضم والدفع .

أليس من يهدينى إلى ذلك جديرًا بأن نتوكـل عليـه ، ونقبـل إليـه كليـة وننصرف عمن سواه ؟ .

إذا مرضت فهو وحده الشافى من المرض ، المخلّص من السقم ، وليـس الطبيب هو الشافى إلا بإذن من الله ، فالذى يُمرِض هو الذى يشفى ، وليـس غيـ[illegible] . ﴿ [illegible]إذا مرضتُ فهو يَشفين ﴾[1] فنسب [illegible] نفسه والشـفـ[illegible] إلى الله، مع أن المرض والشـفاء كليهمـا مـن الله ؛ راعـى فـى هـذا المقـام حسـن الأدب فى حديثه عن الخالق ، أو [illegible]ذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٨٠

وهو وحده الذى يميتنى ويقبض الروح منى إذا بلغ القضاء أجله ، ويحيينى فى الآخرة لأنال جزاء ماقدمت من خير أو شر ، وأطمع منه أن يغفر لى ما اقترفت من ذنب ومعصية فى دينى ودنياى ، يغفر لى يوم الحساب والجزاء .

أراد بخطيئته ماجاء به من الحقيقة : عندما قال عن سارة إنها أختى ، وهى زوجُه(١) .

وعندما امتنع عن الخروج مع قومه يوم عيدهم وقال﴿ إنى سقيم ﴾(٢).

وعندما وضع الفأس فى عنق الصنم الأكبر وقال ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾(٣) هذه الكذبات الثلاث أكدها قول النبى محمد ﷺ : " لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات "(٤) ودعا إبراهيم ربه متضرعًا متوسلاً أن يهبه الكمال فى العلم والعمل ، فمن يعلم شيئًا ولا يعمل به ، لا يقال له حكيم ولا لعلمه حكمة : ﴿ رب هب لى حُكْمًا وألحقنى بالصالحين ﴾(٥) فتجمع بينى وبينهم فى الجنة .

---

(١) دخل إبراهيم قرية فيها جبار من الجبابرة ومعه سارة زوجه ، فأرسل إليه الجبار ، من هذه التى معك ؟ قال : أختى ، قال : أرسلها إلىّ ، فقال إبراهيم لسارة لا تكذبى قولى ، فقد أخبرته أنك أختى .

(٢) سورة الصافات : الآية ٨٩

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٦٣

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء ومسلم فى الفضائل .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٨٣

واجعل لى جاهـا وصيتـا حسنًا فـى الدنيـا يبقـى أثـره إلى يـوم الديـن . واجعلنى من الفائزين بجنة النعيم المستحقين لهـا ، كمـا يسـتحق الـوارث مـال مورثه ويستمتع به بعد فناء مورثه .

واغفر يارب لأبى آزر ، الذى ضل عن طريق الحق ، وخرج عن سـبيل الإيمان ، وأزلْ غشاوة الظلام عن عينيه ، فيرى ببصيرته نور التوحيـد ، وبقلبـه أشواق المعرفة بك ومـدى قدرتـك علـى كـل موجـود ، فقـد أضلتـه التقـاليد الموروثة ، وأبعدته عن رحابك وجنتك ، فقربـه إليـك وضمّـه إلى جنـاحك ، واجعله ينقاد إلى الإيمان بك والنزوع إليك .

استغفر إبراهيم لأبيه قبل أن يتبين له أنه مات على الكفر ، مـات عـدوًا لله فتبرأ منه .

رب لا تخزنى ، ولا تفضحنى ، ولا تهتك سترى يوم البعث من القبـور يوم القيامة ، حيث لا ينفع مال أحدًا ، وإن كان مصروفًا فى وجوه الخيرات ، كما لا ينفع الوالدَ بنوه وإن كانوا صالحين ، إلا من أخلص قلبه لك ، وسلم من مرض الكفر ودرن النفاق ، فشرطك لدخول الجنة وغفران الذنوب ، أن ينتفع عبادك بالإيمان بك ، فلن يلج جنتك من بعُد عن الإيمان ، ولن تغفر لمن يشرك بك أبدًا ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفـر مـا دون ذلـك لمـن يشـاء ﴾(١) ومن عصاك وبعد عن ساحة رضاك ، فقد أعددت له نارًا يرى أهوالها ويحـرق بسعيرها ، فيوقن أنه واقع فيها ، هالك بجحيمها ، فيزداد غما وحزنا وانكساراً .

---

(١) سورة النساء : الآية ١١٦

وتقول لهم يارب ، تقول لمن غرق فى غوايته متهكمًا عليهم مقرّعًا لهم ، أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وتحتمــون بهـا ؟ أيـن أربـابكم الذيـن زعمتم أنهم شفعاء لكم فى هذا الموقف العصيب ، وتقربتم إليها متزلّفين بها ، تقربتـم بهـا إلى الله ، فهـل ينصرونكـم الآن بدفـع العـذاب عنكـم ؟ وهـل ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم ؟ لقد ألقى الله بكم وبآلهتكم فـى النـار ، ألقاكم فى هوة سحيقة من الجحيم ، مرة بعـد مـرة ، منكسـى الـرءوس حتـى تستقروا فى قعرها ، جزاء ما حدفتم وعصيتم ، وألقى أصنامكم في النـار كبّـة واحدة . لن تكونوا وحدكم فى الجحيم ، فلا بد مـن أن تأنسـوا بغـيركم مـن أضرابكم ، فسـيكون معكـم إبليـس ، وجنـده الذيـن أضلوكـم عـن الإيمـان ، ووسوسوا فـى قلوبكـم ، وسوّلوا لكـم عبـادة الأصنـام بعـد أن زينــوا لكــم عبادتها ، أنتم وإبليس والكفرة الذين شملتهم الغواية .

وعندئذ تختصمـون ومـا عبـدتم مـن الأصنــام ، معــترفين بخطايــاكم ، تتجاذبون الحديث مع أصنامكم التى عبدتموها فــى الدنيـا . فـالله يـودع فيهـا النطق حتى تشهد عليكم ، فلا تستطيعون الإنكار ، وعندئذ تعترفون بضلالكم ، فضلا لكم واضح لاخفـاء فيـه ، ولا قبل لكم بالإنكـار ، فتقولـون مقسمــين ﴿ تا لله إن كنا لفـى ضـلال مبين ۝ إذ نسـوّيكم بـرب العـالمين ﴾(١) فكيـف يسوون أصنامهم برب العالمين ، أصنامهم العاجزة عن كل شئ ، ورب العالمين القادر على كل شئ ؟ بـين المخلوق والخـالق ، بـين مـن يعطى الهبـات ومـن يتلقـاها ؟ والآن ونحن فى يوم المحشر ليس لنا من شـفيع يشـفع لنـا خطايانـا ،

---

(١) سورة الشعراء : ٩٧ - ٩٨

ولا صديق نلجأ إليه عند الشدائد ، ولا نبىّ يكرر طلب الهداية لنا بعد أن قدمها لنا فى الدنيا ، ورفضناها وسخرنا منها ، ليس لنا ملك نعيش فى حمايته ، أو صديق نلوذ بسلطانه ، أو قريب يشفق علينا ، ليس لنا أحد نتقرب إليه فيحمينا من آثامنا ، ويشفع لنا معاصينا ، فيغفر الله لنا ، ويبعدنا عن سعير جهنم .

نتمنى أن نرجع أدراجنا إلى الدنيا مرة أخرى ، وأمنياتهم تشى بحسرتهم وندمهم ، ولكن هيهات ، فلو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، و لم يؤمنوا ولم يبتعدوا عن الشرك الذى ألفوه عن آبائهم وأسلافهم .

الأصنام

منح الله سبحانه إبراهيم خليله الهدى والرشاد اللائق به وبغيره من الرسل ، آتاه ذلك قبل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وكنا نحن عالمين أن إبراهيم أهل لهذا الرشاد وهذه الهداية .

قال إبراهيم متجاهلاً سلوك قومه مع آلهتهم : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾[١] ؟ يسألهم عن أصنامهم ومن أى مادة صنعت ؟ أصنعت من حجر أو طين ، أنحتت من ذهب أو فضة ؟ من أى مادة خلقت هى ؟ أخلقت من نبات ، أكوّنت من كواكب أو نجوم ؟ إن إبراهيم يعرف حقيقة أصنامهم وكيف نحتوها ، فهو يراها رأى العين ، ويقع بصره عليها كل حين ، ولكنه ظهر بمظهر غير العارف ، كأنه لا يدرى من شأنها شيئًا .

ما هذه التماثيل التى تقيمون على عبادتها ، وتعكفون على طاعتها ، وتخضعون لها ؟ هذه التماثيل التى تشبه مخلوقات الله ، فبعضها يشبه الإنس ، وبعضها يشبه الحيوان ، وبعضها لا تدرى ملامحه .

إبراهيم يتجاهل أصنامهم ؛ تقليلاً من شأنها ، ومحوًا لقيمتها ، فهى ليست ذات سطوة أو رهبة ، لا يخشى منها شئ . وإن لم يطيعوها فلا تسخط عليهم ، وإن أطاعوها فلن ترضى عنهم . هى مجرد حجر أو شجر أو طين ، أو كوكب أو نجم يبدو ويختفى . فما الذى حملهم على عبادتها ، إنهم يعظمونها كما عظمها أسلافهم ، ولن يستطيعوا أن يتحولوا عن ذلك ،

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥٢

أو يحيدوا عنه ، إجابة عاجزة لا تصدر إلا عن ضعيف عاجز ، ليست لديه علة متيقنة ، أو برهان صحيح .

أسلافكم وآباؤكم عبدوها دون استناد على دليل ، وسنّوا لكم هذه السنّة المضلّلة ، وأنتم عبدتم هذه الأصنام تقليدًا لأسلافكم ، وأنتم وأسلافكم فى ضلال مبين .

ظن القوم أن إبراهيم يأخذ الأمر مأخذ اللعب والمزاح لا مأخذ الجد . لم يدُر بخلَدهم ، أو يداخلهم شك أن ينكر عليهم عبادتهم لها ، حيث يسير الآخرون على نهج الأولين ، ويتبع أعقابهم دين أسلافهم وهم كثرة فى العدد ، شوكتهم حادة ، ونبرتهم عالية ، وكلمتهم مسموعة ، فكيف يجرؤ إبراهيم أو غير إبراهيم أن يكون كلامه حقًا لا هزل فيه ؟ .

أراد إبراهيم أن يثبت فى قلوبهم أن ما يقوله صدق وحق لا أثر فيه لهزل أو لعب ، فردّ عليهم بهذا القول المبين : ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ﴾[1] فالله هو الخالق وهو المبدع ، خالق السموات وخالق الأرض من العدم ، دون مثال سابق . ولست أنا من اللاعبين بهذه الدعوى ؛ بل من المحتجّين على صحتها بالبراهين القاطعة ، والأدلة الظاهرة ، فأنا بمنزلة الشاهد على قدرة الله الذى لا يصح أن يعبد سواه .

لم ير إبراهيم من قومه استجابة لما يقول ؛ بل رأى منهم الصدود والنفور من دعوته ، فاعتصر قلبه حزنًا ، وطارت نفسه شعاعًا وشعر باليأس المرير ، وركبه الهمّ الشديد .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥٦

أخذ إبراهيم يفكر ويدبر ، ويحلل ويستقصى ، ويقلب الأمر على وجوهه كافة . حتى انتهى به الشوط إلى حيلة يكيد بها القوم ، فلا بدّ من تحطيم الأصنام دون أن يبصره أحد من قومه ، فكانوا يزعمون أن أصنامهم شأنها عظيم ، ولا يحق لأحد أن يمسها بسوء ، وإلا أهلكت روحه ومزقت نفسه .

أراد أن يوبخ قومه على هذا التفكير الساذج ، ولا بد أن يكيد أصنامهم ، أن يكيد قومه فى أصنامهم ، إذ لو أصاب واحدًا من هذه الأصنام لملأ قلوبهم غمًا وحسرة ، وملأ نفسه فرحًا وغبطة .

عزم إبراهيم أن يحطم هذه الأصنام المعبودة ، وبيّت النية على هذا العزم ، ولكن كيف ينفذه ؟ ليس ثمة حيلة شافية إلا إذا انفرد بهذه الآلهة الرعناء ، وتركوها لشأن من شئونهم الهامة ، فعليه أن ينتهز الفرصة لذلك ويباغتهم بتحطيمها .

أراد قوم إبراهيم أن يخرجوا للاحتفال بعيدهم ، وأن يروحوا عن أنفسهم ، وأن يظفروا بشئ من اللهو و المتعة ، وبذلك ينفضّون عن الأصنام ويبتعدون عنها ، ولن يتخلف عن هذا الحفل الباهر ، سوى العاجز والمريض ، وصاحب العذر القهرى .

تعلل إبراهيم فى الخروج معهم والاحتفال بعيدهم ، وزعم أنه مريض البدن سقيم النفس ، و لم يجد عذرًا أقوى من ذلك وأوجه ؛ ليقدمه إليهم حين يهمّ بالخروج معهم ، فكان القوم يتطيرون من المريض ويخافونه ؛ خوفًا من سراية المرض والعدوى إليهم ، فلما سمعوا ذلك هربوا منه ، وفروا من صحبته ، وتركوه وحيدًا ليس معه أحد ، وبذلك انفرد بالأصنام ونجحت خطته .

جاءهم عيد لهم ، ألحّوا على مصاحبة إبراهيم لهم ، طمعًا منهم أن يستحسن شيئًا من أخبارهم ، فصاحبهم ومشى معهم ، فلما كان فى الطريق عزم أن يتخلف عنهم ، فقعد فى الطريق وقال لهم : ﴿ إنى سقيم ﴾(١) وهمس فى خلوة من نفسه ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُولوا مدبرين ﴾(٢) فسمعه قوم من ضعافهم ممن كان يسير فى آخر الناس .

انصرف إبراهيم عليه السلام إلى معبدهم ، ودخل الساحة وأمامه الأصنام ومعه قدوم ، فوجد الأصنام واقفة ماثلة أمام عينيه ، تنظر إليه فى بلاهة وبرود ، الأكبر فالأكبر ، وقد جعل الطعام بين يديها تبركًا بها ، فإذا انصرفوا من العيد أتوا لطعامهم فأكلوه .

جعل إبراهيم يهشم الأصنام بقدومه حتى أفسد أشكالها ، وشوه معالمها كلها عدا الصنم الأكبر ، فقد تركه وحاله ، وعلق القدوم فى يده ، وخرج عنها ... .

ذهب إلى الأصنام متسللا فى خفية كنسمة هواء لا يراها أحد ، وقال لها متهكما عليها : قدم لك العابدون أنواع الأطعمة والأشربة ، فلم لا تأكلين من طعامهم ، و لم لا تتناولين من شرابهم ، فالطعام والشراب من خيرة الطعام وألذ الأشربة ، لم لا تأخذين نصيبك منها حتى تحصل البركة للعابدين برضاك عنهم ، وحبك لهم ؟

---

(١) سورة الصافات : الآية ٨٩

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٥٧

لم تُحره الأصنام جوابًا و لم تنطق بكلمة واحدة ، بل التزمت الصمت المطبق ، دون أن يبدو على ملامحها شئ من الرضا أو السخط . ليس على وجهها انفعال ، لا سرور ولا حزن ، جماد لا ينتظر منه إبراهيم غير الجمود والسكون ، والغفلة عمن حوله .

عمد إليها يوسعها ضربًا بقوة يمينه حتى جذها جذًا ، وحطمها تحطيمًا ، وفتتها قطعًا متناثرة ﴿ فراغ عليهم ضربًا باليمين ﴾(١) ولفظة " على " تفيد الاستعلاء ، حيث كان يضربها ويملك زمام أمرها ويسيطر عليها ، وهو بذلك يعلوها ويرتفع عليها .

والضرب باليمين أقوى من الضرب بالشمال ، واليمين هى التى استعملها فى تحطيم الأصنام .

استثنى إبراهيم من تكسير الأصنام وتحطيمها الصنم الأكبر ، الأكبر عظمة وجثة وهيبة ، لم يحطمه ليكون شاهدًا لهم يرجعون إليه – باعتباره الإلّه الأعظم – يسألونه عمن اقترف هذا الفعل الشائن ، وارتكاب هذه الحماقة الشنعاء ، فلن يسكتوا عن هذه المهانة ، ولن يتركوا فاعلها حتى يثأروا منه . لقد حطم كبرياءهم ، وطعنهم فى دينهم ، فكيف يتركونه يمرح دون عقاب ينزلونه عليه ، ويثأرون لآلهتهم التى يرونها أمامهم ممزقة مفتتة ، قطعة هنا وقطعة هناك .

امتلأت قلوبهم بالغيظ والموجدة ، وطفحت صدورهم بالغل والحقد ، واشرأبت ألسنتهم تطلب الثأر والانتقام ، ودوت أصواتهم كهدير البحر تعلن الفتك بمن فعل هذه الفعلة بآلهتهم ، وارتكب تلك الجريمة الشنعاء .

---

(١) سورة الصافات : الآية ٩٣

أراد إبراهيم أن يزيد فى السخرية منهم على معتقداتهم الزائفة ، التى لا تدل إلا على خواء نفوسهم من المشاعر الدينية الصحيحة ، وفراغ عقولهم من الدلائل المنطقية السليمة ، فأمعن فى النيل منهم ومن أصنامهم ومن عقيدتهم ، فسخر منهم ، وتهكم عليهم ، وتلعّب بهم ، فعلق فأسا بين يدى كبير آلهتهم ، استهزاء بهم وبأحجارهم ، وشماتة فيما يعبدون ويعظمون . ارجعوا إلى هذا الصنم الأكبر وسلوه - إن كان ينطق - من كسر بقية الأصنام ؟ ومن نزل بها من عليائها ، وجعلها طريحة الأرض تتساوى مع النعال ؟

أراد إبراهيم أن يدمغهم بالجهل وسوء الفكر ، ورعونة المسلك ، وسخافة العقيدة .

عاد القوم من احتفالاتهم فرحين تغمرهم السعادة وتملؤهم المسرة ، وعندما وقعت أبصارهم على آلهتهم وهى محطمة موزعة فى جوانب ساحتها ، اندهشوا وتحيروا ، وأصابهم الحزن والغم ، وأحاط بهم الهوان ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة من كل جانب .

- من ارتكب هذه الفعلة الشنعاء ؟ ومن هذا الشقى الذى طاوعته يده على تمزيق ديننا ، وتحطيم آلهتنا ؟ إن من فعل ذلك عرض نفسه للهلاك لا محالة ، وستجرعه الآلهة الغضبى ألوانًا من العذاب ، وتنتقم منه أبشع انتقام وأهوله .

- قال رجل من عامة القوم : لقد سمعنا شابًا غضًا فى أول مراحل الشباب ، يعيب أصنامنا ويتندّر بها ، فلعله هو الذى ارتكب هذه الحماقة ، هذا الفتى اليافع يسمى إبراهيم .

أمروا باحضاره على الفور ﴿ فأقبلوا إليه يَزفّون ﴾(١) وتوجهوا إليه مسرعين ، يسألونه إن كان قد بدر منه شئ تجاه آلهتهم ، أو مسها بسوء ، فقد سمعك بعض القوم تتناول آلهتنا بالسخرية والقدح .

قال إبراهيم ساخرًا : ﴿ أتعبدون ما تَنْحِتُون ﴾(٢) من الخشب والطين والجصّ ، أليست عبادة الله الذى خلقكم أولى من عبادتها ، وهو الذى خلق ما تنحتون وإن كان النحت بفعلكم ، فهو الجدير بالعبادة ، وليست هذه الأصنام التى تعظمونها ، فالأصنام ليس لها شأن ، وأنتم ليس لديكم عقول ، أو قلوب تفقهون بها .

---

(١) سورة الصافات : الآية ٩٤

(٢) سورة الصافات : الآية ٩٥

النُمرود

بلغ أمر إبراهيم وتكسيره الأصنام مسامع النمرود الحاكم الجبار ، صاحب اليد الطولى والقلب الصلد ، الذى يصرف الناس عنه شدة البطش ، وفداحة المسلك .

والنمرود بن كنعان بن قوش ، اشتهر بأنه أول جبار فى الأرض ، ويضرب به المثل للصياد الماهر .

بلغه أمر إبراهيم ، كما بلغ الأشراف من قومه ، فهالهم الأمر وضجّوا له جميعًا ، أصابهم الذهول ، واستولى عليهم الشرود . وتوعدوه بالعذاب والهلاك ، فمن من الناس يقدر أن يمس الآلهة بسوء ، أو يصيبها بضرر ، ويصل به الأمر أن يحطمها ويجعلها فتاتًا . إن ذلك الآثم البغيض لا بد من عقوبته ، وأن يوضع فى مكان بارز حيث يراه الناس جميعًا ، وتتمكن صورته من أعينهم ، فتكتحل العيون وتتلذذ بمرآه ، وهم يرون عذابه الجسيم رأى العين ، ويكون المعتدى عبرة لغيره من الناس ، فلا يجرؤ أحد أن يمس آلهتهم بسوء ، أو يقربها بضرر بعد ذلك .

﴿ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾(١) يشهدون بفعل أو قول ، ولن تكون له مندوحة عن الدفاع عن فعلته الأثيمة ، ونحن لا نأخذ الناس دون بينة أو برهان .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٦١

أتوا به فى المحفل الكبير ، وبمحضر من الجمهور المتعطش للانتقام ، حتى يشهدوا عليه بأنه الذى تناول الآلهة بالتحطيم ، ويشهدوا عقوبتـه أيضًـا فلعلـه هو الجانى .

أتوا بإبراهيم فى صياح وضجيج وهم يجرونه جـرًا ، يدفعونـه أمـامهم ، ويمسكون بخناقه حتى لا يفلت من قبضتهم ، ولكن إبراهيـم لم يعبأ بذلـك ؛ بل كان أقرب إلى الفارس المغوار ، يمشى بينهم وهـو عـالى الجبهـة مديـد القامـة ، شامخ النفس ، لا يشعر برهبـة أو خـوف أو ضعـف ، فهـو يلبـى رسـالة رب العالمين ، ولم يصنع ما يغضب الإلـه الواحد القهار . وإن كـان يغضـب النـاس ، ولا يرضى عنه الملك النمرود .

لجأ إبراهيم إلى ضميره اليقظ ، وفطرته السليمة التى تدل أنـه يسـير فـى الاتجاه الصحيح . أنكروا على إبراهيم ما فعل بالأصنام وأنّبوه ووبخوه :

أأنت الذى حطمت آلهتنا وجعلتها جذاذًا ؟

شلّت يمينك ، فلن تتركك الآلهة بخير .

واستمروا فى صياحهم وغضبهـم ، يكيلـون لإبراهيـم أقـذع الشتائم ، ويهددونه بالهلاك لا محالة .

أشار إبراهيم إلى الصنم الأكبر المعظـم عندهـم ، الـذى أبقـى عليـه دون تحطيم ، فهم يخصونه بمزيد من العناية والتقدير .

وطلب منهم أن يسألوا هذه الأصنام المحطمة الملقاة على أرض الساحة ، اسألوها - إن كانت تنطق - ، وهى تجيبكم ، إن الـذى حطمهـا هـو الصنـم الأكبر ، وها هو الفأس المعلق بين يديه دليل على ذلك .

يا لها من سخرية بآلهتهم ، وتهكم على معتقداتهم ، وطعنهم فى ديانتهم. كان إبراهيم على يقين أن سؤالهم للأصنام لا يفيد ، فمحال أن تنطق هذه الجمادات ، أو يتكلم الطين ، أو ينبس الحجر ، أراد أن يعرض بجهلهم وغبائهم وضلالهم ، وأنهم يعبدون مالا ينبغى أن يعبد ، ولا أن يلتفت إليه ، وسخر من قومه حتى يلهب رءوسهم ، ويحثهم على النظر فى حال أنفسهم ، لعلهم يتعظون أنهم يلجون طريق الخطأ ، ويسلكون سبيل الضلال ، وعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويستردوا عقولهم ، ويعبدوا الإلـه الواحد الأحد .

راجعوا عقولكم ، وفكروا مليًّا فى أصنامكم وأفعالكم ، لو فعلتم لاهتديتم إلى الذى هدانى إليه ربى .

كيف لمن لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، أن يتمكن من دفع المضرة عن غيره ؟

وكيف بمن لا يستطيع أن يجلب لنفسه النفع والخير ، أن يجلبهما لغيره ؟

ومن لا يمكنه أن يجلب نفعًا ، أو يلحق ضرا ، كيف يليق به أن يعبد ؟ ويحق علينا أن نعبده ؟

ظلوا مدهوشين متحيرين لا ينطقون كأصنامهم ، ينظر بعضهم إلى بعض فى خفية ، ولا تسمع لهم سوى الهمهمات ، فما يقوله إبراهيم لا ينازع ، وصدق لا يراجع .

لقد ظلمنا - إذن - أنفسنا حين عبدنا هذه الأصنام وتلك الأوثان ، وكيف غاب عنا الرشد ولم ننظر فى شأنها ، وبيننا كهنة يتصفون بالحكمة الصائبة ، والرأى السديد ؟

إن ما يقوله إبراهيم هو التفكير الواضح الذى لا التواء فيه ، تفكير بسيط لا يحتاج فلسفة ، أو تبحّر فى المعرفة ، أو النظر ، حتى يشق على الرجل العادى أن يدركه ، بمجرد النظر إلى الأسباب والنتائج ، يسلم إلى هذا الاعتقاد ، بأن الأصنام لا تصلح أن تتخذ معبودات .

تفكير ينبع من القلب السليم ، والفكر الواضح يؤدى إلى هذه النتيجة . فلا ينبغى أن نلغى عقولنا ، ونعتمد على تقليد الآباء ، ومحاكاة الأجداد دون تفكير أو اهتداء .

قلبوا التفكير فى شأن عبادتهم ، وأقنعوا أنفسهم بما قاله إبراهيم من عبادة الله الواحد دون تلك الأصنام المتعددة ، ولكن سرعان ما عادوا إلى باطلهم ونَزَقهم ، وآثروا التمسك بمقولتهم الأولى ، وإلف ما درج عليه أسلافهم ، فأصنامهم هى الجديرة بالعبادة ، وليس لهم أن يسلموا قلوبهم إلى غيرها ، مهما كان الإغراء و الإقناع .

إن آلهتنا هى الجديرة بالعبادة ، وهى دون غيرها التى تستحق التعظيم :

﴿ إنَّا وجدْنا آباءَنا كذلك يَفعلون ﴾(١) ﴿ بل نتّبعُ ما وجدْنا عليه آباءَنا ﴾(٢) .

إن القوم قلبوا الباطل حقًا ، وجعلوا أسفل الشئ أعلاه ، وتبجحوا فى ادعاءاتهم وزعماتهم ، فهم يعلمون أن الأصنام ليس من شأنها النطق ،

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٧٤

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٦٧

ولذا فنحن لا ننظر إلى ما تقول على أنه حق ، فلمَ يا فتى تريـد منـا أن نسـأل الأصنام ، ونحن مؤقنـون أنهـا لا تنطق ؟ ، وإن كـانوا قـد أقـروا بينهـم وبين قلوبهم بالحيرة التى أوقعهم فيها هذا الفتى اليافع .

استمر الحوار بين إبراهيـم الـذى تكلـؤه عنايـة الله ، وبين قومـه الذيـن يميلون إلى الزيف والتجديف ، واحتدّ النقاش ، وارتفعت نبرته ، وصار صراخًا وضجّة .

يقـول إبراهيـم مبكّتـا لهـم : أتتجـاوزون عبـادة الله وتـتركون طاعتـه ، وتعبدون أحجارًا لا تنفعكم إذا عبدتموها ، ولا تضركم إن تركتم عبادتها .

﴿ أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾(١) وأبدى تبرمـه مـن سـفاهة قومه وإصرارهم على الباطل ، وتراخيهم فى النزوع إلى الحق ، فقبحًالكم على هذا المسلك الذميم ، هل أصابكم الجنون فلا تعلمون قبح صنيعكم ؟

سمع النمـرود بأخبـار إبراهيـم ، وزعماتــه المتتاليـة ، وتحقـيره للآلهـة فاستشاط غضبًا .

وتوافدت الرعية إليه ، تؤكد الفعلة البغيضـة للفتـى الطـائش وادعاءاتـه المفرضة ، وتطالبه بالانتقام المريع .

كان من الطبعى أن يعجز القوم عن مواصلة الدفاع عن آلهتهم ، وأصبح جدالهم عقيمًـا ، واحتجاجـاتهم واهيـة ، ووقفـوا مخذولـين أمـام هـذا الفتـى ، متحيرين مدهوشين لا يلوون على شئ ، ولا يدرون ماذا يفعلون .

---

(١) سورة لقمان : الآية ٢١

غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجة ، فنكسوا على رءوسهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وانصرفوا إلى طريق العنف والقهر .

أشار رجل من عجم الأكراد واسمه " الهيزن " على النمرود الملك الجبار الذى قدّ قلبه من صخر ، أن يأخذ إبراهيم بأقسى العقوبات ، وأشدها لذعًا وإيلامًا ، أن يحرقه بالنار حتى تأتى عليه تمامًا ، فيشوى جسده ، وينزع جلده ، ويذوب لحمه فى أتون النار شيئًا فشيئًا ، وعندئذ يستمتع المشاهدون برؤيته وهو على هذا الحال ، وروحه تنتزع منه قطعة قطعة ، وتطير فى الهواء نسمة نسمة . إن ذلك المشهد سيكون مهولاً ولن ينتزع من الذاكرة أبدًا ، ولو كان ثمة شئ أفدح من هذا التحريق وهذا العذاب ، لنفعلنّه معه بحق الآلهة .

اجتمع الرأى على تحريقه ، وأمر النمرود بجمع الحطب فجمع فى عدة أشهر ، وكان المريض منهم ينذر للآلهة إذا هو برئ من مرضه ، أن يجمع كذا وكذا حزمه ، حتى اجتمع من الحطب مما جلب من هنا وهناك الشئ الكثير ، كان شيئًا مهولاً مرتفعًا كالجبل ، وأضرموا فيه النار . أرادوا طرح إبراهيم فيها ، فلم يقدروا أن يقتربوا منها لشدة لهيبها ، فصنعوا له المنجنيق ، وشدّوا إبراهيم برباط ، ووضع فى كفة المنجنيق ، ورمى به فألقوه فى النار .

يروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال :

بنوا حائطًا من حجر ، وملأوه حطبًا ، وأشعلوه نارًا وطرحوه فيها ، يريدون إحراقه والكيد له ، والاحتيال لهلاكه كما كاد لأصنامهم ، فجمع الله بين المتناقضين ، حيث جمع بين حرارة النار وبرد الريح ، فتحولت النار بردًا وسلامًا .. وفى ذلك معجزة قاهرة لأعدائه .

ولذا فنحن لا ننظر إلى ما تقول على أنه حق ، فلمَ يا فتى تريد منا أن نسأل الأصنام ، ونحن مؤقنون أنها لا تنطق ؟ ، وإن كانوا قد أقروا بينهم وبين قلوبهم بالحيرة التى أوقعهم فيها هذا الفتى اليافع .

استمر الحوار بين إبراهيم الذى تكلؤه عناية الله ، وبين قومه الذين يميلون إلى الزيف والتحديف ، واحتدّ النقاش ، وارتفعت نبرته ، وصار صراخًا وضجّة .

يقول إبراهيم مبكّتا لهم : أتتجاوزون عبادة الله وتتركون طاعته ، وتعبدون أحجارًا لا تنفعكم إذا عبدتموها ، ولا تضركم إن تركتم عبادتها .

﴿ أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾(١) وأبدى تبرمه من سفاهة قومه وإصرارهم على الباطل ، وتراخيهم فى النزوع إلى الحق ، فقبحًالكم على هذا المسلك الذميم ، هل أصابكم الجنون فلا تعلمون قبح صنيعكم ؟

سمع النمرود بأخبار إبراهيم ، وزعماته المتتالية ، وتحقيره للآلهة فاستشاط غضبًا .

وتوافدت الرعية إليه ، تؤكد الفعلة البغيضة للفتى الطائش وادعاءاته المفرضة ، وتطالبه بالانتقام المريع .

كان من الطبعى أن يعجز القوم عن مواصلة الدفاع عن آلهتهم ، وأصبح جدالهم عقيمًا ، واحتجاجاتهم واهية ، ووقفوا مخذولين أمام هذا الفتى ، متحيرين مدهوشين لا يلوون على شئ ، ولا يدرون ماذا يفعلون .

---

(١) سورة لقمان : الآية ٢١

أدركت إبراهيم عليه السلام عناية الله ورحمته ، أدركت خليله وحبيبه ، فلم يمسه شئ من الإحراق أو من الإيلام ، ولم يلحقه آذى النار ولهيبها ، ولم يروّع ولم يجفل ، شعر النمرود بأهمية إبراهيم ، وأنه مقرب إلى ربه الذى يدعيه بدلاً من آلهتهم ، فكيف يكيد لآلهتهم كل هذا الكيد من تحقير وتحطيم ، ثم ينجو من العقاب الذى أعده عبّاد الأصنام ، ولا يلحقه أذى نيرانهم التى أشعلوها ؟

وكيف بهذه النيران التى لو أشعلت فى بلد لدمرتها تدميرًا ، وأتت على كل شئ فيها ، ولو لحقت أمة بأسرها لشوت أجسادها جميعًا ، فكيف بها لم تحرق إبراهيم ، ولم يشعر بلذعها أو مسها ؟

أرسل النمرود فى طلب إبراهيم ذلك الذى يهين الآلهة ، ويعبد ربًا واحدًا لم يره أحد ، مخالفًا فى ذلك ما ألف القوم ودرجوا عليه .

وكيف يتأتى لواحد من الرعية أن يخالف مقولته ، وهو الحاكم السيد المطاع فى البلاد ؟

احضروا هذا الفتى المارق الدعىّ . وانصاع القوم ملبين دعوته ، فأحضروا إبراهيم ، وهم فى سرعة من تلبية أوامر النمرود .

حضر إبراهيم وقد واتته شجاعة من قبل الله ، يؤيد بها رسله ومبلغى رسالته ، قال إبراهيم على سبيل التحدى والإصرار :

إن الله ربى خالق الكون كله ، والناس جميعًا ، وكل ما على الأرض من دابة ، وكل ما فى السموات من أجرام ، قادر أن يحيى ويميت .

قال النمرود هازئًا برب إبراهيم ، وبصوته نبرة مستخفة يعلوها الهزء والسخرية برب إبراهيم : أنا أحيى وأميت ، قالها فى صلف واعتزاز ، ودعا برجلين كان قد حبسهما ، فقتل أحدهما ، وأطلق سراح الآخر مبقيًا على حياته ، وقال : لقد أحييت هذا وأمتّ هذا !!

بادره إبراهيم بسؤال أفحمه ، وتركه مغيظًا محنقًا متحيرًا لا يدرى ماذا يقول . إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، بهت النمرود ، وأسقط فى يده ، ولم يحر جوابًا ، وقفت الكلمات فى حلقه ولم تجد طريقًا للخروج ، ولم يفلح فى احتذابها ، وظهر أمام رعيته بضعف الحجة وعجز التفكير .

يقولون : إنما انقلب حر النار بردًا ، وإحراقها سلامًا ، فزال ما فى طبعها من الحرارة والإحراق ، وبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق ، فانقلاب النار هواء طيبًا ، ونسيمًا منعشًا ، مما يخرق العادات ، ويدخل فى عداد المعجزات .

لقد أرادوا إيقاع الضرر بإبراهيم ، وإلحاق الأذى به ، واستعملوا معه مكرهم وكيدهم وغدرهم ، إلا أن عناية الله كانت رفيقته ورحمته ، ملازمة له أبدًا ، ولم تتخل عنه لحظة . فجعلنا قومه هم الأخسرين أعمالاً ، الهالكين أرواحًا وأبدانًا .

سلطنًا البعوض عليهم ، وهو من أصغر المخلوقات وأهونها شأنًا ، فأكل لحومهم ، وامتص دماءهم ، فلم يبق من لحومهم قطعة ، ولا من دمائهم قطرة .

يروى أن واحدة من البعوض وقعت فى منخر النمرود ، بعوضة شأن غيرها من البعوض فى صغر حجمها ، ولين جسمها ، ورقة جناحيها ، ونحول

ساقيها ، لو هبت فيها نفخة من فم لأردتها وأهوت بها ، هى غاية فى الضعف والهوان ، وأين هى من مخلوقات الله بعظمها وجبروتها ؟ ، لو عقدت موازنة بينها وبين غيرها لما رجحت كفتها أبدًا ، وإنما هامت فى الأجواء كريشة فى مهب الريح .

وقعت هذه البعوضة فى منخر النمرود العظيم الجبار ، الذى لا يعدل بنفسه شئ على ظهر الأرض ، ولا يضارعه أحد فى الأرض قسوة وبطشًا ، والذى يتيه صلفًا وصولجانًا ، لم تزل تحك أنفه وتأكل فيه حتى وصلت إلى دماغه تناغش يافوخه، ويسمع طنينها يدوى فى أذنه ، فتسلمه إلى صداع قاتل ، ولم يكن يدرى ماذا يمكنه أن يفعل معها ، فهى تستمر تحكّه فى منخاره ، وتأكل من لحمه ، ويطلب العون ممن حوله أن يكفوه شرها بكل الوسائل الممكنة والمستحيلة دون جدوى .

كان أعظم معروف يقدم إليه أن يضربه أحد أتباعه بمقرعته على أم رأسه حتى يذهب احتكاكها .

كان النمرود وقومه أخسر من كل خاسر ، أرادوا إطفاء نور الحق ، فكان سعيهم إلى ذلك برهانًا قاطعًا بأن إبراهيم خليل الرحمن على الحق ، وهم فى ضلال ، هو وجيه فى الدنيا ، ومن المقربين فى الآخرة ، وهم فى لعنة وغضب وسخط من الله . فنجى الله إبراهيم من شر النمرود ، الذى صار أضعف من أقل الكائنات شأنًا وأقلها أثرًا .

الهجرة

قال إبراهيم بعد أن نجاه الله من عذاب الحريق ، ومن كيد الأعداء المارقين : إنى مهاجر من أرض بابل إلى الشام ، حيث أخلص منفردًا بنفسى لعبادة الله ، فأنا أفتقر إلى مكان بعيد عنكم ، لأتحنث فيه ، وأدعوه لاستقامة أحوالكم ، والله سيهدينى لإصلاح دينى ، ورضا نفسى .

خرج إبراهيم من بلده ومعه لوط عليه السلام ، لوط ابن أخيه ، هاران ، وهاران وإبراهيم أخوان . كان لوط النبى مؤمنًا بإبراهيم ، وكانا فى بلدة تسمى كوثى على حدود بابل ، تركا العراق إلى الشام وهى الأرض المباركة ، مباركة لأن الله بعث أكثر الرسل إليها، ونشروا شرائعهم فيها ، وهى مباركة لغزارة مائها والتفاف شجرها وكثرة ثمارها ، يطيب العيش فيها للغنى والفقير ، والسليم والمريض ، وما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت صخرة بيت المقدس .

خرج إبراهيم ومعه لوط مهاجرًا إلى ربه ، ومعه زوجه وابنة عمه سارة ، يلتمس الفرار بدينه من القوم الظالمين ، ويلوذ بأرض يحتمى فيها لعبادة ربه ، فنزل بفلسطين واتجه إلى مصر ، وعاد مرة أخرى إلى الشام .

نزل لوط بقرية كبيرة تسمى سدوم ، وهى من مجموعة القرى المؤتفكة ، التى جعل الله عاليها سافلها ، وأمطرها حجارة من طين ، بعد أن كذبوا نبيهم لوطًا .

أما إبراهيم عليه السلام فقد هبط أرض الشام ، وكان فى شوق جارف أن يهبه الله الولد ، واستبد به الحنين أن ينجب ولدًا وأن يشعر بعاطفة الأبوه ، وأن يكون له نسل يبقى من بعده يحمل اسمه ويكون له ذِكرا .

أن يكون لـه ولـد صـالح ، كـامل فـى صلاحـه ، يعينـه علـى الدعـوة ، ويؤنسه فى الغربة . فبشره الله بغلام يتسم بالحلم ، ويتحمل المشاق مع أبيه ، ولا يضطرب إذا أصابه مكروه ، وأى حلم يعدل حلـم غـلام إذا عـرض عليـه أبوه أن يجرى شفرة السكين على عنقـه ، فيسـلم برغبـة أبيـه وإرادة الخـالق . وهبنا له إسماعيل الذى بلغ رتبة السعى فى الحوائج والمصالح ، وكان له عندئذ ثلاث عشرة سنة .

رأى إبراهيم فـى منامـه أنـه يذبـح ابنـه ، وفلـذة كبـده ، وحبيـب قلبـه إسماعيل ، يذبحه قربانًا لله تعالى .

شاور الأب المكلوم ابنه إسماعيل المطيع فى أمر هذه الرؤيا ، مع أنـه أمـر محتوم لا رجعة فيه ، فرؤى الأنبياء حق ، ولا يتخلف تحقيقها أبدًا .

لكن إبراهيم شـاور ابنـه لمجرد أن يعلـم كيـف يتلقـى منـه هـذا الأمـر ، وكيف يستجيب لهذه الرؤيا ، أتثبت قدمه أم يجزع قلبه ؟

أيطمئن فؤاده أم ينخلع صدره ، أينقاد لأبيه أم يعصاه ؟

والأب كيف يمكنه أن يطبق رؤياه على ولده ، ويسلمه للذبح ، ويجرى على عنقه شفرة السكين . ابنه وفلذة كبـده ، يطرحـه علـى الأرض ويذبحـه ، وتسيل دماؤه أمام بصره ، فتسيل معه دماء قلبه ونبضات روحه ، ولكن هـذه الرؤيا من الله ، ورؤيا الأنبياء حق ، وليست من الشيطان ، أو ضغثًا من الأحلام .

ولابـد أنهـا لحكمة لا يعلمها سـوى الله ، فعقول البشر قاصرة أبـدًا ، ولا تستطيع أن تستوعب الأمور على حقيقتها ، ولا تحيـط بهـا مـن وجوههـا

كافة ، فلعل الله أراد ذلك لسبب نعرفه مستقبلاً فالله لا يفعل الشر ، وإنما يبغى الخير ، وفرجه قريب ، ونصره مبين .

كان إسماعيل طوع بنان أبيه مستجيبًا له ، لا يراجعه فى رؤياه ، وإنما تذرع بالصبر ، وامتثل لرؤيا أبيه ، وهو مستمر فى هذا الامتثال دون تردد منه فى لحظة من اللحظات ، ويقول مذعنا لأبيه : ستجدنى مستعينًا با لله فى صبرى على هذا الابتلاء .

رأى إبراهيم هذه الرؤيا منامًا دون اليقظة ، مع أن غالب الأنبياء تكون رؤاهم يقظة ، حتى تكون المبادرة إلى الامتثال أقوى ، وأدل على الكمال والانقياد والإخلاص ، إلا أن إسماعيل لم يتردد ، ولم ينكص ، ولم يماطل فى تحقيق رؤيا أبيه .

استسلم الأب والابن لأمر الله وخضعا له ، شمر إبراهيم ، عن ساعده وألقى فلذة الكبد على خده وجانبه الأيمن ، يريد أن يباشر الذبح بصبر وجلد ، ليرضى ربه ويغضب الشيطان ، ويزيده غماً وحزنًا ؛ لأنه أطاع ربه وعصى وسوسة الشيطان وكيده .

ظهر إبليس لإبراهيم يريد أن يثنيه عن عزمه ، ويبعده عن تحقيق رؤياه ، ظهر له فى موضع رمى الجمرات ، فرماه إبراهيم بسبع حصيات حتى ذهب ، وعرض له مرة أخرى عند الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى إبراهيم لأمر الله وعزم على الذبح ، ومنه شرع رمى الجمرات فى الحج ، وأصبح من واجباته ، إذا تركه الحاج لزمه الفداء .

ألقى إبراهيم ابنه إسماعيل على الأرض الخشنة ، وهيأه للذبح ، وعزم عليه ، يداه ثابتة لا ترتعش على السكين ، وقلبه يخفق حنانًا وشفقة .

ناداه الله بأن رؤياه قد تحققت ، فقد عزمت على تنفيذها ، والعزم على الشيء وعقد النية على الفعل ، بمثابة فعل الذبح نفسه .

لقد أُمرت بذبح ابنك ، والإنسان مجبول على حب الولد ، امتحانًا واختبارًا له بيذل أحب الأشياء فى سبيل طاعة الله ، وليس الهدف هو تحصيل الذبح ، بل غلبة محبة الحق ، والانقياد للأمر ، وقد مضى إبراهيم فى طاعة الله دون منازع ، ففرج الله عنه الكربة ، وأزال الغمة ، وأحسن إلى خليله إبراهيم بالإبقاء على ولده .

هذه التجربة هى البلاء المبين الذى يتميز به المخلص من العنيد ، ويفترق به المطيع عن العاصى .

افتدى الله إسماعيل بكبش عظيم الجثة ، له قرنان بارزان ، سليم الأعضاء ، كامل الهيئة .

وهكذا ينبغى أن تكون الأضحية عظيمة الخلقة ، حسنة الهيئة ، ليس فيها من العيوب ما ينقص من قدرها ، فهى هدية البشر إلى رب البشر ، الرءوف بعباده ، الرحيم بمخلوقاته .

وكانت هذه سنة المسلمين فى ذبح الأضاحى ، اقتداء بما فعل سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، وفرحه حين افتداه الله بذبح عظيم ، سنّة إلى يوم الدين .

* * *

البشارة

حافظنا على ذكر إبراهيم فى الأمم اللاحقة ، كما أبقينا على ذكر نوح عليهما السلام ، فإبراهيم من عبادنا المؤمنين الراسخين فى الإيمان ، المطمئنين فى العبادة .

نزل بدار إبراهيم ضيوف الرحمن ، اثنا عشر ملكًا منهم جبرائيل وميكائيل ، جاءوا فى صورة الضيف ، وإبراهيم قام على ضيافتهم ؛ لأنه حسبهم ضيوفًا ، وأحسن استقبالهم ، وتفانى فى خدمتهم .

ملائكة مكرمون عند الله بالاصطفاء والسفارة بين الأنبياء ، كرمهم إبراهيم بخدمته لهم ، خدمهم بنفسه وزوجه ، ورحب بهم بطلاقة الوجه ، وتعجيل الطعام ، وحسن الحديث ، ولا عار على الرجل ولو كان سلطانًا أو أميرًا ، أن يقوم بخدمة ضيفه وأبيه ومعلمه ، ومن آمن با لله فليكرم ضيفه .

لم يخلّوا بأدب الدخول ، فألقوا السلام ودخلوا مسلّمين ؛ بل جعلوا السلام عقب دخولهم مباشرة ، فرد إبراهيم عليه السلام بمثله ، وحياهم بتحية أحسن من تحيتهم ، ولاقى ضيفه بأحب شئ لديه ، حتى يثبت الراحة والطمأنينة فى أنفسهم .

تعجب إبراهيم من أمر هؤلاء الضيف ، ولكن تعجبه لم ينتقل إليهم ، إذ كان حريصًا ألا يشعروا بتعجبه ، فهؤلاء قوم لا يعرفهم من قبل ، وهم منكرون عند كل أحد ، فقد كانوا على هيئة وسمات تختلف عما كان عليه الناس وألفوه .

وحينما دخلوا عليه ملقين التحية بالسلام تعجب إبراهيم ؛ لأن السلام في ذلك الوقت لم يكن تحية القوم ، فقد كان إبراهيم بين قوم كافرين ، لا يحيى بعضهم بعضًا بالسلام ، الذى هو تحية الإسلام والمسلمين .

راغ إبراهيم إلى زوجه على خفية من ضيفه ، فإن أدب الضيافة يلزم الضيف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ؟ حذرًا أن يكفه الضيف عن القيام بواجب الضيافة .

رأى إبراهيم أن يكرم ضيفه ما وسعه الكرم ، فذبح لهم عجلاً سمينًا مبالغة في إكرامهم ، ووضعه بين أيديهم مشويًا كما هوالمعتاد ليأكلوا ، إلا أن إبراهيم لاحظ أنهم لم يبادروا بتناول الطعام ، وهم قوم رحّل أتوا عليه من مكان قصى إذ ليسوا من أهل البلد ، ولا بد أن الجوع ألّم بهم ، فلم لم يتناولوا طعامه ؟

ولما رأى منهم عدم الإقبال على الطعام ، قال لهم مستنكرًا ، حاثًا لهم على تناول الطعام ألا تأكلون ؟

قلق إبراهيم من تصرفهم ، وساور نفسه الخوف ، حيث توهم أنهم أعداء جاءوا بالشر ، فإن من عادة من ينوى الشر والضرر ألا يتناول من طعام من يريد إلحاق الغدر به والكيد له ، ومن لم يأكل طعامك ، لم يحفظ عهدك ، ولم يخطب ودك .

أحس الضيوف بخوف إبراهيم ، وشعروا بقلقه إزاءهم ، فقالوا : لا تخف يا إبراهيم ، إنا رسل الله إليك ، جئنا نلقى إليك البشارة ، وأن الله سيهبك غلامًا يكون عليمًا عند بلوغه واستوائه ، نبشّرك بغلام تسميه إسحق ، يكون له عند الله منزلة كبيرة ومكانة عظيمة .

كانت سارة زوج إبراهيم تقف فى زاوية من البيت ، تنظر إليهم ، وتسمع حوارهم مع زوجها ، وحين سمعت هذه البشارة لم تتمالك نفسها ، وصاحت صيحة عالية شديدة وقالت يا ويلى !!

هل سمعت خطأ ، أم اختلط الأمر على ؟ . ولطمت وجهها حياء ، حيث شعرت بحرارة دم الحيض ، وضربت جبينها بأطراف أصابعها كعادة النساء إذا أنكرن شيئًا . كيف وأنا عجوز عاقر لم ألد قط فى شبابى حيث كانت الولادة ميسرة ، ولم يشأ الله سبحانه أن يمنحنى هذه المنّة ، حيث تكون المرأة معدة للحمل والولادة ، لم ألد فى تلك السن وذلك العمر : عمر الشباب ، وسن الفتوة والحيوية ، فكيف ألد الآن وقد بلغت من العمر سنًا طويلاً وعمرًا مديدًا ، أمضيت منه تسعين عامًا ، وزوجى على مشارف المائة ؟

وقد أصبحت الآن عاجزة عن كثير من الأمور ، عقيمًا ليس لدى القدرة على الحمل والإنجاب ، فكيف لى أن ألد وأنا بهذه الأوصاف ؟ صفات الضعف والهرم والعقم وقلة الفائدة وعدم الجدوى ، عجوز قضت من العمر سنواته الطيبة ، ودخلت فى دائرة السنين الشداد العجاف ، التى لا تفيض إلا بالوهن والهزال والشيخوخة ، فكيف ألد وقد بلغت هذه المرحلة المتقدمة من العمر ؟

كانت على الرغم من ذلك ، متلهفة على الولادة ، شديدة الرغبة فى الحمل ، ولشدة لهفتها اختصرت الكلام اختصارًا ، وحذفت منه بعض أجزائه " عجوز عقيم "[١] ولم تقل أنا عجوز عقيم ، فطغت مشاعرها وفرحتها ولهفتها على كل شئ ، حتى لسانها وكلماتها فطوتها طيًا .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٢٩

قالت الملائكة : نحن مفوضون من قبل الله تعالى أن نطلعك على هذه البشرى ، ولا نزفها إليك من تلقاء أنفسنا ، فلا تستبعدى ما بشرنا به إبراهيم ولا تتعجبى منه ، فقول الله حق لا يصدر إلا عن علم وحكمة .

لم يكن هذا الحديث مع سارة وحدها ، بل مع إبراهيم النبى أيضًا ، فالبشرى لهما معًا مجتمعان ، والإنجاب لهما سويًا ، و لم ينفرد به أحدهما عن الآخر .

فالله عليم بأحوال الناس ، حكيم فى تصرفاته ، وحكمته وعلمه تعم الوجود كله ، وما يكون عند الناس من العلم والحكمة ، إنما هو قبس من الرحمن ، وشعاع ضئيل واه ينبثق من ضوء الشمس الوهاج .

* * *

" وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحاق يعقوب "(٢) .

ضحكت سارة تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، هذا ما قاله ابن عباس رضى الله عنه .

هذا الخبر أدهشها ، ودهم نفسها ، وملك عليها حواسها ، بحيث لم تعد تصدق ما سمعت آذناها .

كيف وقد مضت من الأعوام أكثر من تسعين ، وزوجها اقترب من المائة ، أليس ذلك مما يدعو إلى التعجب والدهشة ، والغرابة والإنكار ، لكنه إذا كان عجيبًا بين العباد ، فليس عجيبًا إن كان صادرًا عن قدرة الله .

---

(٢) سورة هود : الآية ٧١

قالت الملائكة : أتعجبين من شأن الله بإيجاد الولد من شيخين كبيرين طاعنين فى السن ؟ فرحمة الله وسعت كل شئ ، واستبقت كل خير ، وبركاته نامية متكاثرة ، ومنها هبة الأولاد فى كل زمان : زمن الصبا وزمن الشيخوخة ، ورحمة الله وبركاته صفتان لازمتان لله عليكم ، لا تفارقكم أبدًا يا أهل بيت النبوة ، الذين خصهم الله بالنعمة ، وآثرهم بالفضل ، فليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة أو الإنكار ، وربكما لا يصنع معكما إلا ما يستوجب الحمد والمجد ، فهو حميد ، لا يفعل إلا الإحسان إليكما ، وهو مجيد يجعل الخير والبركة بينكما .

* * *

علم إبراهيم عليه السلام أن ضيفه من الملائكة المرسلين ، ولا يكون إرسالهم إلا لشأن خطير وأمر جليل ، فما شأنكم الخطير الذى أرسلتم من أجله سوى البشارة بالولد ؟

– لقد أرسلنا إلى قوم مجرمين عمهم الفساد ، وانتشرت بينهم الرذيلة والموبقات ، تمادوا فى الأثام ، وانغمسوا فى الإجرام ، وارتكاب المعاصى ، واقتراف الذنوب ، وهم مصرون على هذا الفعل القبيح ، وأكدوا له أنهم جاءوا متصدين لهؤلاء المجرمين بالانتقام والإهلاك ، حتى يزيلوا عن إبراهيم كل شك يساوره فى شدة هذا الانتقام والمبادرة به .

إنا أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط بصفة خاصة ، فطب يا إبراهيم نفسًا واطمئن فؤادًا ، فهدفنا هو قوم لوط ، ولست أنت أو أحد من أسرتك هدفًا لهذا العذاب .

كان لوط ، وسارة زوج عمه إبراهيم يسمعان حديث الملائكة لإبراهيم ، فنساؤهم لا تحجب عن الضيفان كعادة الأعراب ، وأهل البوادى والصحراء ، فخدمة الضيوف تعد من مكارم الأخلاق ، ومناقب الشرفاء .

كان لوط ابن أخ لإبراهيم بن آزر ، وهو لوط بن آزر وسارة زوج إبراهيم أخت لوط .

أخذ إبراهيم فى جدال الملائكة ، يجادلهم فى قوم لوط ابن عمه ، يجادلهم جدال الضعيف مع القوى ، جدال المحتاج الفقير مع الكريم الغنى ، جدال الرحمة بقوم لوط ورفع العذاب عنهم ، يعاطفهم ويطلب النجاة لهؤلاء الضعفاء الهالكين لا محالة ، فقد كانوا قومًا فاسقين ، فرقّة قلب النبى إبراهيم هى التى دفعته لهذا الطلب ، وإمهالهم لعلهم يحدثون التوبة ، ويرجعون عن الغواية .

أخذ يجادل الملائكة المرسلين حين قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ، واستمر إبراهيم فى جدال الملائكة بالحلم ، وبالرحمة على غير أهل الرحمة ، فطلبوا منه أن يكف عن هذا الجدل ، فقد قضى أمرهم ، وأوعدهم الله بالعذاب ، وسيأتيهم العذاب لا محالة ، سيفد إليهم العقاب غير مردود لا بجدال ولا بدعاء ، وأنك مأجور مثاب فيما جادلتنا لنجاتهم .

ولقد حق على قوم لوط العذاب لإصرارهم على الكفر بعد استبانة الحق لهم ، وكانت اللواطة التى اشتهروا بها من جملة أسباب العذاب .

يقال : إنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم ، وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى ، فإذا مر بهم عابر سبيل قذفوه بالحصى ، فأيهم أصابه كان

أولى به ، ومن ثم كان عقاب الله لهم برمى كتل الأحجار تدق أعناقهم ، رماهم بالحجارة ؛ لأنهم حجروا ومنعوا عن اللواطة فلم يمتنعوا ، بل رموا نطفهم إلى غير محل الحرث .

وأرسل عليهم الريح ، لأنهم كانوا يضرطون علانية فى مجالسهم ، ولا يتحاشون .

وقلب قراهم ؛ لأنهم قلبوا الحقيقة وعكسوها حيث تركوا محل الحرث وأتوا الأدبار .

لم ينج من هذا العذاب إلا لوط وابنتاه ، ومن آمن معه من أزواجهن .

البيت العتيق

كان إبراهيم عليه السلام يسكن أرض الشام ، وكان لزوجه سارة جارية تسمى هاجر ، فوهبتها لزوجها إبراهيم ، فلما ولدت هاجر إسماعيل ، اشتعلت الغيرة فى قلب سارة ، وأقسمت أن ترحل هاجر ووليدها من أرض الشام ، إلى موضع آخر فى مكان قفر ليس به ماء ولا عمارة .

لم يستطع إبراهيم أن يعترض على ما رأته سارة ، حتى يبقى على زوجه وبيته دون أن يصيبه شرخ قد يؤدى إلى هدمه .

خرج إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى أرض مكة ، وهى صحراء قاحلة ، ووضعهما بالقرب من البيت الحرام ، ومكثت ترضع وليدها عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، لم يكن بمكة يومئذ أحد ، فى مكان ليس به إنسان أو نبات أو ماء ، لا تحس فيه إلا بقيظ النهار ، وحرارة الشمس ، والتهاب الرمال والصخر ، ، وشدة البرد وقصف الريح فى المساء ، مكان تجوب فيه الحيوانات الضارية ، والهوام الرائعة ، والطيور الجارحة ، وضع عند هاجر جرابًا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، وتركهما وحيدين فى رعاية ربه ، وعاد متوجهًا إلى الشام ، وقلبه يكاد يتصدع من تركه لزوجه وفلذة كبده ، تركهما فى هذا المكان القفر ولا يعلم ما يمكن أن يصيبهما ، فربما أغار عليهما بعض البدو ، أو افترسهما بعض الوحش ، أو لدغتهما حية من حيات الصحراء ، فإن لم يكن هذا أو ذاك ، فربما اشتد بهاجر الجوع أو الظمأ ، فلا تجد كسرة من طعام ، أو شربة من ماء ، فلا تستطيع البقاء حية ، أو إرضاع

وليدها الذى يتغذى من ثديها ، فلا تجد له لبنًا يروى ظمأه ويتقوت به : يقوى به عظمه ، ويشد به بنيانه . لا شك أن وليدها الرضيع سيتلوى من حرارة الشمس ، وفناء اللبن ، وسيرتاع قلبها ويدب فيه الجزع إذا ألم بها مكروه ؛ من إغارة بدو ، أو رؤية سبع ، أو شئ من هوام الصحراء ، فهى ليست فى أمن ولا اطمئنان ، وليس لديها شئ متوافر يمكنها أن ترجع إليه إذا احتاجت له .

تبعت هاجر زوجها إبراهيم وهى تتضرع إليه ، متوسلة تناديه بصوت مرتجف يخنقه الدمع : إلى من تكِلنا فى هذا البلقع ؟ ولمن تتركنا فى هذه الصحراء المحرقة القاتلة ، وليس معنا سوى بعض التمر ، وقليل من الماء ، ينفد بعد أيام . وليس حولنا شجر نأكل ثماره ، ولا نبع نرتوى بمائه .

بقى إبراهيم متحيرًا مهمومًا دون أن يستطيع إجابتها ، وتكاد تزهق روحه أسفًا عليها وابنها ، وهو يتركهما فى هذا المكان الموحش .

بقى ساهمًا ينظر نحو الأفق ، مسددًا بصره نحو السماء دون أن يحرى جوابًا .

قالت هاجر : آلله أمرك بهذا ؟ أمرك أن تسكننى وولدى فى هذا البلقع ، فى هذا المكان الذى لا يعيش فيه إنس دون أن يهلك ؟

قال إبراهيم : نعم أمرنى الله بهذا .

كان فى إجابته راحة لنفسه من تمزقها ، أمام تضرع هاجر وخوفها على رضيعها ، وكان فى كلماته رضا لنفس هاجر التى تضع ثقتها كاملة فى ربها فإذا كان ترْك إبراهيم لهما فى هذا المكان بأمر من ربه ، فالله لا يضيعهما أبدًا .

رضيت بما قاله إبراهيم ، واطمأنت إلى قوله الذى أيده بهاتف من السماء فقد أراد الله ذلك ، وإرادة الله نافذة .

مضى إبراهيم يمشى مشيًا وئيدًا وهو واثق أن الله لن يضيعهما أبدًا ، فهذه إرادته وتلك مشيئته ، حتى إذا استوى على ثنية جبل يسمى كَداء بأعلى مكة ، استقبل بوجهه البيت الحرام ورفع يديه وتلا : ﴿ ربنا إنى أسْكَنْتُ من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناس تَهوِى إليهم وارزقْهم من الثمراتِ لعلهم يَشكرون ﴾(١) .

جعلت هاجر ترضع وليدها إسماعيل ، وتأكل التمر ، وترشف الماء . نفد التمر وانتهى الماء ، فعطشت هى وابنها ، دون أن تستطيع أن تقوم بشئ ، أو تعينه على ريّ شفتيه بقطرة ماء ، وأخذ يتلوى أمام بصرها فلم تستطع أن تتحمل رؤيته وهو يتألم ، فحولت وجهها عنه حتى لا تراه وهو بهذه الحال ، تكاد تجن وتفقد عقلها . صعدت الصفا تنظر هنا وهناك ، وتلفتت يمنة ويسرة ، لعلها تبصر أحدًا يمد لها يد العون فلم تجد ، ثم نزلت أسفل الوادى ، وسعت فى هرولة كسعى الإنسان المجهد حتى بلغت المروة ، ونظرت آملة أن تبصر أحدًا لعله ينقذها من الضياع ، ويأتى لها برشفة ماء ، أو تمرة بلح فلم تجد . فعلت ذلك أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يحدوها الأمل فى أن تجد أحدًا ينقذها مما هى فيه ، سبع مرات تهرول بين الصفا والمروة ، ولكن هيهات . وأخيرًا عندما أشرفت على المروة خيل إليها أنها تسمع صوتًا ، فأرهفت السمع لعله يكون حقيقة ، وأن هذا الصوت ليس من تهيآتها .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٧

فإذا هى بملك عند موضع زمزم يوالى الحفر ويضرب بجناحيه فى قلب الأرض ، فيندفع من باطنها ماء مصحوب بصوت زم زم ، فسمى المكان باسم هذا الصوت " زمزم " فشربت ورويت ، وأرضعت وليدها حتى سكن وهدأ صراخه ، وشكرت ربها على هذه المنة التى أنقذتها هى وابنها من الهلاك .

قال الملك لا تخافى الضياع يا أمة الله ، فإن هاهنا بيته وسيبنيه هذا الولد وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله .

روى أن الكعبة المشرفة بنيت خمس مرات :

إحداهما : حين قامت الملائكة ببنائها قبل آدم عليه السلام ، وكانت من ياقوتة حمراء ، ثم رفعت إلى السماء أيام الطوفان .

والثانية : بناء إبراهيم عليه السلام لها بمعاونة ولده إسماعيل ، إذ كان لا يدرى أين يقيم البناء ، فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها ، فكنست ما حول البيت ، فأقام بناءها على قواعدها القديمة .

الثالثة : بناء قريش قبل مبعث النبى محمد ﷺ ، وكان الرسول قد حضر بناءها، فلما أرادوا رفع الحجر الأسود اختصموا فيه، ثم اتفقوا أن يرفعه أول قادم عليهم، وكان الرسول ﷺ هو ذلك القادم ، فجعلوا الحجر فى مِرط - كساء من صوف - ثم رفعوه جميعًا إلى أن رفعه الله ووضعه فى مكانه .

والرابعة : بناها عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .

والخامسة : بناء الحَجاج ، وهو البناء القائم حتى اليوم .

* * *

دعاء إبراهيم

كان إبراهيم يرفع القواعد التى كانت ثابتة مستقرة فى الأرض : يرفع الأساس ، وولده إسماعيل يناوله الحجارة ، الأب يبنى والابن يناول ، مما يقطع بأن أساس الكعبة كان قائمًا من قبل .

وعندما كانا يرفعان القواعد ، ويعلوان بالبناء وهما يدعوان ربهما أن يتقبل منهما هذا العمل العظيم ، اللذين بذلا فيه كل الجهد ، التمسا من ربهما أن يتقبل دعاءهما ، فهو السميع للدعاء ، المجيب للتضرع ، العليم بالنوايا فى جميع الأحوال .

ربنا واجعلنا مخلصين لك ، وقرب ذريتنا إليك بالطاعة والعبادة لك ، وبصرهم بمناسك الحج ، حتى تؤدى فى عزم أكيد ونيّة خالصة ، وتب علينا وعلى ذريتنا مما بدر منا على سبيل الغفلة والسهو ، وتجاوز عن كل سيئاتنا ، عن فأنت التواب الرحيم لمن أذنب وعصاك .

* * *

ربنا إنك تعلم ما يخفى عبادك ، وما يعلنون من حاجاتهم ، وليس الغرض من إظهار هذه الحاجات أنها غير معلومة لديك .

فأنت تعلم السر وأخفى ، ولكننا بذلك نظهر العبودية لك ، والافتقار إلى رحمتك ونوال عطائك .

ليس فى مقدورنا أن نخفى على علام الغيوب شيئًا ، فأنت مطلع على كل صغيرة وكبيرة فى الأرض وفى السماء ، فى هذا الكون الرحيب كله ، لا يغيب عنك شئ ، ولا تفلت منك حركة أو نأمة .

وإنى أحمدك يا رب أن وهبتنى على كبر سنى ، ويأسى من الإنجاب ، وهبتنى إسماعيل ، وهبته لى وأنا شيخ فانٍ كبير السن ، بادى العقم ، وسميته إسماعيل ، لأن كلمة إسماعيل تعنى أن يرزقنى الله بولد وأقول أسمع يا إيل ، وإيل هو الله سبحانه ، فلما رزقت بهذا الولد سميته بهذا الاسم تبركًا به ، رزقت به وأنا فى السادسة والثمانين من العمر .

ورزقنى بولد آخر هو إسحق ، فكان فضلك عميمًا ، ورزقك كثيرًا ، وسميته إسحق ، ومعناه بالعبرانية : الضحاك ، وقد ولد لى إسحق وقد تجاوزت المائة سنة ، فهذا فضلك ، وتلك رحمتك ، فأنت الشفيق بعبادك ، الرحيم لمخلوقاتك .

* * *

﴿ رب اجعلنى مُقيمَ الصلاةِ ومِن ذريتى ربنا وتقبلْ دُعاء ﴾[١] .

واجعلنى يارب مطيعًا لك فى أوامرك ، أؤدى صلاتك أنا وذريتى من بعدى ، بعض ذريتى وليس جميعها ، إذ أن من ذرية إبراهيم وإسماعيل ناسًا يكفرون ، فاجعل بعض ذريتى تقيم الصلاة وتثبت على أدائها ، وتجتنب عبادة الأصنام والطواغيت .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤٠

رب اغفر لى ما فرط منى من ترك الأولى ، مما لا يسلم منه بشر واغفر لوالدىّ ، فإنى أستغفر لهما طمعًا فى هدايتهما ، إذ أن أمه أسلمت ، فأراد أن يُسلم أبوه آزر ، وينعم بدخوله الإيمان ، ويبعد عن الشرك الزائف ، والأصنام الباطلة .

اللهم اغفر للمؤمنين كافة من ذريتى وغير ذريتى ، مكتفيًا بذكر المؤمنين دون المؤمنات ، إذ أنهن تبعًا لهم فى الأحكام .

اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين جميعًا ، يوم يأتى حساب المكلفين ، القائم على عدلك ، ورحمتك ، وغفرانك .

يا رب جنب ذريتى عبادة الأصنام ، وثبتهم على التوحيد وملة الإسلام .

ولذا بقيت كلمة التوحيد ثابتة فى عقبه ، فلا ينقضى زمان ، أو يفوت قرن إلا وفى ذريته من هو أهل للتوحيد إلى زمن رسولنا محمد ﷺ .

رب إن الأصنام قد أضلت كثيرًا من الناس ، وأبعدتهم عن العبادة الحقة ، عبادتك وحدك دون شريك .

يقال : إن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام ، وتتكلم بما يفتن الناس وتغريهم عن دين التوحيد .

ومن يتبعنى فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام ، فهو منى لاينفك عنى .

ومن يعصاك ويخالف دينك ، فأنت يا رب قادر على الغفران والرحمة بعد أن يتوب ، بل قبل أن يفكر فى التوبة ، فكل ذنب تغفره إلا الشرك بك : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويَغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(١) .

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨

فثوابك للمطيعين ، ورحمتك بالمؤمنين ، وكما نرجو منك الثواب نسألك الرحمة ، فأنت ذو الفضل العظيم ، والمنة الفضلى التى لا منة ولا فضل بعدها .

استمر إبراهيم فى الدعاء أن يبعث الله فى ذريته رسولاً يحفظ دعوته ، ويتلو على الناس ما أنزل عليه من دلائل التوحيد والنبوة ، ويعلمهم الحكمة والأحكام الشرعية ، ويطهرهم من دنس الشرك وعبوديتهم للصنم ، فأنت يا رب قوى لا تغلب ، قادر لا يقهر .

استجاب الله لدعاء صفيه وخليله ونبيه إبراهيم ، فبعث الله الرسول محمدًا صفوة المرسلين ، يتم الرسالة ، ويؤدى الأمانة ، وينادى بالتوحيد .

لم يكتف إبراهيم بأن يخلص فى دينه تجاه ربه ونحو نفسه ، بل وصى بذلك نبيه إسماعيل وإسحق ، ووصى بها يعقوب أبناءه يوسف وأخوته ، بأن الله اختار لهم صفوة الأديان : دين الإسلام ، فإذا صادفكم الموت فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ، مخلصون بالتوحيد .

ولكن أهل الكتاب الذين رغبوا عن ملة إبراهيم ، وأهملوا عقيدة الإسلام ، وزعموا أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية مضلون .

فهل شهدوا وصية يعقوب بأن يتبعوا اليهودية دون الإسلام ؟ أراد يعقوب أن يقرهم على الإيمان بالله وتوحيده ، حين قال لهم ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد ألهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وهم جميعًا اتفقوا أن الله واحد لا شريك له ، ينفرد وحده بالعبودية والطاعة ، ونحن معترفون بذلك مسلمون به .

قالت اليهود للنصارى كونوا هودًا ، فنبينا موسى هو أفضل الأنبياء ، وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، واكفروا بغير التوراة من الكتب الأخرى : إنجيلاً أو قرآنًا ، ولا تتبعوا عيسى أو محمدًا .

وتقول النصارى لليهود ، كونوا نصارى ولا تتهوّدوا ، فنبينا عيسى أفضل الأنبياء ، وإنجيلنا أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، واكفروا بموسى وبمحمد ، وانبذوا التوارة والقرآن ، فإذا دخلتم فى النصرانية وجدتم الهداية والرشاد ، وابتعدتم عن الضلال والغواية .

ولكن محمدًا ﷺ الرسول الخاتم لم يقبل هذا الجدل بين اليهود والنصرانية ، فدين إبراهيم هو الدين الحق الذى لا انحراف فيه ، وإبراهيم لم يكن من المشركين ، وموسى وعيسى عليهما السلام من أنبياء الله اللذين لا مطعن فى رسالتهما ، ولا شبهة فى دعوتهما ، وإيمانهما خالص لوجه الله سبحانه ، ولكن الرسول محمدًا ﷺ أراد أن يعرض بشرك اليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله ، ويشير إلى تجديف النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله .

أما المسلمون فهم يؤمنون بالله وحده ، وما أنزل من القرآن على نبيهم محمد ، وما هبط من الصحف العشر على سيدنا إبراهيم ، وما دعا إليه إسماعيل وإسحق ويعقوب ، ومن جاء بعدهم من الأبناء والأحفاد .

المؤمنون أدركوا رسالة موسى وما أنزل عليه من التوارة .

وتمثلوا رسالة عيسى وما جاء به من الإنجيل . لم يؤمنوا بالتوارة والإنجيل وحدهما ، بل آمنوا بكل ما أنزل على الأنبياء جميعًا من الله سبحانه ،

لا يفرقون بين أحد من رسل الله ، ولا يجحدون كتابًا من كتب الله ، كاليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فهم مؤمنون مخلصون مذعنون لجلال الله ، وكالنصارى الذين حرفوا آيات الإنجيل وزعموا أن المسيح ابن الله .

فإن أعرض اليهود والنصارى عن الإيمان ، أو آمنوا ببعض ما فى الكتب وكفروا ببعضها الآخر ، فإنما هم فى شقاق لا فى وفاق ، وكل فريق فى شق غير شق صاحبه بسبب ما بينهما من عداوة ، واختلاف لا يرجى معه اتفاق ، لا فى الرأى ولا فى الاتباع .

فالاختلاف يدب بينهم ، والشقاق يسود آراءهم وعقائدهم ، ولكن عقيدة الإسلام وشريعة إبراهيم ، واتباع الملة الحنيفية التى لا إشراك فيها ، هى التى تسود ، وتخفق رايتها على العالمين .

تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأحفاده كانوا هودًا أو نصارى ، هذا محال ؛ لأنهم بعثوا قبل نزول التوارة والإنجيل ، وقبل مجئ موسى وعيسى ، فهى دعوى باطلة ، وافتراء كاذب .

كتموا شهادة الله على إبراهيم ونسله بأنهم كانوا حنفاء مسلمين ، وليس أظلم ممن كتم هذه الشهادة ، فالله محيط بما يفعلون وما يذرون ، ويعاقبهم بسبب كتمانهم أشد العقاب .

وليس ثمة من هو أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله ، وأذعن للواحد الديان ، وحاله أن يتزود بالحسنات ويبتعد عن السيئات ، ويرى فى تقديم

الإحسان اتباعًا لملة إبراهيم خليل الله ، فدين إبراهيم يتفق ودين الإسلام ، وقد اصطفى الله إبراهيم واختصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله .

جعله خليلاً له رغم كثرة عباد الله المخلصين المكرمين فى الأرض وفى السماء ، فالله يختار من يشاء ولا معقب لاختياره ، ولا راد لاصطفائه .

وفطرة الله السليمة المجبولة على حب الخير واللجوء إلى الإيمان هى صبغة الله لكم ، وهى أفضل من صبغة الثوب ، فصبغة الله تزدانون بها بدلاً من صبغة النصارى ، حين يصبغون أولادهم فى أسبوع الولادة مكان الختان للمسلمين . فكانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه التعميد أو المعمودية .

فصبغة الله هى الأفضل ، وهى الأحق بالاتباع ، وأن يكون المرء سائرًا على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى الإيمان والتطهير من أوضار الكفر ، ونجس الشرك ، فلا صبغة أحسن من صبغة الله ، ونحن نعبده ونطيعه ؛ شكرًا لنعمه ، وامتثالاً لفضله .

زعمت اليهود والنصارى أن الأنبياء كانوا على دينهم ، بينما قد أدخلوا بأنفسهم على كتبهم التحريف والتبديل ، وزعموا أن دينهما هو دين الله ، ولا وجه للجدال أصلاً بين الأديان ، فالدين كله لله ، والله مالك أمرنا وأمركم ، ولنا أعمالنا الحسنة الموافقة لأوامره ، ولكم أعمالكم السيئة المخالفة لدين الله ، فكيف تدعون أنكم أولى برعاية الله منا ، ونحن مخلصون له بأعمالنا وأقوالنا وقلوبنا ، ولا نبغى بها سوى وجهه الكريم تعالى .

أى الأمرين تأتون ؟ إقامة الحجة على ما أنتم عليه وادعيتم ، أم تشبثكم بالافتراء على الأنبياء وتقليد الأسلاف .

والله يوبخهم على ما ادعوا وافتروا ، فهم كتموا شهادة الله على إبراهيم ، وعلى أبنائه وأحفاده ، بأنهم كانوا حنفاء مسلمين .

﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين ﴾(١) وليس أحد بأظلم ممن كتم هذه الشهادة .

والنبى محمد ﷺ كان على دين إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء ، كان على دين إبراهيم فى الأصول ، لأن إبراهيم كان يدعو إلى التوحيد ، والبراءة من الشرك بكل وجه من الوجوه ، فجاء محمد ﷺ ليؤكد على دين أبى الأنبياء ، ويواصل رسالة إمام البشر ، ويذيعها فى كل مكان يصل إليه صوت كائن من الكائنات ، أو يتنفس فيه أحد المخلوقات .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٧

الحجيج

بقى إسماعيل مع أبيه إبراهيم بجوار الحرم ، وسكنا مكة ، وهى أرض حجرية لا نبات فيها ولا زرع .

هكذا كان شأنها فيما مضى حين كان إبراهيم وولده إسماعيل يقيمان فيها ، سكنا عند البيت الحرام ، حرام لأنه عظيم الحرمة ، وقد حرم الله التعرض له بسوء ، حرم فيه القتال ، وحرم الصيد ، وأن يدخله أحد دون إحرام ، ومنع عنه الطوفان فلم يغرق فيه ، ولذا سمى بالبيت العتيق ، لأنه اعتق من كل أذى وسوء .

سكن إبراهيم وولده إسماعيل هذا البلقع الخالى من مظاهر الحياة ، فلا غرض لهما دنيويًا فى سكن هذا المكان القفر . لا غرض لهما إلا إقامة الصلاة فيه ، إذ هى الأصل فى إصلاح النفس وطهارة القلب ، فاجعل قلوب الناس تفيض إلى هذا المكان شوقًا وتطير محبة ، لعلهم يشكرون الله على نعمة الصلاة التى أسبغها عليهم ويسرها لهم .

* * *

بعد أن أقام إبراهيم البيت الحرام بمساعدة ابنه إسماعيل ، أمره الله أن يؤذن فى الناس ، يناديهم ليقبلوا على الصلاة فيه ، فقال : يا رب وما يبلغ صوتى ؟ قال عليك الأذان وعلىّ البلاغ ، فصعد إبراهيم الصفا ، ونادى بصوت جهير أيها الناس : ألا إن ربكم قد بنى بيتًا ، وكتب عليكم الحج إلى

البيت العتيق فأجيبوا ربكم ، وحجوا بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار ، فسمعه أهل السماء وأهل الأرض وما بينهما ، فما بقى شئ سمع صوته إلا أقبل وهو يقول : " لبيك اللهم لبيك ، فأول من أجاب أهل اليمن ، فهم أكثر الناس حجاً ، ولذا جاء فى الحديث : " الإيمان يمان " وفيه أيضًا " وإنى لأجد نفَس الرحمن من قبل اليمين " .

ومن المؤمنين من كان يقبل على البيت ماشيًا على قدميه مهما طالت المسافة ، وبعدت الشقة ، وشط المزار .

ومنهم من يأتى راكبًا على بعير ضامر هزيل ، يغوص بأخفافه فى باطن الرمال ، وينتزعها فى جهد عسير ، ويسير على ذلك بالليل وبالنهار ، فهزل هو وراحلته من عناء السفر ، ووعثاء الطريق .

كان يأتيه المشاة والركبان من كل مكان ، ومن أى طريق ، ومن كل ناحية وفج ، مهما كان الموطن بعيدًا والسفر طويلاً ، أتوا ليشهدوا منافع لهم، تعود عليهم بالخير والنفع .

منافع دنيوية كالتجارة ، وأخروية من أجل العفو والغفران ، وهم فى أثناء ذلك يذبحون الهدى ، ويُعدون الضحايا ، ويذكرون اسم الله عند ذبحها يذبحونها أيام النحر ؛ اعترافًا بفضل الله عليهم ، فقد رزقهم الخير متمثلاً فى الثروة ، وخيرها عند الأعراب الأنعام من إبل وبقر وضأن وماعز ، لأن الأضحية لا تكون إلا من هذه الأنواع ذكرا كان أو أنثى ، ولا تجوز من غيرها كالخيل والبغال والحمير .

منافع دنيوية وأخروية من نوع خاص لا توجد فى غير الحج من العبادات .

يأكلون من الأضحية ، ويطعمون البائس والفقير ، فينالون الثواب والرضوان .

وحين يضحى الغنى ، ويشارك الفقير فى المآكل والمشرب ، لا يطعمه إلا مما يأكل ، ولا يجعل لله ما يكره ، فلا يتصدق بالهزيل دون طيب نفس منه ، ويوفر لنفسه السمين فيستحوذ على أطايبه ومحاسنه .

وبعد أن يضحى ينظف جسده ، ويزيل وسخه ، ويحلق رأسه ، ويقص شاربه وأظفاره ، وينتف إبطه ، ويصبح نظيفًا طاهرًا .

هكذا أراد دين الإسلام وشريعة إبراهيم ، أن يؤدى المسلم شعائر الحج ، فيشعر بأنه مثل غيره من سواد الناس ، لا يتميز عنهم فى شئ ، لا يلبس إلا رداءً وإزارًا ، عاريًا من كل شئ ، يلقى الله فى دنياه كما يلقاه فى آخرته .

ومن يذهب فى رحلة الحج يبغى ثواب الله ورضوانه ، عليه أن يتحنّف، فتتسم أفعاله بالاستقامة ، والميل إلى الحق والخير ، ولا يكون حاله كحال من يهوى من مكان عالٍ ، وهو فى أثناء سقوطه وقبل أن يصطدم بالأرض تخطفه الطير وتتناوشه الكواسر ، ولا يدرى كيف يستقر به المقام ، أو يهوى بفعل الرياح إلى مكان سحيق فى مهاوى الأرض ويغيب فى باطنها .

ومن يعظم شعائر الحج ، ويسوق الهدى ، ويتقرب به إلى الله ، فقد فعل أجلّ القربات وأعظمها ، وتعظيمها يكون باختيارها حسانًا سمانًا غالية الأثمان .

أجل فى الهدْى منافع لصاحبه ، منافع فى ألبانها ، ونسلها ، وصوفها ، وظهرها بحمل متاعه عليها ، فإذا استقرت فى الحرم ، ينحرها خالصة لوجه الله الكريم .

هذه الأنعام شرعها الله ، وجعلها من علامات نسك الحج ، فهى شعيرة من شعائره ، فيها نفع كثير ، وخير عظيم فى الدنيا والعقبى .

ونحن لا ننال رضا الله بأكل لحومها ، أو إراقة دمائها ، من حيث إنها لحوم ودماء ، ولكن القصد من وراء ذلك ، هو رضا الله ، ونوال تقواه ، والاحتراز عن الحرام والشبهات .

* * *

الذرية

لقد وهبنا لإبراهيم ابنه اسحق كما وهبنا له إسماعيل .

وهدينا نوحًا من قبل إبراهيم ، وجعلنا من ذرية نوح داود بن إيشا ، وسليمان بن داود ، وأيوب بن رازخ ، ويوسف بن يعقوب ، وموسى بن عمران ، وهرون أخا موسى ، وجازينا كلا على قدر استحقاقهم وإحسانهم ، ذلك الجزاء البديع ، وأثنى الله عليهم لإتيانهم الأعمال الحسنة على الوجه اللائق بها .

ووهبنا لنوح زكريا بن أذن ، وسلسلته تنتهى إلى سليمان ، ويحيى بن زكريا ، وعيسى ابن مريم ابنة عمران ، وإلياس ابن أخ هرون أخى موسى ، وكل منهم كان مكتملاً فى الصلاح والتقوى .

وهدينا إسماعيل كما هدينا نوحًا ، واليسع بن أخطوب ، ويونس بن متّى ، ولوطا بن هاران ابن أخى إبراهيم ، حيث فضلناهم على من كان فى زمنهم بالنبوة .

ووهبنا لإبراهيم يعقوب بن اسحق ، وأرشدناهما إلى الفضائل الدينية ، وهديناهما إلى دعوة الإيمان .

وفضلنا بعض آباء المذكورين كآدم وشيث وإدريس . ومن آبائهم من لم يكن نبيًا ، ولا مفضلاً مهديًا . وفضلنا بعض ذرياتهم ، كبعض أولاد يعقوب وإخوانهم كإخوة يوسف ، حيث اصطفاهم الله وأرشدهم إلى طريق الحق وسبيل الهداية .

وذلك الهدى هو هدى الله يهدى به من يشاء ، يهدى به من لديه استعداد للهداية والإرشاد ، ولو أنهم أشركوا بالله لبطل ما كانوا يعملون من صالح ، فكيف بغير الأنبياء ؟ لا شك أن هذا غاية فى الترهيب لعامة الناس لئلا يأمنوا غضب الله .

هؤلاء الأنبياء الثمانية عشر آتيناهم الكتاب وأفهمناهم لها حق الفهم ، ومكناهم من الإحاطة بجلائلها ودقائقها ، ومنحناهم الحكمة وفصل الخطاب على ما يقتضيه الحق والصواب ، وتوجنا كل ذلك ، فمنحناهم النبوة والرسالة ، والدعوة إلى الإيمان .

فإذا كفروا بها : بالكتاب والحكم والنبوة ، فقد وفقنا للإيمان بها قومًا ليسوا بكافرين .

وهؤلاء الأنبياء الذين هداهم الله إلى الحق والمنهج القويم ، اقتد بهم يا محمد ولا تقتد بغيرهم .

كل نبى اشتهر بصفة من الصفات فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعم .

وأيوب كان من أصحاب الصبر على البليّة .

ويوسف كان جامعًا بين الصبر والشكر .

وموسى كان من أصحاب المعجزات القاهرة .

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب زهد .

وإسماعيل كان صاحب صدق .

فكل منهم غلبت عليه خصلة معينة . وجمع الله كل هذه الخصال في حبيبه محمد ﷺ .

هؤلاء الأنبياء ذوو قوة فى الطاعة ، وبصيرة فى أمور الدين ، يذكرون الآخرة دومًا ، إذ لا همّ لهم غير العقبى ، وهم مستغرقون فى شوق إلى لقاء الله فالدنيا معبر إلى الآخرة ، والآخرة هى دار الحقيقة التى يستقر فيها الناس ، سواء أكانوا طائعين أم عصاة .

وما ذكرنا من الأنبياء ذكرهم الله تشريفًا لهم ، وذكرًا جميلاً يذكرون به أبدًا ، كما يقال : يموت الرجل ويبقى ذكره .

فلهم المثوبة من الله فى الدنيا من الثناء الجميل ، وحسن المرجع فى الآخرة من التكريم العميم .

فلهم جنات يقيمون فيها . إذا وصلوا إليها ، تستقبلهم بأبواب مفتوحة، تستقبلهم ملائكة الرحمن بالتبجيل والترحيب والتكريم ، يقولون لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدار ﴾ (١) .

ويجلسون فى هذه الجنات جلسة المتنعمين للراحة ، متكئين على الآرائك ، لا حر ولا زمهرير ، يجدون فيها كل ما تشتهيه النفس من ألوان الفاكهة ، يأكلون للتلذذ لا للغذاء ، وأنواعًا من الشراب خمر وعسل ولبن ، وزوجات قصرن أعينهم على أزواجهم لا ينظرن إلى غيرهم ، أتراب مستويات فى السن ، ولا عجوز بينهن ولا صبية ، عربا أترابا .

* * *

---

(١) الرعد ٢٤ .

إن رسالة الأنبياء فى مجملها شئ واحد ، هـى دعوة إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان والكواكب والنجوم ، ومهمتهم التيسير لأهل الطاعة بالجنة ، والإنذار للعصاة بالنار . قد كلفوا بهذه المهمة حتى تنقطع الحجج والأعذار يوم القيامة ، فلا يقولون متعللين بأن الله لم يرسل إليهم الرسل ليبينوا لهم ما يجب اتباعه من الشرائع ، وما ينبغى أن يصدوا عنه .

فالذين يكفرون بما أنزل الله ، ويصدون عن سبيل الله ودعوة الحق ، يتمادون فى الكفر والضلال إلى حد لا نهاية له ؛ لأنهم ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم .

وملة الإسلام هى فى أصلها ملة إبراهيم حنيفًا التى تميل عن الأديان المنحرفة كلها ، ولم يكن إبراهيم مشركًا فى أمر من أمور الدين أصلاً أو فرعا .

والنبى الرسول الأعظم محمد كان على دين إبراهيم فى الأصول ، لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد ، ونبذ الشرك بكل وجه من الوجوه .

* * *

وفاته

اكتملت نعمة الله على نبيه إبراهيم :

نجّاه من النار وأنقذه من سعيرها حين ألقاه القوم فى نبيانها ، وصارت بردًا وسلامًا عليه ، فلم يشعر بحرقها ولا بسعيرها .

واحتوته رعاية الله ، حين رزقه على الكبر والشيخوخة ولدين صارا من أنبيائه المختارين إسماعيل وإسحق ، وإسماعيل جاء قبل إسحق بأربع عشرة سنة .

واستجاب الله دعاءه حين طلب للبشرية من بعده :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(١) ، فبعث الله على المدى محمدًا خاتم المرسلين ليحقق أمنية إبراهيم ويلبى رجاءه .

عاش الرسول إبراهيم حياة حافلة بالدعوة إلى الله ، وواجه قومه ، وملكهم النمرود الذى يمثل الطغيان والصلف ، والظلم وإيثار الحياة الدنيا .

ولما انتهت مهمة الرسالة أسلم روحه لبارئها ، مات فجأة فى سلام ودعه ، ودفن فى مغارة المكفيلة بقرية حبرون فى البلدة المعروفة اليوم باسم الخليل .

تولى دفنه إسماعيل وإسحق عليهم السلام .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٩

ماتت قبله زوجه سارة ، ودفنت معه فى نفس المكان ، ولها من العمر مائة وسبعة وعشرون عامًا ، ومات إبراهيم وعمره مائة وخمسة وسبعون عامًا ، ودفن إسماعيل وله من العمر مائة وسبعة وثلاثين عامًا ، ودفن هو وأمه هاجر بمكان يسمى الحجر بجوار البيت الحرام .

وبذلك طويت صفحة إمام البشر وأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، ولكن نور رسالته ، ووهج تعاليمه ، ما زال ضوءها يشع فى كل مكان ، على مر الأزمان .

نعجـــــة داود
عليــــه الســـــلام

" إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة "

سورة ص آيه ٢٣ .

طالــوت

غلبت العمالقة الذين كانوا يسكنون غــزة وعسـقلان علـى بنـى إسـرائيل ، وقتلوا منهم خلقـًا كثـيراً ، وأسـروا أولادهـم جميعـًا ، فعمهـم الخـراب واستولى عليهم الأسى والندم ، حين انقطعت عنهم النبوة ، وكانت النبوة فى سبط لاوى ، لم يبق منهم إلا امرأة حبلى ، دعت ربها وهى تصلى أن يرزقها ولدًا ذكرًا ، حتـى يرأب الصدع ، ويجمع الشمل ، وتعود النبوة مرة أخرى إلى ولـد لاوى ، فولـدت غلامـًا أسمته أشمويل ، ومعناه بالعبرية إسماعيل ، أى اسمع الله ندائى ، وحقق آمالى، واجعله ولدًا طيبـًا ذكيـًا ، يزن الأمور بالميزان الصحيح ، ويجمع بنى إسـرائيل بعـد أن انفرط عقدهم .

لما ترعرع إشمويل وأخذ يدرك ما هو له من أشياء ، بعثته أمـه إلى المسـجد ، وأسلمته لرجل صالح ليؤدى العبادة ، ويتعلم الخير على يديه ، وصار منكبـًا علـى العبادة ، منصرفـًا عن ما حوله من رغبات الفتيان حتى إذا بلغ أشده ، جاءه جبريل يناديه المرة تلو المرة ، وهو نائم فى ناحية المسجد ، ناداه ، فسمع نداءه ، لم يتوقـع أن يناديه أحد ، فليس فى المسجد أحد سواه ، فمن أين يأتى هذا الصوت ، وممـن يخرج هذا النداء ؟ .

انتبه مذعورا ، وتلفت حوله عله يجد أحداً ، ولكنه لم ير أحـدًا ، و لم يبصـر شيئـًا ، لم يفطن إلى جبريل وما جاء به ، واختلـى بنفسـه للعبـادة كدأبـه دائمـًا ، حتى استرسل فى نوم عميق .

ناداه جبريل للمرة الثالثة ، يبشره بأن ربه اختاره نبيـًا وبعثه إلى قومه ، فقـم يا إشمويل وأدّ ما طلب منك ، فأنت رسول ربك إلى قومك بلغهم أن يؤدوا العبادة للرب ، والتقوى فى معاملة الناس ، والوقوف ضد أعداء الدين .

كان إشمويل معروفًا بين قومه من بنى إسرائيل بالصلاح والتقوى ، يعاملهم فى رفق ، ويعينهم على قضاء حوائجهم ، وإذا حدث بينهم نزاع أصلح بينهم ، فكانوا يجلونه ويحبونه ويطيعونه .

كان إشمويل يعيش بين قومه الذين أنهكتهم الحروب ، ومزقت شملهم الفتن ، وفرقت جمعهم المكائد ، ودخل نفوسهم الوهن من قهر الأعداء لهم .

سألوه أن يُنصبِّ لهم ملكًا يكونون تحت طاعته ويأتمرون بأمره ، ويقاتلون الأعداء معه ، وسيتبعونه بكل جوارحهم ، من ورائه وبين يديه ، ينفذون كل ما يطلب منهم .

قال إشمويل :

– إنى أخشى إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا .

– وأى شيء يمنعنا من القتال وقد أخرجنا من ديارنا ، وسلبت أموالنا ، وقتل شبابنا ، وأسر أبناؤنا ، ونحن مهزومون مقهورون ، وجدير بنا أن نقاتل عن أنفسنا المنكسرة ، وعن أولادنا المقهورين ونسترد أموالنا السليبة .

أبناؤنا مأسورون ، وهم فى قبضة أعدائنا ، يذلونهم ويسخرونهم ، وقد سخروهم وأحالوهم إلى عبيد لهم ، يؤمرون فيطيعون ، ويسألون فيستجيبون .

حقق إشمويل رغبتهم وعين عليهم ملكًا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ، رجعوا ونكصوا على أعقابهم .

كان المُلك فى سبط يهوذا ، ولكن الله بعث لكم طالوت بن قيس ملكًا عليكم ، الذى ينتهى نسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام .

كان طالوت من سبط بنيامين ، ولم يكن سبط يهوذا الذين استقر لهم الملك ولم يخرج عنهم ، فنفروا من طالوت ، وطعنوا فى إمارته عليهم .

ارتفعت أصواتهم يندون بطالوت ، فهو لا يصلح أن يكون ملكًا عليهم ، ليس هو من سبط يهوذا ، والملك ينبغى أى يخرج من سبطه ، لا يخرج عنا ، فنحن أولى به منه .

- نحن أحق بالملك منه ، فهو فقير لا سعة له من المال ، ولادرية له بالحكم، فكيف تختاره علينا يأمرنا فنطيعه ، ويسألنا فنجيبه ؟

قال إشمويل :

- إن الله قد اختاره من بينكم ، واصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم ، فهو على علم بشأن الحروب ، وخطط القيادة ، يعرف غدر الأعداء وكيدهم ، ويبلى فى الحرب بلاء حسنًا .

وزاده بسطة فى الجسم ، مهيبا بين القوم، بفيح رجولته، ونضرة وجهه، فهو أعلمكم وأقواكم ، وأتقاكم . والله يؤتى ملكه من يشاء ، فله الحكم ، وإليه المرجع .

لقد سلب منكم - يا بنى إسرائيل - التابوت ، وقهركم عليه الأعداء واستولوا عليه . هذا التابوت : طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وفيه بقية من رضاض الألواح مما ترك آل موسى وآل هرون ، وفيه شيء من المن الذى كان ينزل عليهم وهم فى التيه ، وترامى الصحراء .

سوف تأتيكم الملائكة بالتابوت ، أمامكم يحملونه ، وأنتم ترونه عيانًا ، ليكون آية الله لكم ، وحجة باهرة على صدق ما أقول ، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم .

أذعن الجنود لطالوت ، لملكهم الجديد ، ودانوا له بالطاعة ، وتنفيذ ما يـأمر به وينهى عنه ، فلم يكن أمامهم من سبيل إلا أن يفعلوا ذلك .

أراد الله أن يختبر جنود طالوت ويمتحنهم ، فإذا سلكوا الأردن وعبروا نهره ، فمن يشرب من هذا النهر فليس مع طالوت ، وعليه أن يجتنب مصاحبته فى القتال ، ومن يغترف من النهر بيده ويشرب من كفه ، يمكنه أن يكون فى صحبة طالوت ويقاتل بجانبه .

كلهم شرب من النهر ، إلا حفنة قليلة شربت بكف يدها .

كانت عدة الجيش تقرب من الثمانين ألفًا ، تزيد أو تنقص قليلاً ، شرب منه كثرتهم ، أما الحفنة القليلة التى لا تزيد عن أربعة آلاف رجل فهى لم تتناول الماء إلا بكف يدها ، فقد صحبوا طالوت ، واستمروا معه فى السير متوجهين للقتال ، إلا أنهم استضعفوا أنفسهم لقلة عددهم وضعف شكيمتهم ، فأنى لهم ومقاومة أعدائهم ، الذين اشتهروا بشدة القتال ، وبراعتهم فى الحرب والنزال ، وبطشهم بمن يلاقونه ويقع تحت أيديهم . غير أن الكثرة من هذه الحفنة القليلة الضعيفة نصحوهم بالصبر على البلاء ، ومواصلة الجلاد ، ومتابعة الطعان ، وينبغى عليهم الصمود وأن لا يفروا من المعركة، أو ينكصوا عن مواجهة الأعداء ، فالله ناصر من ينصره ، وهو معهم لا محالة ، ماداموا يتمسكون بالصبر والإيمان .

استمعوا لنصح مليكهم طالوت ، وطالبوا من الله أن ينصرهم على عدوهم، وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ، وأن يغمرهم بالصبر والسكينة فى حومة الوغى ، وقسوة القتال .

استجاب الله دعاءهم ، وحقق لهم ما سألوا ، وأنالهم ما رغبوا فيه من النصر ، وهزيمة الأعداء .

هزموا الأعداء بقدرة الله ، وانتصروا بحوله ، مع كثرة أعدائهم وكمال عدتهم .

* * *

جالـــوت

كان جالوت على رأس الأعداء ، وقائدًا مـن قوادهـم الذيـن اشتهروا بالبطش والقوة ، وإذلال المقاتلين مهما كان شأنهم ، وكان داود مع طالوت من بنى إسرائيل ، وجالوت كان قائداً من قواد الأعداء . فقتل داود جـالوت قتـلاً أذل بـه جنده ، وقوض جيشه ، وليس أشق على نفس العدو من غزوة يقتـل فيهـا القـائد، وتقسيم الغنائم بين الخصوم ، وتوزيع الأموال عليهم ، ويؤسر الأبطال والشجعان، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، وينتصر أولياء الله على أعداء الله، ويظهـر ديـن الحق على زيغ الباطل .

داود أصغر أولاد أبيه ، وكان مع إخوته ثلاثة عشـر ذكـرًا ، وكـان يحـرض قوم طالوت على قتـل جـالوت وجنـده ، ووعـد الملـك بـأن مـن سيقتل جـالوت سيزوجه ابنته ويشركه فى ملكه .

وعندما التقى الجمعـان وتقابل الجيشـــان ، جيش طالوت الملـك ، وجيـش جالوت العدو . برز جالوت ودعا أن ينازله أحـد فرسـان الملـك طـالوت . فهـو الفـارس الـذى لا يشق لـه غبـار ، وهـو الـذى يقهـر الملوك والقـواد . ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه أو ينازلـه بالسيف أو بـالرمح أو بـأى آلـة مـن آلات الحرب .

برز له داود دون تهيب ، يريد منازلة الشامخ بأنفه ، المستهزئ بغيره ، غـير أن جـالوت لم يرتـض أن ينازلـه داود ، فهـو ضعيـف متخـاذل لا شـأن لـه بخـبرة الفرسان والحرب ، وإن انتصر عليه ، فانتصاره لا يزيده شرفًا بين قومه ؛ إذ انتصر على رجل ضعيف متهاوٍ .

كره جالوت أن يقتل داود ذلك الرجل الأهوج لما جبل عليه من قسوة وعنف، فهو لا يهاب أحدًا ، وهو مبارز هصور ، يلعب بالسيف كما يلعب الطفل بالدمية .

دعا داود أن ينسحب من أمامه ، وأن يغرب عن وجهه ، إشفاقًا عليه وحدبًا به.

أصر داود على القتال وأن ينازل هذا القائد الغشوم ، فأعطاه الله من القوة والشجاعة ما يجعله ينتصر على جالوت ، فما كان منه إلا أن رمى جالوت بمقلاع أصابه فى رأسه ، ففلقها وصارت بددا ، كانت رميته عظيمة ، قتل على أثرها جالوت ، وفر جيشه منهزمًا .

وفّى طالوت بما وعد به داود ، فزوجه ابنته الحسناء ، وأجرى داود حكمه فى ملكه ، وعظم أمره فى عيون بنى إسرائيل ، وأحبوه ، ومالوا إليه أكثر من ميلهم إلى ملكهم طالوت .

ترك طالوت الملك ، وتنازل عنه لداود ، وذهب معه ثلاثة عشر من أولاده، كانوا يقاتلون فى سبيل الله حتى قتلوا .

كانت مدة طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعين سنة .

* * *

أحب بنو إسرائيل داود حبًا جما ، وأنزلوه منهم منزلة عظيمة ، ومالوا إليه ميلاً شديداً ، حتى جعلوه ملكًا عليهم ، يحكم فيهم بالعدل والمودة والتقوى ، فخلعوا طالوت ، وولّوا عليهم داود ، فجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين زينة الدنيا وخير الآخرة . كان الناس قد ألفوا أن يكون الملك فى سبط وأن تكون النبوة فى سبط آخر ، فاجتمعا فى داود عليه السلام .

داود

كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين ، قليل الشعر ، طاهر القلب ، نقى الصدر .

علم الله نبيه داود صنعة الدروع من الحديد ليحصن المحاربين من قومه ضد الأعداء ، أرشده إلى صنعها ، وكيف يعملها ، علمه ألا يدق المسمار فيفلق الحلقة، ولا يغلظه فتفصم ، وإنما يقدر المسامير فى حلق الدرع ويدقها فتسلس فى الحلقة .

وكان الله قد ألان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه ، لا يحتاج إلى مطرقة لتسويته ، ولا إلى نار فيذيبه ، كان كالطين المبلول يصرفه فى يده كما يشاء ، ويعمل منه ما يشاء ، ويسويه بيده .

كانت الدروع قبل داود تصنع من صفائح ، فجعلها داود من الزرد ، يثقب الحديد ويجعل منه حلقة يصلها بأختها من الحلقات ، ويجعل مسماراً يصل بينها ويعمل كل يوم درعًا يبيعها بستة آلاف درهم .

كان داود يأكل من كسب يده ، ولا يقبل إلا طيبًا . وأن نبى الله داود ذو قوة فى العبادة والعمل الصالح ، يقوم الليل ، ويصوم نصف الدهر . يصوم يومًا ويفطر يومًا ، فكان صومه وصلاته أحب الصوم والصلاة إلى الله سبحانه .

كان ذا دأب فى العبادة ، وأهله يسيرون سيرته ، لاتمضى ساعة من ليل أو نهار إلا وأهل بيته فى عبادة .

أُعطى فقها فى الإسلام ، ويبطش بمن يتهاون فى حق من حقوق الله ، يسعى إلى ما يرضى ربّه ، ويبتعد عما يكرهه ، يتوب إلى الله ، ويرجع عن الذنوب .

زاهد حكيم ومن حكمه قوله :

حق على العاقل أن يحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه ،

وأن الخير ثوابه الخير ، والشر جزاؤه الشر ، كما تزرع كذلك تحصد ، وزارع السيئات يحصد شوكها وحسكها .

ومثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم ، كمثل المغنى عند رأس الميت .

كان دائم التمجيد لله يحمده ويسبح له ، فهو الآله الحق ، وآلهة كل الشعوب أصنام . أما الآله الجدير بالعبادة فهو خالق السموات ، وصانع الأرض ، العدل والحق كرسيه ، ترتعد الأرضين من جلاله ، وتذوب الجبال مثل الشمع من هيبته . فاسجدوا عند مواطىء قدميه ، موسى وهرون بين أنبيائه ، ادعوه يستجب لكم ، هو المنتقم من الأشرار ، الغفور للتوابين الطائعين .

الجبال تسبح مع داود عند الإشراق من وقت الضحى ، وبالعشى من وقت العصر إلى الليل ، كان إذا سبح سبحت الجبال معه ، واجتمعت الطير حوله ، تجاوب ترديده وتسبح معه .

وهبه الله الصوت الندى الحلو الذى لم يعطه الله لأحد ، فكان إذا ترنم بقراءة الزبور وقف الطير فى الهواء يسبح بتسبيحه ، ويرجع بترجيعه ، والجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح فى التبكير أو العشى .

كان الطير والوحش ينعكف حوله لا يريم ، حتى يموت عطشًا وجوعًا .

الأنهار تتوقف فى مسارها ولا تتحرك مياهها ، فلا تجرى ولاتسيل .

لا يسمعه أحد إلا حجل راقصًا على أنغام صوته الشجى وعذوبته الرخيمة .

كان يقرأ الزبور فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا وعطشًا .

الزبور فيه مائة وخمسون موعظة إذا تغنى بمزاميره ذابت النفوس ، وتفسخت أجساد العذارى لسماع رنين صوته العذب الرخيم .

تدنو له الوحوش حتى يأخذ بأعناقها ، وهى مصيخة تسمع صوته ، وما صنعت المزامير إلا متجاوبة مع أصداء أنغامه .

كان يضرب المثل بجمال صوت داود ، حتى شبهوا به أبا موسى الأشعرى الصحابى فى انسجام صوته وحلاوته ، فقالوا لقد أوتى أبو موسى مزامير داود .

كان داود يأمر بسرج دوابه فيقرأ الزبور ، وينتهى منه قبل أن ينتهوا من سرج دوابه وتهيئتها للمسير .

كان داود عليه السلام يتغنى بالزبور ، وكله صلوات وابتهالات ، وتضرعات ، وذكر صفات الذات العلية .

يشكو إلى الله مضايقه ، وأن خلاصه بيد الرب ، فهو حاميه ومعين له ، يصرخ إلى الرب فيجيبه ، يريد أن يضطجع بسلام وأن ينام فى طمأنينة .

يصف أعداه بأن ليس فى أفواههم صدق ، تمردوا عليه ، ويسأل ربه أن يطيح بهم .

يسأل الله العافية فهو ضعيف البدن ، العظام قد رجفت منه ، والروع أخذ بمجامع نفسه ، تعب من كثرة التنهد ، وساخت عيناه من الغم .

كان داود دائم التوكل على الله، يسأله الخلاص من الأشرار والنجاة من الظالمين .

قوى الله ملك داود بالجنود والرجال، يقوم على حراسته الجم الغفير منهم.
أعطى الهيبة بين الناس لقضية كان قد قضاها :

حكى الناس أن رجلاً من بنى إسرائيل اعتدى عليه رجل من عظمائهم ، فاجتمعا عند داود النبى ، قال المستعدى :

- إن هذا الرجل اغتصبنى بقرًا لى .

سأل داود الرجل المدعى عليه عن ذلك فجحد الأمر كلية .

فسأل الآخر البينة ، فلم يحر جوابًا ؛ إذ لم تكن لديه بينة .

قال النبى داود :

- قوما حتى انظر فى أمركما .

وعندما قاما من عنده ، وذهب كلٌّ فى طريق ، أوحى الله إلى داود فى منامه أن يقتل الرجل الذى اعتدى عليه ، دهش داود ، إذ كيف يقتل المعتدى عليه ، ويبرأ المعتدى ، قال داود فى نفسه وقد تزاحمت الخواطر فى رأسه .

- هذه رؤيا ، ولست فى عجلة من الأمر حتى أتثبت .

أوحى الله إلى داود فى منامه مرة أخرى أن يقتل الرجل المعتدى عليه ، ثم أوحى إلى داود مرة ثالثة بتنفيذ أمر القتل، أو تأتى العقوبة للمعتدى من قبل الرب.

فأرسل داود إلى الرجل أن الله أوحى إليه المرة تلو المرة بقتله ، فانزعج الرجل وأنكر على داود أن يقتله بغير بينة ودون تثبّت . قال داود :

- لأنفذن أمر الله فيك ، ولا بدّ من قتلك ، فالوحى لا يخطىء ، ولابد أنك ارتكبت إثمًا تخفيه عنا ، ويريد الله أن يقتص منك بسببه ، فلا معنى لإخفائك له .

تحير الرجل و لم يكن ثمة مناص من قتله ، ولا مفر من القصاص ، فلا معنى لإخفاء ذنبه الذى حبسه في صدره دون أن يطلع عليه أحداً . قال الرجل :

- لا تعجل عليّ ، فإنى سأخبرك لا محالة . وسرد لداود قصته مع الذى سلب منه بقره .

- لم يأخذنى الله بهذا الذنب ، ولكنه يقتص منى بذنب آخر أشد إثمًا ، وأبعد سوءا ، فقد أخذت والد هذا الرجل غيلة فقتلته ، فإن كان قتلى له قد خفى على الناس ، فإنه لم يكن يخفى على الرب ، فبذلك أوحى إليك بقتلى ، ما أحكم عدلك يارب ، فشريعتك قائمة وقصاصك ثابت ، وإن مرت السنون دون أن يخطر ببالى أن قانون الله العادل مسلط على رقاب المعتدين .

أمر به داود فقتل ، واشتدت هيبته بين بنى إسرائيل ، وارتفعت منزلته بين قومه ، فكانت هذه القضية وحكمه فيها بوحى من ربه سببا فى تقوية ملكه .

* * *

الفتنـــة

آتاه الله الحكمة والنبوة ، وفقه القضاء والعمل به ، أوتى فصل الخطاب فـى المحاورة والعدل فى القضاء ورد الحقوق إلى أصحابها .

فالأشرار يفخرون بشهوات أنفسـهم ، ومـا اقـترفت أيديهـم ، والخطـافون يسلبون الناس ويخدعون ، أفواههم ممتلئة غشًا وظلمـًا ، وحسـداً وبغيـًا ، وتحـت ألسنتهم أكاذيب وآثام .

- يارب لا تحجب نورك عنى ، ولا تسـلبنى اليقظـة فـأغفل ، وأجنـح فـى القضاء بين الناس ، فأميل عن العدل ، وبذلك أكون قد اقترفت الإثم .

لقد أعطيت أنبياءك إبراهيم وإسحق ويعقوب من الذكر مالم تعطنـى إيـاه ، وذهب آبائى بالخير كله ، فاعطنى مثل ما أعطيتهم ، وامنحنى من الرضـا مثـل مـا منحتهم.

قال الله موحيًا لداود :

- إنى ابتليت الأنبياء قبلـك بمـا لم تبتـل بمثلـه ، ابتليـت إبراهيـم بذبـح ابنـه إسماعيل ، وإسحق بذهاب بصـره ، واختـبرت يعقـوب بفقـد ابنـه يوسـف وشـدة وجده عليه ، وأنت لم تبتل بشئ من ذلك .

قال داود :

- رب اختبرنى بمثل ما اختبرتهم به ، ولكن اعطنى كما أعطيتهم .

مضى على ذلك وقت طويل حتى جـاءه شيطان رجيـم فـى صـورة حمامـة لافتة جسمها من ذهب ، رياشها مموّهة بكـل الألـوان الزاهيـة ، وفتنتهـا تقـع فـى

القلوب من أول وهلة ، وقعت الحمامة عنـد رجليـه وهـو قـائم يصلـى ، مـد يـده ليقتنصها ، تنحت عنه ، فتبعها ، فتباعدت أكثر حتـى دخلـت فـى كـوّة ، ذهـب إليها كى يأخذها، فطارت من الكوة ، ونظر داود أين تقع حتى يرسل فى طلبها ، ويرسل أحد أتباعه ليتعقبها ويأتيه بها ، ولكنه نظر فوجد امرأة تغتسل على سـطح دارها ، امرأة من أجمل نساء الأرض خلقًا سلبت فؤاده ، وأخذت لبه ، وخطفت قلبه ، حـانت منهـا التفاتـة فـأبصرت رجـلاً ، رأت داود يتلفـت تجاههـا ، ألقـت شعرها على جسدها حياء حتى تستتر منـه ، وتختفـى عنـه . زاده ذلـك حبـًا لهـا، وشغفا بها ، ورغبة فيها .

لم يكن ذكرها يفارق قلبه ، وصورتها لم تكن تفارق خـاطره ، شـغف بهـا حتى تمادى به الهيام ، فسأل عنها ، وعرف أن زوجها غائب فى سرية من سـراياه التى يرسلها ليفتح بهـا الأقطـار المستعصية ، أو البلـدان الثـائرة ، فبعـث إلى قـائد السرية أن يرسل زوج هذه المرأة " أهريا " إلى قتـال الأعـداء ، ويكـون علـى رأس الكتيبة ، فكانت الكتيبة إذا حاربت يصاب أصحابه وينجو هو ، وأخذ داود يـأمر بنقله من سرية إلى سرية ؛ ليكون فى مواجهة العدو دوما ، حتى كان آخر المطاف أن أصيب بضربة سيف ، فهوى جسده مترنحا وقضى نحبه .

تزوج داود امرأة " أهريا " المرأة التى أسدلت شعرها على جسدها تخفيه عن داود ، يقولون : إن هذه المرأة أصبحت أما لسليمان النبـى فيمـا بعـد ، ولم تلبـث عنده إلا يسيراً .

دخل خصمان بغتة على داود من غير باب المحراب ، والمحراب أشرف مكان فى البيت ، وفى المقدمة منه .

فزع داود من الخصمين لدخولهما عليه من غير الباب الذى أعد للدخول ، راعه الأمر ؛ إذ دخلا عليه فى جنح الليل ، وفى وقت لا ينتظر فيه أحدا ، ولا يتوقع زيارة أحد ، لا أحد فى هذا الوقت يقطع عليه خلوته أو يبعده عن استغراقه فى عبادة ربه ، قال الرجلان حين وجدا داود مرتاعًا :

- لاتخف يا داود ، فقد منعنا عن الدخول ، فتسورنا المحراب ، ووجدتنا فى خلوتك ، فاقض بيننا بالحق ، ولاشك أن قضاءك هو العدل .

قال أحد الرجلين :

- هذا الخصم تعدى على دون وجه حق ، وسلبنى حقى ، لاتشطط فى حكمك فتميل مع أحدنا ضد الآخر ؛ بل أرشدنا إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمتا .

هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، واحدة فحسب ، فقال لى : انزل عن نعجتك لى حتى أضمها إلى نعاجى . وأنا لا أستطيع أن أغضبه، فهو يغلب على حين يخاطبنى ويبزّنى فى الخطاب ، إن تكلم فهو أبين منى، وإن بطش كان هو الأقوى فيقهرنى ، وإن دعا أصحابه كان أكثر صحابًا وتأييداً، فحاز نعجتى وضمها إلى نعاجه ، تركنى خاوى الوفاض ، لا شىء لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال داود مستاء من ذلك الرجل الغالب الذى ضم نعجة أخيه إلى نعاجه ، هذا المتسلط الذى لا يراعى العدل فى حقوق الناس .

- لقد ظلمت صاحبك حين سألته أن ينزل لك عن نعجته الوحيدة ، لتضمها إلى نعاجك العديدة ، لقد ظفرت بالكثير من النعاج ، ولكنك لم تقنع

حتى تسلب أخاك نعجته ، فأنت لاترعى حق أخيك ، ولا تكتفى بما وهبه الله لك من نعم .

لم يدر داود أن حالة الخصمين تنطبق على حاله ، وقد ضربا له حالة النعاج كمثل يطبقه على نفسه ، فيفهم القصد من ورائه .

كان لداود تسع وتسعون امرأة ، وكان لأهريا امرأة واحدة ، فاحتال فى أمره حتى يهلكه ، ويستأثر بامرأته دونه ، فأمر بالرجل أن يغزو فى المعارك ويتوجه إلى القتال ، فإذا سلم فى معركة هلك فى الأخرى ، وعندما قتل نكح امرأته ، وضمها إلى زوجاته التسع والتسعون فتصير مائة .

وهكذا كان أمر داود مع أهريا ، وهكذا كان المثل الذى ضربه الملكان له وهما فى صورة رجلين يحتكمان إليه بمثل حاله التى آل إليها .

فطن داود لفعل الملكين :

- أنت ياداود أحق أن يضرب لك هذا المثل ، فقد سلبت من أهريا امرأته الوحيدة وضممتها إلى زوجاتك فبلغت المائة .

ولقد أبديت استياءك من مثل حالتك حين ضم الرجل نعجتى إلى نعاجه فبلغت المائة ، فحالك مع أهريا مثل حال الرجل مع أخيه .

سأل داود ربه أن يغفر له ذنبه ، وخر ساجداً يطلب التوبة من خطيئته ، والرضوان من ربه ، فقد ظن داود أننا فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب .

نظر داود حوله فلم يرا أحداً ، اختفيا عن ناظريه ، وعرف ما وقع فيه من ابتلاء ، ندم وبكى حتى ابيضت عيناه من الحزن .

قال الرب التواب الرحيم بعبده داود .

- ياداود : ارفع رأسك فقد غفرت لك ، وعفوت عنك ، ولن نؤاخذك بخطيئتك ، فإن لك عندنا لزلفى فى الدنيا ، وحسن مآب فى الآخرة .

قال داود :

- يارب وكيف أعلم أنك غفرت لى ، وأنت حكم عدل لا تحيف فى القضاء ، إذا جاءك أهريا يوم القيامة آخذاً رأسه بيمينه ، وأوداجه تشخب دما ويقول :

- يارب سل هذا فيم قتلنى ؟ .

فأوحى الله لداود :

- إذا كان كذلك دعوت أهريا فأستوهبك منه فيهبك لى ، فأثيبه بذلك الجنة .

قال داود :

- يا رب الآن علمت أنك قد غفرت لى ، فما استطاع بعد ذلك أن يملأ عينيه من السماء ، حياء من ربه ، حتى قبض .

* * *

الخصومة فى الغنم

دخل رجلان على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب غنم ، والآخر صاحب زراعة وأرض وفلاحة .

قال صاحب الحرث لداود :

- إن هذا الرجل أرسل غنمه ليلا فى أرضى فلم يبق من حرثى شيئًا ، قضت عليه الغنم ، و لم تترك فيه ورقة ولا عنقودًا من عنب إلا التهمته .

فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم وأعطاه رقابها ، وقال له : اذهب فإن الغنم كلها لك .

مر صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على أبيه داود فقال له :

- يا نبى الله قضيت بما لا ينبغى أن يكون .

قال داود :

- كيف ؟

قال سليمان :

- على صاحب الحرث الذى أخذ الغنم من صاحبها أن يبيع من أولادها وأصوافها وألبانها حتى يستوفى ثمن الحرث الذى ضيعته الغنم وأتت عليه ، فإن الغنم لها نسل كل عام .

وصاحب الغنم يقوم على الأرض بالحرث والزرع والإصلاح والتعمير ، حتى تعود الأرض كما كانت مخضرة مزهرة قبل أن تنفش فيها الغنم ، وبذلك يسترد كل واحد حقه .

استحسن داود رأى سليمان وقال له :

- قد أصبت القضاء ، فأثنى الله على سليمان ، و لم يذم داود عليهما السلام . فالجواب اللين يصرف الغضب ، والابن الحكيم يسر أباه . هكذا فى مزامير داود .

* * *

الخصومة فى اللؤلؤة

كثرت شهادة الزور بين بنى إسرائيل ، واستشرى الشر بينهم ، وعم الفساد، وزاد الكذب والتمويه ، وأكل حقوق الناس بعضهم لبعض .

ويروى أصحاب السير هذه القصة دلالة على كثرة الفساد فى بنى إسرائيل وتغلغل الشر وسيادته على تصرفاتهم .

كان مع داود عليه السلام سلسلة من ذهب يفصل بها بين المتخاصمين ، ويقضى بينهم ، وكانت هذه السلسلة ممتدة من السماء إلى صخرة فى بيت المقدس، فإذا اختصم الرجلان فى حق . فإن كان أحدهما محقًا قبض على السلسلة وتناولها ، وإن غير محق لم يصل إليها ولم يلمسها .

استمر القضاء بين الناس فى بنى إسرائيل على هذه الصورة ، وبذلك يتميز صاحب الحق عن صاحب الباطل ، والمدعى كذبًا ، أو المنكر حقًا .

حتى أودع رجل رجلا لؤلؤة ، وتركها أمانة عنده ووديعة إليه ، يستردها حين يطلبها ، ولكنه عند مطالبته إياها ، أنكرها تمامًا ، وجحد أنه يعرف عنها شيئًا ، فهو لم يودعها لديه ، ولم يسلمها له .

أودع الرجل الخائن اللؤلؤة فى عكاز له ، فلما حضر الرجلان عند صخرة بيت المقدس ، تناول المدعى السلسلة ، فعرف أنه على حق ، ولم يدع شيئًا باطلاً.

قيل للآخر هلم إلى السلسلة لتتناولها حتى تظهر براءتك من اللؤلؤة وأنك رددتها لصاحبها ، أو أنك لم تأخذها أصلاً . ويعلم إن كان صاحبك صادقًا أو كاذبًا. فعمد إلى العكاز الذى كان بيده وأعطاه للمدعى وفيه تلك اللؤلؤة ، وقال:

– اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها فى بنى إسرائيل ، ورفعت السلسلة سريعًا من بينهم .

كانوا يلجئون إلى المخادعة والمماراة فى كل أمورهم ، حتى فى الأمانات يأخذونها دون أن يردوها فاشتهروا بالاحتيال والتمويه والكذب ، ويظهرون خلاف ذلك ، وأنهم لم يخالفوا الشريعة ، فهم براء من الكذب ، متمسكون بإيفاء الحقوق .

* * *

الخصومة فى الولد

امرأتان لكل منهما ولد يعيش فى كنف أمه ، تحرص عليه وتشـمله بعطفهـا ورعايتها تحتضنه بقلبها ، وتضمه إلى صدرها .

جـاء الذئب الغـادر فاختطف أحدهمـا وافترسـه ، وأصبح أثرًا بعـد عـين ، لم يعد معهما غير طفل واحد .

أدعت كل منهما أن الولد الباقى هو ولدها ، والولد الذى اختطفـه الذئـب هو ابن غريمتها .

وتشدد كل منهما فى الدعوى ، وزعمت أن الابن هو ابنها ، والـذى فقـد هو ابن صاحبتها ، واستوثق كل منهمـا على ذلـك لا يريـد أن يحيـد عـن قولـه ، احتكمت المرأتان إلى داود عليه السلام ، وقصتا عليه القصة .

تحرى داود الأمر بين المرأتين ، واجتهد فى حكمهِ الذى أرتـاه ، فحكـم بـه للكبرى ، فرحت بابنها وضمتـه إلى صدرهـا ، واستظلته بظلهـا وحنانهـا . بينمـا الأخرى حزنت حزنًا شديدًا ؛ لأن ابنها لم يكن لها ، ولم يحكم داود بضمه إليها ، وهى أمه الحقيقية والأخرى الذى استولت عليه كاذبة آثمـة ، ولكـن مـاذا تفعـل ، وهى قليلة الحيلة لا تستطيع أن ترد حكم داود عليه السلام .

طوت أحزانها فى صدرها ، وقلبها يكاد ينخلع من هول الكارثة التى ألمـت بها بفقد ابنها ، وأسـلمت أمرهـا لله ، ولكـن الله لا تضيـع الحقـوق بـين يديـه ، ولابد أن ترد الحقوق إلى أصحابها .

خرجت المرأتان من عند داود ، إحداهما سعيدة غاية السعادة ، والأخرى والهة أشد الوله . ودعاهما سليمان عليه السلام . فشك فى أمر المرأة التى استحوذت على الطفل ، ولجأ إلى حيلة يعرف بها على وجه اليقين ، إذا كان الطفل للمرأة الوالهة دون الأخرى ، أم أن الأمر على غير ذلك .

قال سليمان :

– هاتوا السكين أشق الطفل بينكما ، وكل منكما يأخذ شطره ، ارتاعت الصغرى ، الأم الحقيقية فقالت : يرحمك الله يا سليمان ، لا تشقه ، وهو ابنها ، لما رأى شدة جزعها ، حكم لها بالطفل .

* * *

الوفاة

كان داود عليه السلام يغار بشدة على أهل بيته ، لا يسمح بفتح نافذة أو باب ، حتى لا يراهم أحد ، أو تتلصص عليهم عيون ، فإذا خرج أغلقت الأبواب خلفه ، والنوافذ لا تفتح ، وإنما تسد تمامًا كأنها حصن لا ينفذ منه أحد ، ويبقى كل شيء موصدًا حتى يرجع .

خرج ذات يوم ، وغلّقت أبواب الدار ، فلما أقبلت امرأته ودخلت صحن الدار ، فإذا برجل قائم فى وسطها . ارتاعت واندهشت ، فلم يكن لأحد أن يدخل الدار فى غياب داود ، فمن أين جاء هذا الرجل ، وكيف اقتحم باب الدار، وتسرب إليه حتى أصبح فى داخله وفى وسطه ؟ الأبواب مغلقة ، والنوافذ موصدة ، وليس لأحد أن يدخل الدار إلا أهله ، فكيف بهذا الغريب أراه داخل منزل داود ، يا للفضيحة ويا للعار ، إذا عرف الناس أمر هذا الرجل ودخوله البيت ، سيلوكون سيرة أهل البيت ، ويتقولون عليهم بما لا يحبون ، ولا يرضون .

جاء داود عليه السلام ودخل منزله فإذا الرجل مازال قائمًا بالدار سأله داود :

- من أنت أيها الضيف العزيز ؟ وهل سمح لك أحد بدخول الدار ؟

قال الرجل :

- أنا الذى لا أهاب الملوك ، ولا أمنع من الحجّاب .

قال داود :

- إنك إذن وا لله لملك الموت ، مرحبًا بك ومرحبًا بأمر ا لله . جاءه ملك الموت وهو ينزل من محرابه فقال داود :

- دعنى أنزل أو أصعد .

قال ملك الموت :

- يا نبى الله ، لقد نفذت السنون والشهور ، والآثار والأرزاق . ولم يبق أمامنا وقت لصعودك أو هبوطك .

خرّ داود ساجدًا على درجة من درجات المحراب ، ولم يمهله ملك الموت لحظة ، فقبض روحه وهو ساجد . فاضت روحه وصعدت إلى بارئها .

جعل الرب أمامه فى كل حين ، كان الرب عن يمينه فلا يتزعزع ، لذلك فرح قلبه ، وابتهجت روحه ، وسكن جسده مطمئنًا ، وهو واثق أن الله لن يترك نفسه فى الهاوية ، سيجعله فى أعلى عليين ، فى الجنة والنعيم المقيم .

لم يصنع شرًا بأحد ، ولم يعيّر قريبًا له ، لا يأكل بالربا ، وإنما من كسب يده ، ولم يأخذ رشوة فيحكم على برىء .

كان دائمًا فى تهجده وصلاته يدعو ربه أن يستجيب له ، وأن يظله بجناحيه، وأن ينجيه من أهل الدنيا ، ومن شر الناس .

كان يخاف ربه ، ويقبل حكمه ، فأحكامه كلها عدل وحق ، كانت عنده أحلى من العسل ، وأشهى من الذهب .

لا أخاف شرًا من أحد ؛ لأنك معى ترعانى ، فلا يعوزنى شىء ، تهدينى إلى سبل البر . لا تشمت بى الأعداء ، ولا تجمعنى مع الخطاة ، الذين تمتلئ أيديهم بالرذيلة ، ونفوسهم بالفساد .

يا رب إليك أصرخ ، وأتضرع ، وبك أستغيث ، فاسمع مناجاتى ، وصراخى ، ولا تجعلنى أتردى فى حمأة الطين ، أتكل عليك يا رب : أفعل الخير ،

وأحفظ الأمانة . فأسلم لى الطريق ، ولا أبغى سوى السلامة ، الإنسان مهما استغنى، وزادت ثروته ، فهو فى خشية منك ، فعند الموت يترك كل شىء ، فلا ينزل معه فى قبره، يترك المجد والثروة ، وينزل فى قبره وحيدًا لا يخفّه سوى عمله.

ما أكثر أعداء الإنسان ، يتآمرون عليه ، يروجون عنه الأكاذيب ، يباركونه بأفواههم ويلعنونه بقلوبهم .

برضاك يتبدد الأعداء ، ويهرب المبغضون ، يذوبون كما يذوب الشمع أمام النيران .

أصغ يا رب إلى صلاتى ، ولا تتغاض عن تضرعى ، أتحير فى كربتى ، وأضطرب من ظلم الأشرار ، وما غشينى من رعب ، ليت لى جناحًا كالحمامة فأطير واستريح .

أتاه ملك الموت فاستراح . فلما غسل وكفن ، وفرغ من شأنه ، طلعت عليه الشمس .

قال ابنه سليمان للطير :

– أظلى على داود النبى .

فأظلت حتى أظلمت الأرض .

قال سليمان :

– اقبضى أجنحتك ، حتى يعم الكون نورًا ، فانزاحت الظلمة عن الأرض ، مات داود فجأة ، وعاش مائة سنة ، مرت كطرفة عين .

حضر الناس جنازة داود ، فجلسوا تحت الشمس فى يوم صائف ، شيع جنازته ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، كانت بنو إسرائيل

أشد جزعًا على موت داود من غيرهم من الخلق . آذاهم الحر ، فنادوا سليمان أن يقيهم مما أصابهم من شدة الحر .

نادى سليمان الطير ، وأمرها أن تظلل على الناس ، وتدفع عنهم حرارة الشمس ، فتراص بعضها جوار بعض فى جميع الأنحاء ، استمسكت الريح وسكن هبوبها ، حتى كاد الناس أن يهلكوا من شدة القيظ ، دون أن يشعروا بنسمة هواء ، تقطعت أنفاسهم ، وضاقت صدورهم ، فصاحوا بسليمان أن يخرجهم من الغم الذى أصابهم ، ويفرج عنهم ما هم فيه من ضيق وكرب .

نادى سليمان الطير :

– أظلى الناس من ناحية الشمس ، وتنحى عن اتجاه الريح حتى يتنفس الناس ، ولا تصيبهم حرارة الشمس ، فأذعنت الطير لأمر سليمان ، ونفذت ما قال . فاستظل الناس من حرارة الشمس ، واحتموا من هبوب الريح ، وإنما تسربت إليهم نسمات الريح ، فى ظل وارف مديد .

وكان ذلك أول ما رأه الناس من سليمان .

* * *

المؤامرة الغادرة

قصـــة عيســى المسيــح

" وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم "

سورة النساء آيه ١٥٧ .

العذراء

فى بدء الخليقة اصطفى الله آدم وصنعه بيديه فى أحسن صورة وأجمل تقويم ، خلقه بيده تكريمًا للبشرية كلها ، فآدم أبو البشر وتكريمه تكريم لأبنائه وحفدته .

وعلم الله آدم الأسماء كلها ، أسماء الموجودات والكائنات وأسماء الملائكة .

أسكنه الجنة وأبعد عنه شبح الوحدة ، فخلق له حواء من ضلعه يأنس لها ، ويكسر بها رتابة الزمن والوحدة .

واصطفى نوحًا من بين الأقوام ، فكان أول من نسخ الشرائع المتوارثة ، أبطل زواج المحارم وكان حلالاً .

ومد له فى عمره فعاش أكثر من ألفُ عام ، وحمله على ظهر السفينة ومتن الماء ، ولم يكن هذا مألوفًا من قبل .

واستجاب لدعوته فى حق الكفرة الآثمين ، وجعل ذريته هم الباقين .

واصطفى إبراهيم فرفع قواعد البيت الحرام ، وابنه إسماعيل يعينه ويشدّ من أزره ، وتتابعت ذريته فكان منها أفضل البشر النبى محمد ﷺ .

ثم اصطفى آل عمران ، مريم ابنة عمران وولدها عيسى عليه السلام .

حنّة بنت فاقوذا امرأة عمران أم مريم البتول ، جدة عيسى عليه السلام، تعيش فى كنف الله تحبه وتطلب رضاه ، كثيرة التردد على بيت المقدس تؤدى

صلاتها فى خشوع ، وتتعبد فى المحراب ، ثم تقفل راجعة إلى بيتها لتكون فى خدمة زوجها ، تلبى نداءه وتقضى حاجاته .

شعرت بأن جنينًا فى بطنها يداعب أحشاءها ، فتأكدت من حملها ، وقررت أن يكون ما فى بطنها فى خدمة بيت المقدس ، وجعلته خالصًا لوجه الله ، يخدمه ويتفرغ لعبادته .

أملت أن يكون ما فى بطنها ذكرًا لا أنثى ، ليس لأن الأنثى أقل مكانة من الذكر ، فالذكر والأنثى سواء عند الخالق الكريم ، ولكن لأن أملها فى إلحاق ما تنجب لخدمة بيت المقدس لا يتحقق إلا إذا أنجبت ذكرًا ، فلن يخدم فى المسجد سوى الغلمان ، والجارية لا تصلح لخدمة المسجد ، فإذا أصابها حيض أو أذى فستحتاج قسرًا إلى مغادرة المسجد ، فطهارة المسجد تقضى بطهارة من يحلّ به ومن يقوم بالخدمة فيه ، فجعلت هذا النذر وسيلة ليكون وليدها ذكرًا .

وسألت ربها أن يتقبل منها هذا النذر على وجه السماحة والرضاء فالله سميع لأقوالها ، مستجيب لدعائها ، فهى تواقه أن يحقق الله أملها ، ويلبى نداءها .

دعت ربها كثيرًا فى صلاتها وفى تهجدها أن يهبها غلامًا ذكرًا ، ولكن لحكمة خفيت عليها ، لم يحقق الله دعاءها ، فأنجبت جارية أنثى ، تبخرت كل آمالها وباءت بالحسرة والحزن ، تحسرت لخيبة رجائها ، وحزنت لأن وليدها جاء على عكس تقديرها ، فما شأن هذه الأنثى ، ولَمَ لم تكن ذكرًا ؟ لقد تقربت إليك يا ربى كثيرًا ودعوتك مليًا ، ورجوتك أن ألد ذكرًا ليقوم على خدمة بيتك المقدس ، فأنا لم أطلب سوى عبادتك والقيام بأمر خدمتك ، فلماذا لا تستجيب لندائى ؟ وتقوض آمالى ؟ .

لم تكن حنّة تعلم أن هذه الأنثى التى ولدت خير من الذكر الذى أملت . هذه الأنثى هى مريم أم السيد المسيح عيسى نبىّ الله ورسوله ، الذى ظهرت على يديه كثير من المعجزات الخارقة ، والأمور السامقة .

أراد الله أن يخفف من التياع قلبها ويجعل الطمأ نينة تسرى فى أوصالها، حتى تهدأ نفسًا وتقر عينًا ، فأخبرها أن هذه الأنثى سيكون لها شأن أفضل من الخدمة فى المسجد ، فسوف تكون أماً لرسول كريم وناصح أمين ، فلا تبتئسى ولا تحزنى ، وإنما يحق لك أن ينشرح صدرك ويضئ وجهك .

طابت نفسها وسلمت بقضاء الله وأسمت الأنثى " مريم " ومريم تسمى " العابدة وخادم الرب " فإن لم تكن هذه الأنثى خليقة بخدمة بيت المقدس فلتكن من العابدات القانتات لربها ، سألت ربها وألحت فى ذلك إلحاحًا شديدًا أن يحفظ لها مريم ، وأن يجنبها ويعوذ بها وذريتها من الشيطان الرجيم.

تقبلها ربها قبولاً حسنًا ، ورضى بها ، وأولاها رعايته وحفظه ، فحين وضعتها أمها لفتها فى خروقها وأسمالها وخرجت بها إلى المسجد .

أبوها عمران بن ماثان من أصل ماجد وجذور كريمة ، ينتهى نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام .

وكان قبلاً إمامًا فى المسجد وصاحب الصلاة فيه يوم القوم ويتبركون به .

تنازعوا فى مريم أيهم يكفلها ، ويعنى بأمرها ، ويتخذها كابنة له .

أراد زكريا عليه السلام أن يتبنى أمرها ويتولى شأنها دون القوم ، فزوجه إيشاع خالة مريم ، وهى أحق بها من غيرها من النساء الغريبات اللاتى لا تمت لهن بصلة قربى .

شاحّوه فى ذلك ، وطلبوا أن يقترعوا ، فمن خرجت قرعته عليهـا فهـو أولى بها من غيره .

ألقى كل واحد قلمًا معروفًا به ، وخلطوا بعضها ببعض وأمروا غلامًا لم يبلغ الحلم ليخرج منها قلمًا يكون صاحبه كفيلاً لمريم ، فخرج قلم زكريا .

لم يسلّموا له بالأمر ، ولم يأخذوا بما صنع الصبى ، وطلبوا إعادة القرعة مرة ثانية ولكن بطريقة أخرى : بأن يلقوا أقلامهـم فـى النهـر ، فـأيّهم جـرى قلمه بعكس جريان الماء فهو الغالب عليهم ، وهو الأحق بكفالة مريم .

فعلوا ذلك فجرى قلم زكريا على عكس التيـار ، وصـار هـو صـاحب النصيب فى الكفالة ، ولكنهم رفضوا وأصروا على الرفض .

كل واحد يريد أن يضم إليه مريم وأن تكون ربيبته ، فأبوها كان إمامًـا لهم يصلى بهم ، يتبركون به ، ويبوحون له بما يعتمل فى صدورهم من متاعب وأشواق ، فكان لهم نعْم الناصح الأمين والمرشد الكبير ، وأمهـا امـرأة صالحـة قريبة إلى الله بعبادتها وطهارها ، وبعدها عن الآثام والرذائل .

لم يرضوا أن يسلموها لزكريـا رغـم أن قرعتـه عليهـا ظهـرت مرتـين . وطلبوا القرعة للمرة الثالثة ، فهى الفاصلة والأخيرة التى تبين من هـو صـاحب الكفالة ، وعليهم جميعًا أن يأخذوا بها هذه المرة ، فلن يكـون بعدهـا إعـادة ، ولن يحدث فيها مراء أو جدال .

قالوا على عكس القرعة التىمضـت : أينـا يجـرى قلمـه مـع المـاء وبقيـة الأقلام تجرى ضد تيار الماء ، يكون هو الغالب وهم الخاسرون .

اقترعوا على ذلك ، فجرى قلم زكريا مع جريان الماء ، وجرت أقلامهم ضد الماء .

عندئذ وجدوا ألا مفر من كفالة زكريا لمريم ، ولم يستطيعوا المشاحّة بعد ذلك ، فقد خرجت قرعته ثلاث مرات لتؤكد أنه صاحب الحق في الكفالة ، فسلما مريم له ، وكفلها زكريا .

وعندما تجاوزت سن الطفولة ودخلت فى دور الصبا والبلوغ اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها ، كانت تقوم بالصلاة فيه ، تعبد ربها ، تذكره كثيرًا وتسبحه كثيرًا ، فكان الله فى خاطرها كل وقت ، تعبده بالليل بالقيام والتهجد ، وتعبده بالنهار بالصلوات والتسابيح ، حتى كان يضرب بها المثل فى التقوى والصلاح ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الشريفة والصفات الكريمة .

تصلى مع الجماعة ، وصلاة الجماعة أفضل من الصلاة منفردة ؛ لأنها تشعرها بأن رباط الأخوة يتوثق عراه توثيقًا ومحبة وترابطًا .

وكان زكريا حين يدخل إليها مكان عبادتها يلحظ شيئًا غريبًا غير مألوف ، يلحظ رزقًا غريبًا فى غير أوانه : يجد فاكهة الشتاء فى فصل الصيف ، وفاكهة الصيف فى فصل الشتاء ، يتعجب لهذا الأمر أولاً ، ثم يرده إلى قدرة الله ثانيًا ، ورضاه عن مريم .

يسأل زكريا مريم ، أنّى لك هذا ؟ وكيف تحصلين على هذه الفاكهة فى غير أوانها ؟ لابد أن الله يصطفيك بهذه الأعجوبة وأنه يمهد لك طريقًا

حسنًا لا نعرفه الآن ، ولكننا سندركه فى أوانه حين يريد الله ، إن الله يدخر لك شيئًا ستفرحين به ، ونفرح به جميعًا ، شيئًا لا نعرفه ولكنه سيكون فاتحة خير للعباد أجمعين .

تقول مريم وقلبها يخفق بحب الله ورضاه عنها : هذا الرزق الوفير ، والفيض العميم ، هذه الفاكهة المتنوعة ، التى تراها فى غير أوانها ، متعددة الألوان والمذاق والرائحة هى من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

كان ذلك إرهاصًا بأن الله يختصها دون غيرها من النساء بشئ لا تدرى كنهه ، ولكنها واثقة أن الله يدخرها لشئ عظيم ، وسيحقق لها أمرًا لم يتحقق لأحد سواها .

أخذت تقلب الأمر على وجوهه كافة لعلها تثبت على شئ تراه واقعًا لها ، لم ترس سفينتها على شاطئ الأمان ، وأخذت أمواج قلقها تتزايد وتضطرب ، تحيرت وأمعنت التفكير ، فأسعفتها ملائكة الرحمة ، وبشرتها باصطفاء الله لها من بين نساء العالمين ، بشرتها بأنها ستنجب ولدًا من غير أب ، سيكون نبيًا مرسلاً يكلم الناس فى المهد وهو طفل ، ويخطب فى الناس وهو كهل ، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ، وأمرتها الملائكة أن تداوم على الصلاة : ركوعها وسجودها ، وأن تداوم على قنوتها حتى تكون جديرة بما يعهده إليها من كرامة وشكر على هذه النعمة ، فكانت تقوم فى الصلاة حتى تفطّرت قدماها من كثرة القيام ، وشحب وجهها من السهر فى عبادة الله .

حفّت بها الملائكة وألقت إليها بالبشارة ، فـالله يبشـرها بكلمـة منـه ، يبشـرها بالمسيح عيسى بن مـريم ، والمسيح معناهـا المبـارك الـذى لا ينسـب إلا لأمه ، أليس فى هذا النسب اصطفاء لمريم على نساء العالمين ؟

سيجئ عيسى إلى الدنيا وهو يتسم بصفات لا يدانيه أحد فى الاتصـاف بها ، فهو وجيه فى الدنيا وفى الآخرة ومـن المقربين ، ذو شـرف ورفعـة فـى الدنيا بالنبوة ، وفى الآخرة بعلوّ الدرجة ، ومن المقربين عند ربـه بارتفاعـه إلى السماء ، تصحبه الملائكة بترانيمهـا وشـفافيتها ، محتفيـة بـه ، تحـدوه بأنوارهـا وأجنحتها .

يكلم الناس فى المهد وهو طفل لم يفطـم مـن الرضـاع ، ويتحـدث مـع الناس وهو كهل حين يهبط إلى الأرض بحديث الأنبياء ، لا تفاوت فى حديثه بين طفولته وكهولته ، إن ذلك أمر خارق لعادات الناس ، فهم لم يألفوا ذلـك ولم يسمعوا به من قبل .

لا شـك أن ذلـك معجـزة مـن أعظـم المعجـزات ، وبرهـان مـن أقـوى البراهين على أن المسيح عيسى بن مريم نبى من أنبياء الله .

دهشت مريم لهذه البشارة التى لم تكن تتوقعهـا وكأنهـا أخـذت بهـا ، فاستجمعت شجاعتها وتعجبـت مـن قـدرة الله ، ستلد طفـلاً يتكلـم بكـلام واضح مثل كلام الكبار ، كلام حسن منظم يفهمه الناس أجمعـون ، يدعوهـم إلى عبادة الله وحده الذى لا شريك له .

كيف يكون لى ولد من غير أب ، وكيف أنجب دون أن يمسـنى بشـر ، فهى عذراء والعذرية تتنافى مع الإنجاب ؟ .

طمأنها جبريل بأن هذا الحدث سيكون بأمر الله وقدرته ، وقدرة الله تمكنه أن يخلق ما يشاء دون أب ، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون .

استجابت مريم لقول الهاتف وأنابت الأمر وأسلمته لرب العالمين ، داخلها الخوف من أثر هذا الحادث إذا تحقق ، ففيه محنة عظيمة لها تجتثّ منه براءتها وطهرها أمام الناس ، فهم سيتكلمون فى ذلك لامراء ، ولن ترحمها ألسنتهم المسنونة وسيصبوّن عليها شواظ من نار غيظهم وموجدتهم ، وستنال منهم عنتا كبيرًا ، ورهقًا شديدًا .

انفردت مريم بنفسها ، وتباعدت عن قومها ، واعتزلت الجميع ، كانت تقبع فى دار خالتها زوج زكريا ، واتخذت منه مكانًا شرقيًا ، تعتكف بالمسجد ولا تخرج منه إلا فى حيضها فتتحول منه إلى دار خالتها ، أو تلجئها الضرورة للخروج من المسجد لقضاء حاجة ، فإذا طهرت أو قضت حاجتها عادت إلى المسجد مرة ثانية تقوم على العبادة بالصلاة وذكر الله .

افتقرت يومًا إلى الاغتسال ، وكان الوقت زمهريرًا والزمن شتاء ، فقصدت ناحية شرقية من الدار فى موضع يقابل الشمس ، واتخذت لها حجابًا عن قومها ، فبينا هى تغتسل وتتطهر وترتدى ملابسها أتاها جبريل مرسل من السماء فى صورة فتى وضيء الوجه ، جعد الشعر ، ممشوق القوام ، عريض المنكبين تفوح منه روائح المسك .

كان جبريل روحًا من ربه ، لطيفًا كالظل ، رقيقًا كالنسمة ، متشبها فى صورة آدمى تام الخلق ، كامل البنيان ، حتى تأنس به ولا تفزع لرؤيته ، ولو جاءها فى صورته ملاكًا بهيبته وسطوته لما احتملت الموقف وخارت

قواها قبل أن تفيق إلى وجوده ، جاءها في صورة بشر ، وفي زي فتى ، وألقى إليها من روح ربه ما ألقى .

رأت مريم بغتة أمامها شابًا جميلاً وضيء الطلعة ، فمن أين قصد إليها ، وهي تنتبذ من أهلها مكانًا منعزلاً لا ترى فيه أحدًا ؟ .

استعاذت با لله منه إن كان يود أن يلحق بها أذى أو يمسها بسوء ، ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾ سورة مريم : الآية ١٨

أدخل جبريل الطمانينة إلى قلبها ، وبدل خوفها أمنًا ، وجزعها سكنا : إني لست ممن يتوقع منه الشر وإلحاق الأذى ، أنا رسول من قبل ربك ، وسبب في أن يهبك ا لله غلامًا ذكيًا ، فأمرت أن أنفخ في فتحة قميصك ، وتسرى النفخة ، وتصير بإذنه غلامًا طاهرًا من الذنوب ، بعيدًا عن الآثام .

تعجبت مريم لهذا الحديث الذى تفوّه به الشاب ، وقد أدركت من حديثه أنه ملك رسول من قبل ا لله ، يؤدى رسالته ويبلغها إرادته ، لكنها تعجبت وكان تعجبها من حيث العادة ، وليس من حيث استبعاد ذلك الأمر على قدرة ا لله .

– لم يباشرني رجل بالنكاح في يوم من الأيام ، ولم أك امرأة سوء تبغى الرجال وتعاشرهم بغير زواج ، فأنا امرأة نقية عفيفة تحفظ نفسها ، وترضى ربها ، وتبتعد عن الحرام .

– صدقت يا مريم ، فصفحتك بريئة من كل درن ، ونفسك صافية من كل خبث ، والأمر كما ذكرت ، ولكن ا لله أرسلني إليك لأنفذ أمره ، وأقضى به .

فولادة طفل دون أن يمسك بشر أمر هين على الله سبحانه ، وإن كان مستحيلاً فى وعى الناس وإدراكهم ، والله لا يفتقر إلى الأسباب ولا إلى الوسائط ليقضى أمرًا ، وإذا حقت كلمته نفذت دون إبطاء ، فكمال قدرته بلا حدود ، تخترق المكان والزمان والبشر والكائنات جميعًا ، لا يقف دونها شئ ولا يمنع تنفيذها أحد ، يقول للشئ كن فيكون ، وحملك للولد دون معاشرة رجل ، دليل حى على القدرة الألهية التى لا تحدها حدود .

كان خلق عيسى بلا فحل أمرًا قضى به الله فى سابق علمه ، وحكم بوقوعه ، فلا فائدة من الحزن ، ولا سبب للدهشة .

واطمأنت مريم إلى جبريل ، واقترب منها ، ونفخ فى فتحة قميصها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت بعيسى عقب النفخة مباشرة .

الولادة

حملت مريم بعيسى وشعرت بالجنين يتحرك فى إحشائها ، حزنت حزنًا عظيمًا فقد علمت أن القوم سيلوكون سيرتها ، وينهشون سمعتها وهى التقية البارة التى لم تقترف إثمًا و لم ترتكب معصية . ياليتنى مت قبل أن أشعر بهذا الحمل !!

ظهرت مخايل الحمل عليها ، وقد لاحظ حملها شخص من المقربين إليها يوسف بن يعقوب النجار رجل من بنى إسرائيل ابن خالها ، وتعجب يوسف لهذا الحمل تعجبًا شديدًا ، فهو يعلم نزاهتها وعبادتها وتقواها ، فكيف تكون حبلى وليس لها زوج ؟

وعرض لها ذات يوم فسألها :

هل يبدو زرع دون بذرة ؟ قالت وقلبها يمتلئ إيمانًا ويقينا بقدرة الله : نعم قد يظهر الزرع دون أن تطوى التربة البذرة ، فمن خلق الزرع الأول ؟ خلقه دون بذرة ، فلا تدهش لقدرة الله .

وأعاد يوسف النجار السؤال بطريقة أخرى ، ليس تعريضًا بمريم ، فهو يعلم أنها بتول لا تعصى الله فى أمر ، ولا ترتكب فاحشة ، وإنما أراد فقط أن يستفسر عما بدا له .

هل يكون ولد من غير ذكر ؟

قالت مريم كلمتها الفاصلة فى هذا الأمر ، الذى يعلن فى طياته براءتها ، وبعدها عن الإثم والمعاشرة .

نعم الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى أليس ذلك عجبًا ، أليس ذلك دليلاً على قدرة الله؟ .

فلم تعجب إذا حملت دون معاشرة رجل ؟ ، وينسب الوليد إلى أمه مريم ، فليس له أب ليضع بذرته فى أحشائى ، ويكون سببًا فى ولادته . بل هى قدرة الله التى نفخت روحها فى بطنى فكانت هذه الثمرة التى تلحظ نموها . إنها إرادة الله ، وإرادته تعم الكون كله حكمة ونظامًا ، فلأمر ما لا أدرك حقيقته ، كان هذا الحمل الغريب ، وسوف تتكشف الأمور حين الولادة ، ونعلم حكمة الله فى هذا الحمل الذى ظهرت بوادره دون التقائى بذكر .

انتبذت بحملها مكانًا قصيًّا بعيدًا عن الأهل والأصدقاء ، وعندما شعرت بآلام المخاض وحان وقت الولادة ، اندفع الجنين من رحمها يبغى الخروج ، اعتمدت على جذع نخلة وهى تئن ، كانت مريم فى ظروف صعبة ، لم تكن لها قابلة تعينها على الولادة والتخفف من ثقل الحمل . وعندما انطلق الطفل من رحم أمه داهمها حزن عميق ، وباغتها أسى شديد ملأ كل جوانحها ، فماذا تفعل بهذا الوليد وكيف تواجه قومها ؟ وماذا تقول لهم ، وهل يصدقون ما تقول ؟ ، وهم قوم عرفوا بالطيبة والصلاح وعبادة الله ، تمنت لو أنها فارقت الحياة قبل أن يغيب نجم أو تطلع شمس .

لم تتمنّ مريم مفارقة الحياة كراهة لحكم الله ، ولكن تمنته حياء ومداراة لنفسها من مواجهة الناس .

جزعت مريم جزعًا شديدًا لما يمكن أن يحدث لها ، كانت [illegible] أمنيتها أن تفارق الحياة وبلغ نداؤها أبواب السماء ، فأرسل الله لها جبريل ليربط على قلبها ، ويقوى من عزمها ، ويجعلها قادرة على اجتياز هذه المحنة الباهظة ذات التكاليف الشاقة ، التى تنوء بحملها مريم وحيدة دون معين .

ناداها جبريل من مكان قريب . لا تحزنى يا مريم بولادة عيسى ، ولا تجزعى وأنت فى هذا المكان القحط ، لا قابلة تعينك ، ولا صديقة تساعدك ،

لا تبتئسى لحالك ، ولا تغتمى لما أنت فيه . فقد جعل ربك من تحتك نهرًا صغيرًا ، وماء عذبًا تجرى جداوله فراتًا . وضرب جبريل بقدمه الأرض فتفجرت عين ماء عذب يجرى دوما دون انقطاع .

وهذه النخلة السامقة بأغصانها وأوراقها ، تستظلين بفروعها ، إذا هززتها تساقط عليك منها رطبًا جنيًا ، قد بلغ الانتهاء فى النضج والحلاوة واللذة .

فكلى الرطب من فوقك ، واشربى الماء من تحتك ، فتشعرين بالقوة والرى ورضا النفس ، وصفاء الروح .

فذلك كرامة لك يا مريم ، ومؤازرة من الله لولادة طفلك الحبيب .

وعند الولادة سالت منها دماء تفتقر إلى تعويضها بالغذاء ، فكان التمر والماء هما الوسيلة لتقويتها مما فقدت من دماء ، وتزيل ما بها من عناء .

كان أمر جبريل لها أن تطعم وترتوى ، فيه ترغيب شديد وتلطف رقيق ، حتى تطيب نفسًا ، وتزيل ما خامرها من عوامل الحزن والغم ... فالله قد نزه ساحتها بما أولاها من نعمه العديدة ، وكراماته العظيمة . جرى النهر من تحتها عذبًا فراتًا ، واخضرت الشجرة القاحلة وأثمرت فى غير أوانها ، فإذا رأى قومها هذه الأشياء الخارقة ، لم يستبعدوا ما حبى الله به مريم من خارقة أخرى : وهى ولادتها لطفل بلا فحل ولا أب .

أو صاها جبريل من لدن ربه : إذا رأيت آدميًا كائنًا من كان وسألك عن ولدك ، فأجيبيه بالإشارة دون اللفظ ، فقد أوجبت على نفسك الصمت فقولى : " إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلّم اليوم إنسيًا ، وكان من صومهم فى شرعتهم تجنب الكلام وترك الطعام .

ذهبت إلى قومها تحمل وليدها تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فماذا يمكن أن يقولوا لها ، فربما أغلظوا لها فى القول ورموها بالفاحشة ، وإن فعلوا لا لتمست لهم الأعذار .

عندها رآها القوم انخلعت قلوبهم من هول المفاجأة ، ودهم نفوسهم الهلع . فأنت يا مريم من بيت طاهرة ، تنحدرين من أصول طيبة ، وليس هذا من شيمهم ، ولا من سجاياهم ، وأبوك وأمك وأقرباؤك جميعًا يتصفون بالطهارة والنقاء ، وليس بينهم من هو متهم فى خلقه أو عرضه أو دينه .

اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله نفر منهم ، واختفى عن أنظارهم ، أخفاه الله فى جوف شجرة فلم يروه أمامهم ، وفتشوا عنه فلم يجدوا له أثرًا .

وترددت شائعات بين المنافقين أن الذى فعل هذه الفعلة هو ابن خالها يوسف النجار . ولهجت ألسنة السوء بمثل هذه الأقوال الكاذبة الغادرة .

لم يكن لدى مريم سوى أن تستسلم لإرادة الله ، فهو الحفى بها ، وهو القادر أن يظهر براءتها ، ويحميها من كيد الغادرين ، وادعاء الظالمين .

أشارت مريم إلى ولدها الطفل الصغير عيسى ، فهو فى عمر لا يستطيع معه الكلام أو الإبانة ، أشارت إلى قومها أن يتحدثوا معه ، وهو يجيبكم ، وعندئذ يكون كلامه برهانًا على براءتى ، ودليلاً على نزاهتى وعفتى ، فهو مجرد طفل صغير ، ومن يكون فى مثل عمره ليس من شأنه أن يتكلم أو يعى ، فإذا تكلم فهذا تكريم لى وكرامة له ، تكريم لى لما فى ذلك من تأييد لبراءتى ، وكرامة له لأن فى ذلك شأنًا له .

أنكروا حديثها برهته ، فكيف يتجاذبون الحديث مع صبى رضيع ما زال فى حجر أمه ، ليس عنده مقدرة على الكلام ، أو فهم الحديث ، أو رد الجواب .

كيف نكلم صبيا فى المهد ، إنك تستخفين بعقولنا يا أخت هارون وتسخرين منا ، وفينا الشيخ ، والكهل ، وذو الرياسة والمكانة؟ .

قالت مريم : لم أرد الاستخفاف بكم ، وإنما أردت إظهار معجزة الله التى أودعها فيه حين ولد بغير أب ، ويكرمه حين يتحدث فتظهر براءتى لكم ، وتطمئنون إلى نزاهتى وعفتى ، تجلت معجزة الله فى هذا الطفل الرضيع ، فقال بلسان مبين " إنى عبد الله " كانت هذه أول كلمة تفوه بها إقرار بعبوديته لله ، بالله الذى خلقه دون أب على خلاف ما ألف الناس ، فعيسى ليس إلآها ، بل هو عبد من عباد الله ، ونفى التهمة التى وجهت إلى أمه مريم ، تهمة الزنا ، إذ أن الله لا يخص الفاجرة بولد مثله ، ليس عبد سوء ، ولا عبد طمع ، ولا عبد شهوة .

ومنحنى الإنجيل فى تعاليم يهتدى بها البشر ، وجعلنى نبيًا من أنبيائه المخلصين نفاعًا بالخير ، معلمًا للأخلاق السامية . أجل لقد وهبه الله الإنجيل والنبوة ، وهو طفل لم يبلغ الحلم بعد ، إذ كان يعقل بعقل الرجال .

وأمرنى الرب بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا فى الدنيا ، وأوصانى أن أكون بارًا بوالدتى محسنًا إليها ، لطيفًا فى معاملتها .

ولم يودع فى صفة الجبارين المتكبرين ، ولا سمة الأشقياء العاصين ، وأبعدنى عن زيغ الشيطان حين ولدتنى أمى دون أب ، وانتشلنى من سكرة الموت وغمرته بسبب اقترافنا جميعًا لبعض الذنوب كبيرة أو صغيرة ، وأنجانى من هول القيامة وعذاب النار .

وأتم عيسى معجزة الله ونبيه بقوله : ﴿ وأن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (سورة مريم : الآية ٣٦) فما ذكرته من التوحيد ، وتنزيه الله

عن الأبوة هو الطريق المستقيم الذى لا يضل من يسلكه ، ويبقى بعيدًا عن الوقوع فى مهاوى الإثم .

لقد حبا الله نبيه عيسى بنعم جليله جمة .

حباه بأن علمه الكتابة والخط بالقلم ، والإلهام والوحى ، وكان أحسن الناس خطا فى زمانه ، وعلمه العلوم العقلية ، والعلوم الشرعية ، وتهذيب الخلاق.

كان مثلاً فى دماثة الخلق ، ولين المعاشرة ، وطيب المعاملة . لا يغضب إلا لله ، ولا يكره إلا فى الخروج عن تعاليم الله .

علمه الله التوراة والإنجيل فحفظهما عن ظهر قلب : وجعله نبيا هاديًا ، ورسولاً صادعًا بالدعوة إلى ملكوت الله .

دعا بنى إسرائيل ، فكان آخر أنبيائهم ، كما كان يوسف عليه السلام أول أنبيائهم .

كل ذلك كان فيه تطييبًا لقلب مريم أمه البتول ، ووجدت فى ذلك مندوحة وكرامة بأنها ولدت دون معاشرة رجل ، حتى تجوب معجزة ولادة عيسى آفاق الأرض كلها ، وتبقى على مر الأزمان مثالاً حيًا على طهارة مريم العذراء أم عيسى عليه السلام ، وأعجوبة ناصعة على قدرة الله التى ليس لها حدود .

الفرار

ولد المسيح فى عهد الملك هيرودُس فى بيت لحم ، قريبًا من بيت المقدس .

وفى أثناء ذلك رأى المجوس الذين وفدوا من الشرق نجمًا بين أظهرهم ، واستبانوا من ظهوره أن طفلاً سيولد ويصبح ملكًا لليهود . فسألوا عن هذا المولود الواعد ، وقد وفدوا من بلادهم فى أثر النجم الذى ظهر عندهم ليشاهدوا طلعته ، ويعظموا شخصه ، ويسجدوا بين يديه تحية وإجلالاً .

لقد خرت الأصنام لمولده ، وخفت له الملائكة وهو فى حجر أمه ، ونجم مضئ فى السماء احتفاء بمقدمه .

اهتزت أور شليم من أقصاها إلى أقصاها عند سماع هذا النبأ الذى كان يتردد بين المجوس ، واضطربت البلاد اضطرابًا شديدًا اهتز له عرش هيردوس ، وكاد يهوى أنقاضًا .

جمع هيرودس القواد والرؤساء والكهنة ، ليسمع أقوالهم فى هذه الشائعة التى ملأت الأسماع ، واقتحمت القلوب ، وتردد صداها بين الناس ، أهى حقيقة واقعة أم أكذوبة شاعت وصدقها الناس ؟ وانتشرت بينهم انتشار الضوء حين تكون الشمس فى كبد السماء ، واستفسر من المجموع حوله إن كان ما يدور على ألسنة الناس صدقًا ، أم مجرد زعمات يرددها الناس ويصدقونها ؟

أين ولد ذلك الطفل ، ومتى ولد ، وأين مقره الآن ، ومن أمه وأبوه ؟ إن هيردوس يريد أن يستقصى أمر الطفل ، وأن يعرف كل ما يحيط به . وطلب من الكهنة والقواد والرؤساء أن يبحثوا عنه فى كل مكان ، وأن يفتشوا عنه فى كل بقعة ، فى كل دار ، وكل كوخ ، وفى زوايا كل حجر ، ووراء كل صخرة ، ابحثوا عنه فى مشارف الطرق ، وعلى ضعاف النهر ، فتشوا عنه بين الأشجار ،

وعنـد الأطلال وفوق الجبال والهضـاب لا تـتركوا مكانًـا إلا وتنقبـوا أحجـاره ، ولا دغلا إلا تفتشوا بين أغصانه ، أرهفوا آذانكم لخرير المياه ، وحفيف الأشجار ، لعلكم تسـمعون صـوتًا ينبعث من طفل ، ويكـون هو ذلك الطفـل ، ابحثـوا عنـه فى كل أنحاء الأرض ، فإن عثرتم عليـه فأسـرعوا بإحضـاره ، وأخـبرونى بمقدمـه ، علّى أكون أول ساجد تحت قدميه .

لم يرد هـيرودس حقيقـة مـا قـال ، وإنما أراد أن يظهر لكنهـة المجوس أنـه مشغوف برؤية الطفل ، وأنه سيحتفى بقدومه ويسعد لوجوده .

أراد ذلك ظاهرًا وتفوه بهذه العبارات التى تبين مدى سعادته بما وصلـه مـن خبر الطفل ، إنه فى شوق جارف لرؤيته .

ولا تكتحل عينه بنوم حتى يراه أمامه ويجثو بين يديه .

أعلن ذلك أمام الكهنة ، ولكنه أضمر آمرًا آخر على نقيض ما أظهر وزعم ، أضمر فى نفسه أن يقتله إذا وقع بين يديه وانصرف الناس عنه . فـأنّى لهـذا الطفـل أن ينازعه الملك أو يستلب منه السلطان ، هيهات أن يكون ذلك ؟

سـار القوم وراء النجم الذى يهتدون به ، والنجم يرحل مـن مكـان ويحـط فى مكان آخـر ، وهـم يتتبعونـه ويسـيرون خلفـه ، وعنـدما توقـف النجـم وثبـت فى موضعه ، أيقنوا أن الطفل فى هذا المكان الذى ثبت به النجم أو قريبًا منه .

اقتحموا الدار وهم متهيبون وجلون ، يحدوهم الأمل ، ويحرقهم الشـوق إلى رؤية الطفل المقصـود ، رأوا هالة مـن نـور يتدفـق ضوؤهـا فـى أنحـاء الـدار وتعـم ساحته ، رأوا الصبى مع أمه مريم تحمله بين ذراعيها ، ففرحوا لذلك فرحًا شديدًا ، واحتاج السرور جوانبهم ، وجثوا بين يديه تحية له وسعادة به .

اتحفوه بالهدايا ، بالطيب والبخور وكل ما معهم من أشياء يطيب لهم أن يقدموها له ، ثم استرجعوا ما قال هيرودس وأنه فى انتظار الطفل على شوق عظيم ، ارتابوا فى الأمر ، وأن هيرودس يخفى من أمره شيئًا يضمره فى نفسه ولا يبوح به ، أتاهم هاجس ، فانصرفوا إلى بلادهم دون أن يعوجوا على هيرودس ، وغضوا النظر عن العودة إليه وإخباره بشأن الصبى .

لم يطلعوه على جلية الأمر ، ولم يلقوا إليه بشارة عثورهم عليه ، والملك فى انتظارهم ، وهم قد تخلوا عنه ، وقفلوا راجعين إلى بلادهم دون أن يخبروه بشئ .

شعر هيرودس أن المجوس قد سخروا منه وتلعبوا به ، وأنهم عادوا إلى بلادهم دون أن يحفظوا كلمتهم ، أو يراعوا سطوته وسلطانه ، فيخبروه بما حدث .

استشاط هيرودس غضبًا ، واستبد به مقت شديد ، وحسد عظيم ، ليس لذلك الطفل وحده ، بل لكل طفل أنجبته أمته فى هذه الفترة ، وولد فى أرجاء مملكته ، وفوق أرضه ، وتحت سمائه .

أمر بذبح الصبيان فردًا فردًا ، فكل من وصلت إليه يد الباغين امتدت إليه ، سفكت دمه فى بيت لحم ، فى الجليل فى أورشليم ، كل طفل دون سنتين ، حتى لا يشب فينازعه المُلْك ويستأثر به دونه .

أذعن الطغاة لأمر هيردوس ، ونفذوا رغبة مليكهم الغادر ، وحاكمهم المستبد ، ولكن الله حفظ عيسى من كيد الطغاة وشر الحاكم ، فالله يدخره لأمر سيكون ، سيكون نبيًا مرسلاً لهداية قومه ، للصفح والعدل والمحبة ، وداعية إلى توحيد الله بإذنه ، ونبذ الشرك والوثنية ، ومات هيرودس قبل يحقق رغبته ، وأن يلحق الأذى بنبى الله عيسى ، وقبل أن تمسه يد البغاة بسوء فلم يعثر عليه أحد .

أوحى الله لمريم أم عيسى بما يطمئن قلبها على وليدها وفلذة كبدها ، ويدلها على طريق النجاة بنفسها وبطفلها ، فلا مفر من مغادرة بيت لحم والفرار إلى مصر ، وهناك ستكون آمنة مع طفلها ، حيث لا تتعقبها عيون هيرودس ، ولا تصل إليه أيديهم ، فتمضى مع الصبى فى صحبة ابن خالها الصالح يوسف النجار ، وتدخل مصر آمنة من شر الحاسدين وكيد الباغين .

هيرودس يبحث عن الصبى ليقتله ، وينكل بأمه ، وفتش عنه أعوانه فى كل بقعة دون جدوى ، وما زال يلح فى طلبه حتى فارق الحياة ، فلا عثر على الصبى، ولا بقى له ملكه الذى سعى جاهدًا فى الحفاظ عليه ، خوفًا من أن ينتزع منه . فشهوة الحياة ، وسلطان الحكم ، وكثرة الأعوان ، أغرته أن يتمسك بالحكم ، ويستأثر بمتع الدنيا ، فترك كل مظاهر الحياة البراقة ، ليبقى فى أغوار حفرة ، متدثرًا بحفنة من التراب أهيل عليه وهو مسجى فى قبره .

عادت مريم وابنها عيسى من مصر إلى منطقة الجليل بعد أن أمنت كيد هيرودس الذى فارق الدنيا ، وسكنت مع ابنها فى محلة تسمى الناصرة .

حين بلغ عيسى من العمر ثلاث عشرة سنة ، غادر مصر بوحى من الله أن يولى وجهه شطر الجليل متجهًا إلى بيت إيليا ، فأخذه النجار مع أمه مريم وحملهما على ظهر حمار ، وأقام فى إيليا ، وتحدث الناس عن قدوم الصبى ، وما يظهر على يديه من كرامات ومعجزات ، وتعجبوا لما كان يأتى به من عجائب وخوارق .

عندما عاشر عيسى شعب الجليل ، كانت أحوالهم لا تخفى عليه ، رآهم يعيشون فى ظلمة الحياة ، وركود النفس ، وحمأة البغى ، وأتون الشهوات ، شعب ينبغى أن يغير من أحواله الفاسدة ومعاملاته الزائفة ، ويترك ما فيه من ظلم ، وينفض ما عليه من ظلام وأثرة .

شعب يتحرق شوقًا إلى نور الهداية وعدل المعاملة ، وعفة النفس ، وطهارة القلب .

شعب يفتقر إلى نبى يحرك سكونه الراكد ، ومياهه الآسنة ، فتجرى فى عروقه عذوبة السماحة ، ونقاء النفس ، وسلامة الصدر ، شعب يشتاق إلى عبادة الرب وحده ، ولا يلوذ بصنم أو وثن ، أو يتقرب لآلهة غير الله .

شعب يود من صميم فؤاده أن يخرج من ظلمة الاحتضار إلى واحة الإيمان فيشرق عليهم نور الله محبة وألفة ، وهم فى النهاية فى مسيس الحاجة إلى نبى يحثهم على التوبة من شرورهم ، ويبشرهم بملكوت السموات .

بعد أن تكلم عيسى ابن مريم وهو طفل ، وأنطقه الله بالحكمة وفصل الخطاب ، أمسك عن الكلام حتى بلغ ما يبلغ الغلمان من العمر ، ثم أنطقه الله بعد ذلك على مدى الزمان بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكن اليهود لم يسمعوا له ، ولم يصَيخوا لحكمه ومواعظه ، ولم يتركوه وشأنه ، بل أغلظوا له فى القول ، وبادروه بالتهكم والسخرية ، وهتكوا ستر أمه مريم فلقبوه بابن البغية ، ولا ينادونه إلا بابن الزانية : ﴿ بكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيمًا ﴾ (سورة النساء : الآية ١٥٦) .

كان عيسى وهو غلام يلعب مع أترابه من الغلمان ، يتجاذب معهم الحديث ويقضى السويعات فى صحبتهم شأن الغلمان فى كل بقعة وزمان ، كان يقول لأحدهم : أتريد أن أخبرك بما خبأته لك أمك ؟ فيقول : نعم ، فيخبره عيسى أن أمه خبأت له كذا وكذا من ألوان الطعام ، وأصناف الفاكهة ، وأنواع الحلوى ، فيعود الصبى إلى أمه لتطعمه مما خبأته له .

أى شئ خبأت لك ؟ فيذكر لأمه ما خبأته ، فتندهش الأم وتعجب ، وتسأله من أخبرك بهذا ؟ فيقول : أخبرنى عيسى ابن مريم ، فيصدق قول عيسى الغلام إذ لم يحد قوله عن الصواب .

خافت الأمهات على أطفالهم ، وأجمعن أن يخفوهم عن عيسى ، فلا يخالطونه ولا يتحدثون معه ولا يصحبونه ، حماية لهم مما قد يلحق به من إفساد، فجمعوا أبناءهم فى بيت وأغلقوا الباب عليهم .

خرج عيسى يلتمس أترابه علة يجد أحدًا منهم يقضى معه الوقت ، ويتحدث بما يرغب الغلمان أن يتحدثوا فيه ، لم يجد واحدًا ممن كان يرافقهم ويأنس بهم ويأنسون له ، وإنما وجد أبوابًا مغلقة تصدر من خلفها أصوات صبيان ، وضوضاء أشبه بالضجيج ، شئ يشبه قباع الخنازير وتخيرها ، وأصوات القردة وصياحها ، فماذا يمكن وراء الباب ؟

سأل عيسى عن هذه الأصوات التى تتلقفها أذنه من وراء الأبواب ، أهى أصوات رفاقه من الصبيان ؟ أم هى جلبة يحدثها بعض الحيوان ؟

قالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير تحدث هذه الضوضاء عندما تتناوش وتتلاعب .

فكان عيسى يقول : اللهم كذلك .

فصاروا كذلك وحولهم الله قردة وخنازير كما قال آباؤهم وأمهاتهم .

الموعظة

رأى المسيح شعبه من اليهود يركد في ظلام دامس من الفساد والغواية والضلال ، وبعْد عن الطهارة والتقوى والتوحيد ، وشرع يبشرهم بالتوبة والقبول وحسن الفعال .

كان ينتقل بين اليهود على أرض الجليل يلقي إليهم بتعاليمه ومواعظه التي استمدها من الله ، وأخذ في معالجة النفوس الآبقة ، والصدور الحانقة ، والقلوب الفاسدة ، يحاول أن يردها إلى الإيمان والخلاص والمثوبة ، كان يعالج النفس قبل أن يعالج البدن ، ويزيل الغشاوة عن القلب قبل أن يزيل المرض عن الجسد ، فذاع صيته بين شعبه ، وتجمع الناس حوله من أركان البلاد ، مصطحبين مرضاهم وعميانهم ومن ألمّ به صمم ، أو فالج ، ومن سكنه ، شيطان مَريد ، أو صرعه جنّ عنيد ، أو لمسه مارد عتيد .

تبعته جموع غفيرة من مناطق الجليل وأورشليم والأردن والمدن المحيطة بها ، تبعوه لعلهم يسمعون منه كلمة ، أو يلمسون له ثوبًا ، أو يضعون أكفهم في راحة يده ، فيجدون الراحة في حديثه ، والشفاء في كلمته ، والأمان في موعظته .

صعد المسيح ربوة عالية ، وتوافد الناس عليه من كل صوب يزاحم بعضهم بعضا ، فتصطك الأكتاف وتتقارب الرءوس ، وتتلاقى الأيادي ، ويشق بعضهم الطريق عنوة ليقترب إليه فيراه على البعد ، ويصيخ لكلماته ، فتصل إليه مدوية تملأ السمع والقلب ، وحين تسكن الأجساد ، ويكف الصياح ، وتهدأ الأصوات ، يأخذ المسيح في الموعظة[١] :

---

(١) مواعظ المسيح مستمدة من الأناجيل .

طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات .

طوبى للحزانى فإنهم سيعزَّون .

طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنهم سيشبعون .

طوبى للرحماء فإنهم سيُرحمون .

طوبى لصانعي السلام فإنهم أخلاّء الله .

طوبى للمضطهدين فإن الله سينتصر لهم .

طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدكم الحكام .

افرحوا وتهللوا الله سيدخر لكم الدار الباقية ، والجنان الواسعة ، فمكافأتكم فى السماء عظيمة .

لاتيأسوا من اضطهاد الظلمة لكم ، فقد اضطهد الأنبياء قبلكم .

وأنتم الفقراء والمضطهدون ، والمرضى والجياع ، أنتم ملح الله فى الأرض ، ولا تصلح الأرض دونكم ، كما لا يصلح الطعام دون ملح ، وإذا فقد الملح طعمه ، فلن يعود إليه مذاقه ، ولن يسترد طعمه ، فلا يصلح الملح للتربة ولا للسماد ، وإنما يطرح خارجًا لتدوسه الأقدام .

أنتم نور العالم المضئ الذى يشع للأبصار ، وهل تختفى مدينة بنيت على قمة جبل ، أو مصباح يملأ الغرفة بنوره إلا إذا وضع تحت مكيال ، أو اختفى تحت صندوق ، المصباح يوضع فى مكان عال ليضئ لجميع من فى الدار .

فليضئ نوركم أمام الناس ، وليذهب شعاعكم فى القلوب ، حتى يروا أعمالكم الباهرة ، ونواياكم الطيبة .

لم أرسل لألغى شريعة الأنبياء قبلى ، ولا لأفسد تعاليمهم السامية الحبيبة إلى القلوب . فما جئت لألغى شريعة ، ولا لأفسد تعاليم ، وإنما مكملاً لما سبق من أقوال الأنبياء ، وأتم حكمة المرسلين .

فالقتل معصية ، وكل من قتل يستحق محاكمته وعقوبته ، وإنى أردد ذلك وأقرره ، وأضيف إليه أن كل من غضب على أخيه يستحق أن يحاكم ويدان ؛ بل إن أقلّ كلمة فيها احتقار لأخيك الإنسان ، حتى كلمة ياتافه أو يا أحمق ، يستحق عليها نار جهنم .

عليكم أن تعيشوا متحابين متوادّين متعاطفين ، يشعر بعضكم بمعاناة الآخرين ، فيحاول أن يخفف عن أخيه آلامه ، ويزيل أحزانه ، ويبدل أتراحه فرحًا ، وعنفه وداعة ، وحيرته اطمئنانا ، وخوفه أمنا .

لا تزن بحليلة جارك ، ولا بامرأة عزبة أو متزوجة ، فلو نظرت إليها باشتهاء ، بمجرد اشتهاء دون ملامسة ، فقد زنيت بها فى قلبك ، فالعينان تزنيان .

فإن زنيت بعينك ، فحقك أن تنزعها من محجرها وتلقيها بعيدًا عنك ، فخير لك أن تفقد عضوا من أعضائك ، ولا يطرح جسدك كله فى النار .

وإن لامست يدك يد امرأة تريد أن تفجر بها فاقطعها ، والْق بها من حالق، فذلك خير من أن يلقى بجسدك كله فى جهنم ، فلا تنتظر الحكم عليك ، وإنما أنت تحكم على نفسك فتزجرها قبل أن تقع فى الآثام .

تحمل زوجك ، وارض بنصيبك ، واطو جناحك على عصيانها لأوامرك ، فأنت سيدها وراعيها ، ولا تطلقها مالم ترتكب معصية الزنى ، فإن طلقتها دون الزنى ، فقد دفعتها إلى اقتراف الزنا ، وأنت مشارك لها فى المعصية .

ولا تقسم با لله حتى يكون قسمك فيه تأكيد لقولك . ولا تحلف با لله أبدا، لاتحلف بسمائه ولا بأرضه ، ففى السماء عرس ا لله ، وعلى الأرض موطئ قدميه؛ بل احرص على أن تفى بعهدك ، وأن تبرّ بقولك ، فذاك خير لك من القسم إذا نذرت و لم توف ، وقلت و لم تصْدق .

وإنما يكون كلامك نعم إن كان نعم ، ولا إن كان لا ، وما زاد على ذلك فهو لغو وشر .

يقولون : النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن، والسن بالسن ، وإن جرحك أحد فليُقتص منه بمثل ما جرحك ، وأزيد على ذلك فأقول : لا تواجهوا الأذى بمثله ؛ بل قابلوه بالصفح ، فمن لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر ، ومن جذبك من ردائك ، فاخلعه وأعطه له .

أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا معاملة من يبغضكم ، فارفق بالناس وإن عنفوا معك ، وصالحهم إن خاصموك ، واعف عنهم إذا أساءوا إليك .

لا تداهنوا حاكمًا ، ولا تنافقوا رئيسًا ، ولا تمالئوا كاهنا ، لا تعلنوا عن بّركم أمام الناس ليتحدثوا عنكم ، ويقولوا : فعل فلان كذا ، وإذا تصدقت على أحد فلا تنفخ فى بوق ، فيعلم الحاضر والغائب ، والقاصى والدانى ، فهذا فعل المرائين الذين يفعلون الخير ، ليمدحهم الناس ، فإذا تصدقت فلا تعلم شمالك ما تنفق يمينك ، ولتكن صدقتك خفية ، وعطاؤك سرًا ، فا لله يرى السر وما خفى منه ، وهو يكافئك وحده على ما قدمت .

لاتصلوا فرادى أمام الناس بحيث يراكم الناس ، أو يسمعوا دعاءكم فى صلاتكم ، لا تصلوا على جوانب الطرق ، أو فى جنبات الشوارع ، لا تصلوا

أمام دياركم أو على أسطح منازلكم ، لاتقولوا للناس إنكم تقيمون صلاتكم ؛ ليتحدثوا عن تقواكم وصلاحكم . إن ذلك لهو عين المراء ، ولون الخداع .

فإذا أردت أن تصلى حقيقة ، فلتكن صلاتك فى بيتك لا يطلع عليها أحد ، فهى صلاة بينك وبين ربك ، فلا العبد يكافئك عليها ، ولا المشاهد يثيبك عنها .

ولكن اطمئن بقلبك فى صلاتك ، وتوجه إلى الله بدعائك فيستجب لك الرب ، فالرب يعلم حاجتك قبل أن تسأله ، ويحققها لك قبل أن تطلبها .

وعندما تصومون لا تباهوا بصيامكم ، ولا تتكاسلوا عن أعمالكم ، ولا تظهروا للناس وهن أجسادكم ، فيرون العبوس يعلو وجوهكم ، ولا تفعلوا كالمرائين الذين يقطبون وجوهم ؛ لكى يعلم الناس أنهم صائمون .

ولكن عندما تصوم فاغسل وجهك ، ونق سريرتك ، واجعل ثغرك باسمًا ، ولسانك حلوا ، وليملأ الطيب رأسك فلا يظهر صيامك ، فصيامك بينك وبين ربك ، فعامله ولا تعامل الناس فتظهر لهم صومك ، وتبدد طاقتك الروحية أمامهم ، فهم لا يكافئونك بشئ ، ولن يسلبوك شيئًا .

ولا تبخلوا على أنفسكم وذويكم فتحبوا المال حبًا جمًا ، تكنزونه فيكون مرتعًا للصدأ والسوس ، فتبلى كنوزكم ، ولن ينتفع بها الأهل أو ذوو القربى .

تصدقوا بأموالكم ، وامنحوها للفقراء ، والجياع ، والمحتاجين ، فذلك خيرلكم من أن يعلوها الصدأ ، أو يسرقها اللصوص .

وابنوا بها بيتا عند الله تلوذون به بعيدًا عن نار جهنم ، فالإيمان بالله وحب المال لا يجتمعان ، كعبد يستولى عليه سيدان ، إن أرضى أحدهما سخط الآخر ، وإذا لزم الأول هجر الثانى ، فلا يمكنكم أن تكونوا عبيدًا لله والمال معا ، فهذا أو ذاك.

لا تنغّصوا عليكم الحياة بالبحث عما تأكلون وما تشربون وما تكتسون ، فالحياة أكثر من البحث عن الطعام والشراب والكسوة .

انظروا طيور السماء ، لا تزرع ولا تحصد ، وإنما تخرج من أوكارها قبل طلوع الشمس ليس فى حويصلتها حبة قمح ، وتعود مليئة سعيدة مغردة ، فالله يرزقها و لم ينس أن يطعمها ويسقيها .

فلا تحملوا همّا لطعام ولا شراب ولا كساء ، فالله يتكفل بذلك دونكم .

ولا تهتموا بأمر الغد ، فالغد كفيل بنفسه ، وما فى الغيب لا ندركه ، ولا يعلمه إلا الله .

ولا تدينوا أحدًا ، فإن فعلتم أدنتم ، وكما تدين تدان ، وبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم .

ولا تفتش عن عيوب غيرك ، فكلنا عيوب ، وقبل أن تنتبه للقشة التى فى عين أخيك ، انظر إلى الخشبة فى عينك ، فأخرجها أولا من عينك ، فإن أخرجتها أبصرت جيدًا ، فتخرج القشة من عين أخيك .

وليست مواعظ عيسى المسيح تتسم بالسلبية ، أو أن يترقب المؤمن ما قد يحدث له ، وعليه أن ينتظره ويتلقاه دون أن يسعى ؛ بل إن تعاليم السيد المسيح تتصف بالإيجابية والحركة ، فلا تدعو مواعظه للخمول أو الكسل ؛ بل هى رؤية متفاعلة تصلح لأن تعمر القلوب بإيجابيتها المترعة بالوداعة والطيبة ، لا تدعو إلى التكالب ، أو الغدر ، أو الظلم ، أو العنف .

« اطلبوا تعطوا ، واسعوا تجدوا ، اقرعوا يفتحْ لكم ، فمن يطلب ينلْ ، ومن يسع يجد ، ومن يقرعْ يفتح له .

وإذا طلبت خبزًا فلن تعطى حجرا ، وإذا سألت سمكة فلا تعطى حية ، فالرب يعطى عطاياه الجيدة التى تطلبون منه .

الأبناء ثمرة الآباء ، فإذا كان الآباء صالحين ، أصبح الأبناء صالحين كآبائهم ، فالشجرة الجيدة لا تنبت إلا ثمرة صالحة . فمن ثمارهم تعرفوهم ، وهل يجنى من الشوك العنب ، أو من العُلّيق(١) تين .

أما الشجرة الخبيثة فلا تنتج إلا ثمارًا خبيثة ، والثمرة الجيدة لا تنتج ثمرًا رديئًا . والشجرة الرديئة تقطع وتلقى فى النار .

ولذا كان يوصى بما أوصى به الله : أن تكرم أباك وأمك ، ومن أهان أباه أو أمه كان الموت عقابًا له .

اسمعوا أقوالى ، وأصيخوا لمواعظى واعملوا بها ، فإن فعلتم دامت لكم فى كتاب أعمالكم ، وتشبهون حينئذ رجلاً حكيمًا بنى بيته على صخر ، فنزلت الأمطار وجرت السيول ، وهبت العواصف ، فضربت البيت ، ولم يسقط ؛ لأنه مؤسس على الصخر .

ومن ينصرف عن موعظتى ولم يعمل بها ، أشبه برجل غبى بنى بيته على الرمال ، فنزلت الأمطار ، وجرت السيول ، وهبت العواصف ، فضربت البيت فسقط ، وكان سقوطه مدويًا ، فابنوا أعمالكم للرب ، تصلح دنياكم وآخرتكم".

كان المسيح يحث الناس على الرحمة والعدل والأمانة . ويحاول معهم أن يتخلصوا مما فى أفئدتهم من عمى ، ويتمسكوا بنور البصيرة الذى يلهمهم الصواب ، كان يقول لهم كاشفًا عن نفاقهم وخداعهم " إنكم تصفّون الماء من

---

(١) العليق : نبات يتعلق بالشجر ويتلوى عليه .

البعوضة ولكنكم تبتلعون الجمل " . تنظفون الكأس والصفحة من الخارج ، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع ، نظفوا أولا ما بداخل الكأس ، ليصير خارجها أيضًا نظيفًا .

يدعو الحواريين أن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء فى الشفافية والنقاء ، وألا يقولوا ما لا يفعلون ، فيزينوا للناس أنهم شرفاء وهم فى الواقع خبثاء ، يظهرون للجموع أنهم أعفّاء عن أموال الناس ، وهم يطمعون فيها ويستلبونها منهم .

يقولون إنهم أصحاب الخير والعدل ، ونفوسهم تمتلئ شرًا وحقدًا ، ورياء وفسقًا .

وأخذ المسيح عيسى ابن مريم ينتقل فى القرى والمدن ، يعلو الجبال وينزل الوهاد ، يبقى على شواطئ النهر أو بجوار الصخر ، يجوب الصحراء ، ويرتاد الوديان ، يلقى مواعظه ، وكلماته بين الناس ، ويتلقونها كأنها البلسم للجراح ، والدواء للمرضى ، والطعام للجياع ، والريّ للظمآن . كانوا يفرحون بتعاليمه ، ويقتدون بها ، وينفذونها فى حياتهم دون أن يحيدوا عنها ، وهكذا كان شأن أتباع عيسى ، فهو لا يتكلم من خواء ، ولا ينطق عن هوى ، وإنما كانت كلماته مستمدة من الله ، تحفظ قدرته وحكمته ، وتهدى الناس إلى الأعمال الخيرة ، وتنبذ الأعمال الشريرة .

المعجزة

تحدث القرآن كما تحدث الإنجيل عن الخوارق والمعجزات التى ظهرت على يد عيسى عليه السلام ؛ تأييدًا له ونصره بين قومه ، فهى علامة على أنه رسول من قبل ربه ، ومن ثم فينبغى أن تظهر على يديه ما يعجز الخلق عن الإتيان بمثله .

فمن الخوارق التى أتى بها عيسى : أن كان الوقت ليلاً والظلام يغطى الكون ، وكان قارب حوارييه قد بلغ وسط النهر ، والرياح العاتية تضرب القارب ، والأمواج تلاطمه وتقذف به يمنة ويسرة ، وركابه يصرخون فلا منجى لهم ، ودعوا ربهم مخلصين أن ينقذهم من الغرق والهلاك .

جاء المسيح فى الهزيع الأخير من الليل ماشيًا بقدميه على ماء النهر ، متجهًا نحو حوارييه ، وحواريوه فى منتصف النهر ، والنهر بعيد الأغوار عميق الباطن ، فراوا خيالاً يقبل نحوهم ، لم يروا فيه إلا شبحًا ، ولم يخطر ببالهم أن يكون هو المسيح عيسى ابن مريم ، واستبد بهم الفزع ، فاشتد صراخهم ، وارتفع صياحهم ، من هول الأمواج وظهور الأشباح .

فى الحال طمأنهم المسيح ، وطلب منهم أن ينفضوا الخوف عن أنفسهم ، فهو ليس شبحًا ، وليس من حيوانات الماء المفترسة ، إنه المسيح بعينه جاء لينقذهم من الغرق فى قاع النهر ، سلموا من الهلاك وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى المقابلة ، ونزل المسيح فى البر مع الحواريين الذين كانوا فى القارب ، وتحدث الناس عن هذه الأعجوبة الخارقة .

وأرسلو الخبر فى البلاد المجاورة ، فذاع بينهم ، وانتشر انتشار الفرحة فى القلوب ، بعد رؤية النبع فى صحراء مهلكة .

اصطحب عيسى ابن مريم تلاميذه ثلاثة أيام يجوب بهم المدن والقرى والجبال والوهاد ، ولم يكن لديهم طعام يسدون به رمقهم ، فشعروا بالخور فى أجسامهم ، والتبلد فى رءوسهم ، ولم يستطيعوا مواصلة السير .

لم يكن لديهم خبز يأكلونه ، أو إدام يتبلغون به الخبز ، سوى سبعة أرغفة وبعض سمكات صغار، وكان عدد الرجال سبعة آلاف رجل عدا النساء والأطفال، فكيف لهذه الأرغفة السبعة ، والسمكات التى تعد على أصابع اليد الواحدة ، تكفى هذه الألوف من الرجال والصبيان والإماء ؟ فلو حصل كل رجل على كسرة واحدة ، ونزر يسير من السمكة ، لما تجاوز عدد الآكلين - مهما تقشفوا - المائة .

ولكن معجزة الله لنبيه شاءت أن يأكل الجميع حتى يشبعوا ، ثم رفع تلاميذه سبع سلال امتلأت بما فاض من الكسر ، وما زاد من السمكات .

وفى إنجيل متى أن رجلاً تقدم إلى يسوع ومعه ابنه الذى أصيب بالصرع ، ولا يستطيع هذا الابن أن يسيطر على نفسه ، فأحيانًا يلقى بجسده فى الماء أو يسقط فى النار ، فيسبب لنفسه الضرر ، ولأبيه الفزع .

جثا الرجل أمام المسيح يسأله أن يشفى ابنه بعد أن أعيى مرضه الطب ، وعرضه على تلاميذ المسيح ، ولكنه ظل على حاله من الصرع ، فطلب منه المسيح أن يحضر الابن أمامه ، ولما لمست يد المسيح رأس المصروع ، زال ما به من مرض ، وأصبح سليمًا وعافى .

ورجل أصيب بالبرص - بياض يقع فى الجلد لعلة - جاء إلى يسوع وخرّ على وجهه متوسلاً : ياسيد إن شئت فطهرنى مما أنا فيه من مرض ، فمدّ إليه يسوع يده ولمسه ، وفى الحال زالت عنه علته ، وشفى من مرضه .

الجموع تترى وتتعقب المسيح من مكان إلى مكـان ، يلتمسـون منـه البركـة والشفاء ، يذهبون معه فى كل مكان يحل به ، ألوف تسير معه وتتنقل بين يديـه ، فجاء بعضهم يحمل على فراش إنسانًا مشلولاً فاقد النطق ، هـامد الأعضـاء تغشـاه سحابة من التسليم بالقضاء ، نظراته ساكنة ، فيها كثير من التوسل والضراعة .

سألوا السيد المسيح أن يشمله بالبركة فيلمسه بيده أو يتحـدث إليـه ، فقـال للرجل الأشل : " لك أقـول ، قـم واحمـل فراشـك ، واذهـب إلى بيتـك " فنهـض الرجل واقفًا على قدميه يتكلـم فـى يسـر ، وقـد أشـرق وجهـه ، وفـاضت عينـاه بدموع الفرح .

أخذت الحيرة بألباب الجميع ، واستولت عليهم الدهشـة وقـد تملكهـم شئ من الرهبة الممتزجة بالأمل ، فكم هى معجزة وعجيبة ما فعله المسيح بالرجل الأشل .

وتبع المسيح رجلان أعميان ، انمحى الإبصار من عيونهما فلا يريـان شيئًا ، يسمعان صوت المسيح ويستوعبان مواعظه ، إلا أنهما فقدا نعمـة البصـر ، والكـون حولهما ظلام دامس ، وقد شعرا بالحرمان من هذا النور الذى يتمتع به أولو الأبصار .

صرخا قائلين للمسيح : ارحمنا يا ابن داود ، لقد فقدنا البصر منذ ولادتنـا ، ونحن نهيب بك أن تنتشلنا مما نحن فيه من حرمان البصر ، ونود من صميـم قلوبنـا أن نستمتع بأبصارنا ونرى الناس حولنا شأن الجموع المحتشدة حولك .

لمس أعينهما ، فعاد النور والإبصار إليها ، وانفتحت أعينهما ، وتمتعا ببصـر سديد ، وانطلقا يذيعان الخبر فى البلاد كلها .

وهكذا كان المسيح يشفى بلمسة من أصابعـه ، يشـفى الأبـرص والأخـرس والأكمه ، والأشل ، ومن ولد بعاهة ، ومن عاش بمرض عضال ، كـان المسيح يبـذل

الخير للناس جميعًا ، لكل من يحتاج إليه يقدم له العون ، وكان يحدوه فى كل ذلك الإيمان با لله ، وقدرة ا لله ، لم يرد تظاهرًا أو ادعاء ، أو يتسامع الناس أنه ينهض بما لا يستطيع غيره أن يقوم به ، لذا كان يؤكد على من يبرأ بلمسة من أصابعه ألا يذيع النبأ ولا ينشر الخبر ، ولكن الناس لشدة فرحتهم ، وطغيان مسرتهم ، لا يخفون شيئًا من عجائب عيسى التى أعانهم بها وقدمها إليهم .

منح ا لله عيسى ابن مريم من المعجزات مالم يمنحه لأحد من الأنبياء قبله ، فهو يشكل من الطين صورة للطير ، ثم ينفخ فيها فتصير طيرًا حقيقيًا بإذن ربه ، فا لله وحده هو القادر ، وهو الذى يظهر معجزاته على يد أنبيائه والمقربين إليه .

كان يحيى الموتى بإذن ربه ، الميت الذى فقد خفقة القلب ، ووظيفة الدماغ ، وأصبح جثة هامدة ، والناس تستعد لدفنه ، أو دفن بالفعل ، أحيى أربعة أنفس : أحيى العازر وكان صديقًا له ، فقام العازر من قبره ، وكان قد مات منذ ثلاثة أيام ، وبقى حتى أنجب .

وأحيى ابن امرأة عجوز مر به ميتا محمولاً على سرير فدعا له ، فجلس على سريره ، ورجع إلى أهله ، فبقى وولد له .

وأحيى ابنة رجل يجبى العشور ، فدعا لها ، وعاشت وبقيت وأنجبت .

بل طلب القوم من المسيح ماهو أكثر من ذلك ، إحياء من مات منذ زمن طويل كسام بن نوح ، فطلب منهم أن يدلوه على قبره ، فدعا ا لله بالاسم الأعظم فنهض من قبره وخرج منه .

وسألوا المسيح أن يخلق لهم خفاشًا ويجعل فيه روحًا ، كما يتحرك الخفاش الذى يرونه فى الأماكن المظلمة المهجورة ، طلبوا منه الخفاش على وجه الخصوص ؛

لأنه أعجب من سائر الخلق ، فهو من لحم ودم ، يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد الحيوان ، ولا يبيض كسائر الطيور ، وله ضرع يخرج منه اللبن ، ولا يبصر فى ضوء النهار ، ولا فى ظلمة الليل ، وإنما يرى فى ساعتين ، بعد الغروب ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة ، حين يبدأ الليل ، وحين يدخل الصباح ، يضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة ، فلما حقق لهم مطلبهم ضحكوا منه ، وقالوا هذا سحر لا يصدر إلا من ســاحر ، ولكن المسيح لم يتعلم السحر على يد أحد ، ولم يعرف عنه أنه كان ساحرًا .

أراد الحواريون أن يقفوا على مآثر عيسى ، فطلبوا منه شيئًا غريبًا إذا حققه لهم واستجاب لطلبهم سيخلصون له فى إيمانهم ، ولن يحيدوا عنه أبدا ، سألوه شيئًا بحفًا ، فقالوا متهكمين عليه ، أن يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، تحوى ألوانًا من الطعام ، وصنوفًا من الفاكهة يرونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم ، ويطعمونها بأفواههم ، فإذا حدث ذلك وقدر أن يفعله ، آمنوا به ، واعتقدوا بآيات الله ، وهم لا يريدون بهذا السؤال إزالة الشبهة فى قدرة الله على إنزالها ، أو التشكيك فى نبوّة عيسى ، وإنما يريدون الأكل منها تبركًا بها ، فيشفى منها المريض ، ويتقوى بها السليم ، ويستغنى الفقير ، فإذا فعلت ذلك اطمأنت قلوبنا ، وعلمنا يقينًا أنك صادق فى نبوتك ، ونكون من الشاهدين بالعين دون السامعين للخبر .

عندئذ دعا عيسى ربه دعاء حارا يفيض ضراعة وخضوعًا ، أن ينزل على قومه مائدة من السماء ، يكون نزولها يوم عيد للمتقدمين منهم والمتأخرين ، وتكون آية على كمال قدرتك وصحة نبوة رسولك ، تستوجب منهم الشكر على النعمة ، وتزيل عنهم كل نقمة .

أوحى الله لنبيه عيسى إنى سأنزل المائدة على قومك ؛ استجابة لضراعتك وهداية لقومك ، فمن يكفر بعد ذلك فسوف يصيبه منى عذاب روحى وبدنى لا يحتمله ، ولم أعذبه أحدًا من العالمين السابقين .

نزلت مائدة حمراء بين غمامتين ، وسقطت بين أيدى الناس ، وكشف عيسى عنها الغطاء ، فإذا سمكة مشوية ليس بها قشور ولا أشواك ، غارقة فى الدسم ، تفوح منها رائحة شهية نفاذة ، عند رأسها ملح ، وقرب ذيلها خلّ ، وحولها أنواع من البقول ، وخمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، والثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وفى الخامس لحم جاف مملح .

دعاهم عيسى إلى تناول الطعام ، والشكر على مدد الله ، والاعتراف بفضله ، فما طلبوه ماثل أمام أعينهم ، وبين أيديهم ، لبثت المائدة قائمة بينهم يومًا واحدًا ، أكل منها من أكل ، أكل منها الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والعليل والسليم ، كان الأكل من المائدة مباحًا للجميع ، لم يمنع منها أحد ، ولم يصدّ عنها إنسان ، فلم يأكل منها فقير إلا اغتنى طوال عمره ، ولا سقيم إلا زالت علته وبلّ من مرضه ، ولم يعتلّ بعد ذلك أبدًا ، كانت آية للعالمين ومعجزة بينهم ، وأراد كل من علم بشأنها ، أو رآها مبسوطة أمامه أن يأخذ نصيبه منها، خمسة أرغفة فحسب ليس عليها إلا اليسير من الإدام تكفى هذا الحشد العظيم الذى التفّ حولها ، ونال منها ما أشبعه ، وبدد جوعه ورغبته فى المزيد منها ، فقد امتلأت البطون وانتشت الأجسام ، وانشرحت القلوب ، ولم تطلب بعد ذلك المزيد ، فكل ما اشتهته النفس من طعامها حصلت عليه وفرحت به .

ثم أوحى الله إلى عيسى أن يجعل مائدته فى الفقراء والمرضى ، دون الأغنياء والأصحاء ، كان هذا الإيحاء لحكمة اقتضاها رب الكون ، ولسبب لا يدركه

سواه . وفشا ذلك الخبر بين الناس ، وبدلاً من أن يظهر الأصحاء الأغنياء تحرجهم من ذلك شكوا فى أمر المائدة ، وشككوا الناس فى شأنها ، قالوا إنها لم تنزل من السماء كما زعم عيسى ، وليست دليلاً على صحة نبوته ، فأرجفوا فى القول ، وصدّق بعض الناس فريتهم ، غير أن معظم القوم أكلوا منها ، وصدقوا حقيقتها بأنها نزلت من السماء بدعاء المسيح ، ورغبة منهم حتى يصدقوه ويقطعوا كل شك فى رسالته .

عاقب الله المنكرين للمائدة ، وأرجفوا أنها لم تنزل من السماء ، بل كانت من صنيع عيسى ، و لم تكن تأييدًا له ، بل افتراء منه .

عاقب الله المتشككين فى نزول المائدة أفدح عقوبة ، وحل بهم أسوأ مصير ، فأنزل عليهم أشد العذاب وأقساه ، مسخهم خنازير ، والخنازير طبعها لئيم تهفو نحو القاذورات ، وتسعى إليها فى الطرقات ، وتفتش عنها فى الكناسات ، وتأكل الفضلات ، فيها برودة حس لا تغار على شئ حتى أنثاها ، إذا اغتصبها منه خنزير آخر لا يبالى ، خلاف غيره من الحيوان الذى يدفع حياته ثمنًا للدفاع عن عرينه وما يضمّ من عائلته .

لما رأى الناس ما حل بأغنيائهم من عقاب ، ومسخهم خنازير فزعوا إلى عيسى ، وبكوا على الممسوخين ، وجعل عيسى عليه السلام يدعو الممسوخين بأسمائهم واحدًا بعد الآخر ، والممسوخون يومئون برءوسهم دون أن يستطيعوا الكلام ، ثم عاشوا فترة قصيرة دون أن يتوالدوا .

هذا هو شأن المائدة التى سألها قوم عيسى ، وأن ينزلها الله عليهم حتى يستجيبوا لدعوته ، فلما نزلت شككوا فى أمرها فلحقهم عذاب لم يلحق أحدًا

غيرهم ، حيث مسخهم الله قردة وخنازير فى بشاعة خَلْقهم ، وخسة خُلقهم ، ووضاعة نفوسهم .

فطوبى لمائدة المسيح ، هذه المائدة الكريمة الحافلة التى أشبعت الألوف ، وتعدّ آية من آيات التأييد لنبى أرسله الله إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد والعبادة ، فلم يستجيبوا له ، ولم يؤمنوا بنبيه .

طوبى لمائدة المسيح التى حولت الكافرين إلى خنازير ، وبدلت المنكرين إلى قردة .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى لعن الله فيها اليهود ومسخهم قردة وخنازير : مسخوا أولا حين كانوا أطفالاً يصاحبون عيسى ، وكان يخبرهم بما تخفى الأمهات لأطفالهم وصبيانهم من صفوف الحلوى والأطعمة ، ويجدون ما يقول عيسى حقًا ، فخاف الآباء والأمهات على أولادهم فمنعوهم من البقاء معه ، ووضعوا أولادهم وراء أبواب مغلقة ، فإذا جاء عيسى وسأل عنهم أنكروهم ، وقالوا إن وراء الأبواب قردة وخنازير ، فقال عيسى هم كذلك ، فصاروا قردة وخنازير بكلمة عيسى .

وقبل نزول المائدة تحول اليهود قردة وخنازير ، وهى قصة أشار إليها القرآن فى غير موضع :

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدَوا منكم فى السبْت فقلنا لهم كونوا قِردة خاسئين ﴾ (سورة البقرة : الآية ٦٥) .

وقوله : ﴿ فلما عتَوا عن ما نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (الأعراف : الآية ١٦٦) .

وقوله : ﴿ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكانا وأضلّ عن سواء السبيل ﴾ (المائدة : الآية ٦٠) .

والقصة أن اليهود قد ابتلاهم الله حين حرم عليهم ما كان حلالاً ، وكانوا فى قرية بين أيلة والطور تسمى مدين ، فحرم الله عليهم صيد الحيتان فى يوم السبت وأكلها ، وكانت الحيتان تختفى أيام الأسبوع كلها وتظهر يوم السبت ، وهو اليوم الذى حرم فيه صيدها وأكلها ، فإذا ذهب السبت ذهبت معه الحيتان ، وظل الأمر كذلك وطال عليهم الأمر ، حتى جاء رجل منهم وأخذ حوتًا خفية ، وربطه بخيط وأوْتد له ، بحيث لا يستطيع الفكاك والذهاب فى عرض البحر ، وتركه فإذا كان اليوم التالى ، أخذه وزعم أنه لم يحصل عليه يوم السبت ، وإنما حصل عليه يوم الأحد ، وليس يمتنع الصيد يوم الأحد ، وانطلق وأكله ، وعاد الرجل لمثل ما فعل فى المرة السابقة ، فأخذ الناس فى شم رائحة الشواء ففعلوا مثل ما فعل الرجل ، وأكلوا من الحيتان سرًا زمانًا طويلاً ولم يعجل الله لهم العقوبة ، فأكلوها علانية وباعوها فى الأسواق .

قال أهل التقوى منهم : ويحكم : لا يحل لكم صيد الحيتان يوم السبت ، فقالوا : لقد أخذناه يوم الأحد لا يوم السبت ، ردوا عليهم بأنهم صادوها يوم السبت فلم يخرجوا عن الإثم ، ولكنهم لم يتعظوا ، ولم ينتهوا عن ذلك ، فالله معذبهم عذابًا شديدًا لا قبل لهم به .

فإذا بهم ينقلبون قردة وخنازير ، وحل بهم المسخ والرجف والصعق ، فكنوا خاسئين مبعدين مطرودين عن كل خير ، أذلاء صاغرين ، كما يخسأ الكلب ويطرد .

وذلك أن المجرمين لما أبوا قبول النصح ، والكف عن الصيد فى يوم السبت المحرم عليهم الصيد فيه ، قال الناهون لهم : لا نساكنكم فى قرية واحدة ، وقسموا القرية بجدار يحول بين الفريقين .

مسخوا ليلاً ، فلما أصبح الناهون أتوا أبواب العاصين ، فلم يسمعوا لهم حركة ولا صوتًا ، وإنما أبوابهم مغلقة عليهم ، وهم كامنون خلفها .

تسوروا الحيطان فرأوا منظرًا أفزعهم ، وأصابهم بالدهشة والذهول ، فلم يكونوا يتوقعون أن يتحول الشبان قردة ، والشيوخ خنازير لها أذناب ، وجعلت القردة تأتى أنسابها من الأنس فتشم ثيابه ، وتبكى بدموع سخية تفيض من أعينهم ، وماتوا بعد ثلاثة أيام لم يتوالدون فيها .

أما القردة التى نراها اليوم ، فليست من أنسابهم ؛ بل هى من نسب المخلوقين من القردة التى كانت قبلهم .

الألوهية

عيسى ابن مريم سمى بالمسيح ، لأنه كان يمسح الأرض ويضرب فيها من مكان إلى مكان ، ينشر دعوته الصادقة المؤيدة من ربه بخوارق شتى . خوارق يفتقر إليها المرضى والأكفاء ، والصم والبكم والزمنى وذوى العاهات التى تأصلت فى أجسادهم وأعضائهم .

ولقب عيسى بالمسيح أيضًا ؛ لأنه كان يصدق فى حديثه ومواعظه ، يؤلف بين القلوب المتناحرة . والصدور المغلفة بالحقد والضغينة والحسد . فالمسيح معناها الصديق .

أو سمى بالمسيح ، لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ من سقمه وزالت علته ، وعاد صحيحًا معافى دون عاهة أو مرض .

أو سمى بالمسيح لأن الجمال مسح وجهه ، فبدا نضيرًا مشرقًا تشع أنواره حيث انتقل أو استقر .

فكلمة المسيح الذى خلقه الله خلقًا حسنًا وسيمًا مباركًا ، ضد كلمة المسيخ ، فهى من المسخ الشائه الملعون القبيح .

والمسيخ : الأعور ، وبه سمى المسيخ الدجال ، لأنه ممسوح إحدى العينين .

أو لأنه يطوف الأرض ، ويدخل أماكنها جميعًا عدا مكة والمدينة وبيت المقدس.

فالدجال يمسح الأرض محنة ، وابن مريم يمسحها منحة . قالت نصارى نجران إن الله قد حلّ فى روح المسيح وجسده ، فصار المسيح إلآها يعبد ، فبكتهم الله على زعمهم ، واستنكر ما صاروا إليه من ادعاء وتجديف . فالله إن أراد أن

يهلك المسيح ابن مريم ، بل إذا أراد أن يهلك من فى الأرض جميعًا لما عجز عن ذلك . فالذى خلق السماء والأرض قادر أن يهلك ما عليها من كائنات . والمسيح قابل للفناء شأنه شأن بقية البشر ، فكيف يكون إلهًا ، فالله حى لا يموت أبدًا ، باق قبل الخلق وبعده ، وعيسى غير قادر أن يدفع الهلاك عن غيره ، ولا يذود الموت عن نفسه .

والله وحده صاحب التصرف المطلق بالإحياء والإماتة ، وليس لأحد سواه .

ولقد أرسل الله عيسى ابن مريم ، مصدقًا لما أتى به الأنبياء السابقون ، وآتيناه الإنجيل المشتمل على الهداية والنور ، ومصدقًا للتوارة التى نزلت على نبى الله موسى ، فكان الإنجيل كما كانت التوارة هداية يهتدى بها الضالون الفاسقون إذا احتكموا لشرائعه ونفذوا أحكامه ، فإن فعلوا ، أصابوا وسعدت أحوالهم ، وإن نبذوا تعاليمه أخطأوا وضلوا سبيلهم .

أنزل التوارة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد ووضع لكل من هذه الأديان شرعة ومنهاجًا ، فالأمة من لدن موسى إلى عيسى شريعتهم التوارة .

ومن زمن عيسى إلى محمد كان شرعتهم الإنجيل ، ومن عهد محمد إلى فناء الكون دستورهم القرآن .

ولو شاء الله أن يجعل الجميع أمة واحدة متفقة على دين واحد من غير اختلاف بينها فى جميع العصور لما أجهده ذلك ، ولكنه لم يشأ أن تكون الأديان كلها متماثلة فى جزئياتها وتفاصيلها ، وإن كانت جميعًا تتفق فى الأصول والوحدانية ونبذ الشرك بالله .

فالله لم يشأ أن تكون الأديان كلها صورة واحدة ، اختبارًا للمخلوقات فيما أعطاهم من الشرائع المختلفة ، هل يعملون بها ، ويذعنون لها ، ويعتقدون فيها . أم يزيغون عن الحق ، ويتبعون الهوى ، وينبذون الهدى ؟ . والله وحده سينبئكم بما تختلفون فيه من أمر الشرائع والأديان .

غير أن اليهود تمادوا فى فنون المعاصى والفساد ، فكانوا عميًا صما عن الحق ، اجترأوا على الأنبياء فقتلوا زكريا ويحيى ، وقصدوا قتل عيسى ولكن الله لم يمكنهم من هلاكه . فمنهم من غالى فى عبارته حتى جعله إلّـها ، ومنهم من حقد عليه فدبر لقتله ، وتآمر عليه مع أعوانه الحاقدين .

قال بعض النصارى : إن الآلهة ثلاثة ، والألوهية شركة بينهم : الله وعيسى وأمه مريم .

أنكر الله عليهم هذا الزعم وإصرارهم عليه ، فالله واحد منزه عما نسبوه إليه من الحلول والشركة ، فإن استغفروا فالله يقبل استغفارهم ، فهو غفور لهم ، حفى بهم ، رفيق بأحوالهم ، فالمسيح بشر ، ورسول من الرسل الذين جاءوا تترى واحدًا فى إثر الآخر ، لا يتعدى الرسالة إلى الألوهية ، وأمه مريم العذراء ليست إلا امرأة كسائر النساء اللاتى التزمن بالصدق فى الكلمة والوفاء بالعمل ، والرسول محمد خاتم الأنبياء والرسل ، كان يقول : إنه ابن امرأة كانت تأكل القديد ، أى اللحم المقدد : المملح المجفف فى الشمس ، مريم الأم البتول ، وعيسى الابن الرسول ، كلاهما بشر يأكلان من الطعام كما يأكل البشر ، ويطردان فضلات الطعام كما يفعل البشر ، فكيف يكون عيسى إلّـها ، وتكون أمه مريم إلّـها ؟ ولا تقوم لأحدهما قائمة إلا بأكل الطعام ، والنهل من الشراب .

أليس فى ذلك برهان حى على أن مريم وابنها من البشـــــر كبقيـة النـاس ، إلا أن الله فضله بالنبوة ، ووصف أمه بالقانتة الصديقة .

والمسيح لا يملك لكم شيئًا من النفع ولو كان قليلاً ، ولا يدفـع عنكـم أثـرة من الضرر ولو كان يسيرا ، إلا بإذن الله وحده ؛ لأن الأنبياء والأولياء لا يملكـون النفع أو الضرر لأحد ، إلا إذا شاء الله .

فلا تغلوا فى دينكم فترفعوا المسيح وأمه إلى مقـام الألوهيـة ، فتتبعـوا أهـواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا عن سواء السبيل .

فـآمنوا بـالله وخصـوه بالألوهيـة ، وآمنـوا برسـله جميعًـا ، وآمنـوا بعيسـى باعتباره رسولاً كبقية الرسل ، ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة :

الله والمسيح ومريم ، فانتهوا عن التثليـث ، وقولـوا خـيرًا مـن هـذه المقولـة الشنعاء ، فالله منزه أن يكون له ولد ، أو تكـون لـه زوجـة ، فـالله خـالق لجميـع المخلوقات ملكًا وتصرفًا ، ومن جملتها عيسى ، فكيف يتوهم أنه ابن الله ، وجميع الخلق يتوكلون عليه فى شتى أمورهم .

ولن يترفع المسيح أن يكون عبدًا لله ، فالعبودية لله شرف للإنسـان يتبـاهى بها ، وليس الأنس وحدهم عبيد الله ، بل الملائكة أيضًا لن تستنكف أن تكون من عبيد الله ، والملائكة المقربون : ميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم لا يترفعون عن عبادة الله .

فالله رب الإنس ، ورب الجـن ، ورب الملائكـة ، وهـم جميعًـا يدينـون لـه بالمخلوقية والتصرف .

وليس معنى أن المسيح روح من الله وأن " من " تفيد البعضية أى أن المسيح بعض الله ، أى ابن الله .

فقد ورد فى القرآن آيات تفيد أن الكون كله : سماءه وأرضه من الله حيث يقـول سبحانه : ﴿ وسـخر لكم مـا فى السموات وما فى الأرض جميعًـا منـه ﴾ (سورة الجاثية : الآية ١٣) .

فلو كان الزعم صحيحًا لكانت السموات والأرض أبناء الله ، أو آلهين مـن دون الله ، وهذا أمر لا يستحق الرد .

المؤامرة

تألب الناس بعضهم على بعض ، حتى كان الأخ يسلم أخاه إلى الموت ، والأب يتخلى عن ابنه إذا وقع فى محنة ، فلا يبالى بابنه إن هلك أو سلم ، والأبناء انقلبوا على آبائهم حتى أرادوا قتلهم ، وأصبح الكره أمرًا شائعًا بين الناس ، والتعاليم التى كان يقولها المسيح لتطهير النفس ، وحب العدل والرحمة ، طارت شعاعًا فلم يحفل بها الكثيرون ، و لم يعملوا بمقتضاها ، فانقلبت الأحوال ، وتحولت من الأحسن إلى الأسوأ ، حتى هموا بقتل عيسى ، وأخذوا يكيدون له ويتحينون الفرص للغدر به ، حتى يقبضوا عليه ويسلموه للمحاكمة ، فيقتل جزاء تعاليمه ومواعظه .

ومن مغبة كيدهم وتآمرهم ، أظلمت الشمس ، واحتجب القمر ، وتهاوت نجوم السماء ، حتى عم الأرض الظلام والخوف . وما زال الكهنة يسعون للقبض على المسيح ، يسعون إليه فى كيد وتآمر ، وكان ذلك قبل عيد الفصح بيومين ، ولكنهم أرادوا ألا يحدثوا بلبلة أو اضطرابًا فى يوم العيد ، فأجلوا كيدهم ، والقبض عليه إلى فرصة أخرى تكون سانحة ملائمة .

وتدبروا الأمر وأحكموا الخطة حتى أمسكوا بالمسيح وساقوه للمحاكمة ، أخذوا يبحثون عن شهادة تدين المسيح بتجديفه وهرطقته ، فلم يجدوا شهودًا حتى يدينوه ، ويحكموا عليه بالموت ، شهد الكثير شهادة زور لم تفلح فى إدانته ، فالشهادة يناقض بعضًا بعضًا ، ولا تدل على تأثيمه وإدانته .

ولكنهم أصروا على هلاكه بشهادة ولو كانت زورا . قام بعضهم وشهد عليه بما لم ير ، وما لم يسمع ، شهد عليه زورا ، فالكهنة تريد أن تسمع

من الشاهد ما يحلو لأسماعهم ، وما يستطيعون أن يدينوه به ، قال شاهد الزور : ليس واحدًا بل حفنة من الظالمين المنافقين المكذبين ، سمعناه يقول :

سأهدم هذا الهيكل الذى صنعته أيدى المخلصين وسأبنى هيكلاً آخر ، أفضل منه ، أصنعه بيدى ، فى ثلاثة أيام .

قال رئيس الكهنة ، لعلك ترد عليهم ما قالوا وتبرئ ساحتك من هذا الاتهام . إلا أن المسيح ظل صامتًا هادئًا ، دون أن يرد عليهم فريتهم .

ألحوا عليه أن يتكلم فقال فى النهاية : أنا المسيح حبيب الله تحفنى قدرته وحمايته ، وتزفنى ملائكته ، تحمينى من كيدكم وضلالكم ، فافعلوا ما بدا لكم ، ولكن الله سينقذنى من مؤامرتكم وخداعكم وبهتانكم ، وسأعود إليكم من سحب السماء مكللاً بنور الله وترانيم ملائكته .

هذا تجديف ، صاحت الجموع ، يستحق عليه الموت والصلب ، فحكموا عليه بالموت . وأخذوا يصيحون به ويتهكمون عليه ، يبصقون على وجهه ، ويصفعونه ، وساقوه أمامهم فى مشهد ساخر غير كريم .

كان المارة يتناولونه بالشتم والهزء ، ويهزون رءوسهم ساخرين مترنمين .
يا هادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام ، ألا تستطيع أن تخلص نفسك ، ألا تقدر أن تنزل الصليب المعلق على جسدك ، إن كنت لا تستطيع فكيف بك تهدم الهيكل ، وتقيمه فى ثلاثة أيام ؟

إنه يستطيع فقط أن يخلص غيره ، أما نفسه فلا ، يا ملك إسرائيل أين قدرتك الباهرة ، ومعجزاتك النافذة التى تحدث عنها الجميع ؟ خلص نفسك ، ونحن نؤمن بك ، ونتبع خطاك .

أشبعوه سخرية وتهكمًا . وألقوا عليه من كلماتهم المريرة البذيئة كل ما فى جعبتهم من قارص الكلم ، ولاذع الصيحات ، واستمروا فى هزئهم والتنكر له ، حتى حل الظلام وشمل الأرض كلها ، وداخل الناس الخوف ، والرهبة مما سينجلى عنه الموقف ، فلابد أن كارثة ستحدث ، وظلمة الكون فى ساعة الضياء ومنتصف النهار شاهدة على وقوع الكارثة .

تضرع المسيح بالدعاء إلى ربه قائلاً : إن هؤلاء القوم يريدون الفتك بى وقتلى ، وما أنا إلا رسول من قبلك ، جئت إليهم أعلن رسالتك ، وأبغى هدايتهم ، وبعدهم عن الضلال ، ولم أفعل سوى ما أمرتنى به ، أن يعبدوك ويتقوا سخطك وغضبك . فلم لا تحمينى من شرهم وأذاهم ، من كيدهم وفتنهم ؟

ولكن قلبًا تفتت من صرخة المسيح ، فقد ظلمته الحشود الهائلة ، واتهمته بما هو برئ منه ، فجرى نحوه وبيده اسفنجة مبللة بالماء ، وثبتها على قصبة طافت على شفتيه ، تبلل فمه الصادى بالماء .

أراد اليهود قتل المسيح ، يريدون أن يقتلوه غيلة وخداعًا ، ومكروا به مكرًا لئيمًا ، غير أن الله واجههم بمكر أشد من مكرهم ، فرفعه إليه ونجاه من غدرهم ، وألقى الشبهة على من قصد اغتياله ، فقتل بدلاً منه .

فالله عصم عيسى من أن يقتله الكفرة اليهود ، وأخر موته إلى أجل معين ، وسوف يموت كما مات الأنبياء قبلاً ، يموت حين يأتى أجله ، لا بأيدى اليهود ، ولا بأيدى الحاسدين منهم ، وسأرفعك إلى مقر ملائكتى تعظيمًا لك ، ومبعدك عن سوء جوارهم ، وخبث معاشرتهم .

أما من آمن بك واتبع دينك ، فجاعله فى أرفع مكانة وأسمى منزلة ، وأوفيه أجره بما كسبت يداه من خير ، وعمل صالح .

أخبر المسيح قومه أنه جاء مؤيدًا لرسالة موسى ، مصدقًا لما جاء به من التوارة ، وقد أحل بعض ما كان محرمًا فى ديانة موسى ، مما يدل على أنه نسخ بعض شريعته ، وجاء بعلامة شاهدة على صحة الرسالة التى حبى بها الله المسيح .

ولكن عيسى عليه السلام استشعر من اليهود التصميم على الكفر ، والاستمرار فى الضلال ، وأنهم يكيدون لأنبياء الله ويريدون قتله . ولكن الحواريين أيدوه ونصروا دين الله ، وانقادوا لرسالته .

تآمر اليهود على قتل عيسى ومكروا به ، ولكن الله نجاه من كيدهم وشرهم ، ورفعه إلى السماء دون أن يمس بأذى ، ألقى الله شبه المسيح على يهوذا الأسخريوطى أحد حوارييى المسيح الذى خانه فى مقابل ثلاثين قطعة من الفضة ، فأخذوه وقتلوه ظنًا منهم أنه عيسى ، وعصم الله عيسى من القتل ، ولم يقتلوه حين أرادوا قتله ، ولكن بقى مرفوعًا عن الأرض بعيدًا عنها ، مرفوعًا إلى السماء ومقر ملائكة الله ، فلن يموت المسيح إلا بعد أن يستوفى أجله المكتوب ، ثم يتوفاه الله بعد ذلك ، فقد رفع إلى السماء دون موت أو نوم ، وقد خلصه الله من اليهود والمجوس والكفار الذين دبروا لقتله ، وطهره من جوارهم ، وخبث صحبتهم ، وسوء طويتهم .

فعندما أرادوا قتله زجوا به فى غرفة بها روزنة – كوة غير نافذة – فرفعه جبريل من تلك الكوة إلى السماء ، وطار مع الملائكة حول العرش ، وقالوا لرجل خبيث منهم : ادخل عليه فاقتله ، وعندما دخل البيت ألقى الله شبه عيسى عليه جسمًا وشكلاً ، فخرج يخبرهم أنه ليس بالبيت ، فقتلوا الرجل بدلا منه ؛ لأنه شبه لهم ، فظنوه هو نفسه المسيح ، ولم يكن المسيح ، بل كان يهوذا الأسخريوطى .

إذ قال الله ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ (سورة آل عمران : الآية ٥٥) .

﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ أى قابضك من الأرض حيًا إلى جوارى ، وآخذك عندى من غير موت ، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر ، فإنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت .

بعث الله عيسى داعيًا ومبشرًا ، يدعو إلى عبادة الله وحده ، ولكنه رأى قلة من اتبعه ، وكثرة من كذبه ، شكًا إلى ربه كنود قومه ونكوصهم عن الاستجابة له ، فأوحى له ، أوحى إليه أنى متوفيك ورافعك إلى ، وليس من رفعته عندى ميتًا ، وإنى سأبعثك على المسيح الدجال الأعور فتقتله ، ثم تعيش بعد ذلك فترة من الزمن ، أميتك ميتة الأحياء .

وعندما تهبط إلى الأرض ، تهبط حكمًا عدلاً ، وإمامًا محسنًا ، تكسر الصليب ، وتقتل الخنزير ، وتضع الجزية ، فيفيض المال حتى لا تجد من يأخذه .

يقول الرسول محمد ﷺ الأنبياء أخوة لعلات [1] ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، فليس بينى وبينه نبى ، وهو خليفة على أمتى ، وأنه نازل إلى الأرض ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع الخلق ، وجهه أبيض ، مشرب بحمرة ، سبط الشعر ، كأن شعره يقطر دون بلل ، يدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض المال ، ويقاتل الناس على الإسلام ، حتى يهلك الله الملل كلها فى زمانه ، ويهلك المسيح الدجال ، فيقع فى الأرض الأمان حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضًا ، فيثبت على الأرض مدة ثم يتوفاه الله ويصلى المسلمون عليه ويدفنونه .

---

(١) البخارى ٢٠٣/٤ ، مسلم الفضائل رقم ١٤٣-١٤٥ ، مسند أحمد ٣١٩/٢ ، ٤٣٧ .

أما الذين اتبعوا عيسى ، وساروا على نهجه وملته من الإسلام ، والإسلام دين يشمل الأديان جميعًا ، والأديان كلها تشترك فى الدعوة إلى العبودية لله ووحدانيته فهم المؤمنون به ، ويظهرهم الله على المخالفين لدينه ، وينصرهم عليهم ، ويعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا كاملاً .

أما الذين جحدوا نبوة عيسى عليه السلام ، وخالفوا ملته ، وكذبوا ما جاء به من الحق ، وأرجفوا القول عليه إثمًا وبهتانا ، وكفروا وضلالاً ، وقالوا فيك الباطل ، وجعلوا نسبك متصلاً با لله ، وأنك ابن الرب ، فسوف أعذبهم عذابًا شديدًا بالقتل ، والسبى ، والمسكنة ، والمذلة فى الدنيا ، وبنار جهنم وبالخلود فيها أبدًا ، ليس لهم من ناصر ولا معين ولا شفيع من عذاب الله ، ولا مانع عن أليم عقابه .

بدأت حياة المسيح غريبة عجيبة ، وكانت ولادته بغير أب ، وانتهت حياته على الأرض برفعه إلى السماء ، فكان ذلك أعجب وأغرب ، فلم يحدث ذلك لنبى من الأنبياء غيره ، ولا لأحد من البشر .